وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

حكايات العارف النيسابوري وعبد الله المحجوب

الصديق بشير نصر

جمعية الدعوة الإسلامية العالمية
WORLD ISLAMIC CALL SOCIETY
Association Mondiale de L'Appel Islamique

الصديق بشير نصر

حكايات العارف النيسابوري وعبد الله المحجوب

تاريخ
تصوف
٦
١
١٢

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ISBN 978-9959-28-263-7

WORLD ISLAMIC CALL SOCIETY
Association Mondiale de L'Appel Islamique

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

حكايات العارف النيسابوري وعبد الله المحجوب

الصديق بشير نصر

جمعية الدعوة الإسلامية العالمية
WORLD ISLAMIC CALL SOCIETY
ASSOCIATION MONDIALE DE L'APPEL ISLAMIQUE

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

حكايات العارف النيسابوري وعبد الله المحجوب

الصدّيق بشير نصر

منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية

طريق السواني ـ طرابلس ـ الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى
هاتف: 65 ـ 4808461 ـ بريد مصور: 4800293 ـ ص.ب: 2682 طرابلس
Website: www.islamic-call.net
E-mail: media@islamic-call.net

الطبعة الثانية: 1378 من وفاة الرسول ﷺ (2010) مسيحي
الرقم المحلي: 479/ 2009 دار الكتب الوطنية ـ بنغازي
الرقم الدولي: ردمك ISBN:978 - 9959 - 28 - 263 - 7

«يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع
والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق
إلا بإذن خطي من جمعية الدعوة الإسلامية العالمية»

حقوق الطبع محفوظة لجمعية الدعوة الإسلامية العالمية

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT
Est. 2012 CE

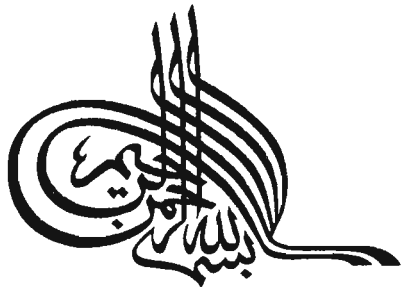

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT
Est. 2012 CE

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الإهداء

في حياتنا رجال لا يملك المرء إلا أن يُعْلِيَ من قدْرِهم إكباراً لهم وتعظيماً..

رجالٌ ساقهم القدرُ في طريقنا رحمةً بنا لينيروا قلوبَنا، وليشيعوا في نفوسنا الأملَ والثقَة..

رجالٌ ملؤوا حياتنا بفيض عطائهم ونبلِ أخلاقهم..

إلى أحدِ أولئك الرجالِ الأفذاذ الذين كُتِبَ لي أن ألتقيَ بهم، فأذهلني ما رأيتُ فيه من قوّة شكيمة، ورباطة جأشٍ، وتواضعٍ جمّ، ومحبّةٍ للناس.

إلى شيخِنا وأستاذِنا

محمود صبحي عبد السلام

تعوّد بَسْطَ الكفّ حتى لو أنّه ثَنَاها لِقَبْضٍ لم تُجِبْهُ أنامِلُه

ولو لم يكُن في كفّهِ غير روحِهِ لجادَ بها. فَلْيتَّقِ الله سائِلُه

اعترافاً بفضله، وإقراراً بمآثره ومناقبه في بذل الخير، ونصرة الحقّ، ونشر العلم، والحدْبِ على أهله، أهدي هذه الحكايات..

الصديق بشير نصر

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT
Est. 2012 CE

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـديـم

رحلة في عقل رجل وثقافة أُمّة

عندما عرفت الأستاذ الصدِّيق بشير نصر في لقائي الأول به، أخذنا الحديث إلى دروب الأدب الروسي، فإذا بالرجل يعرف أعلامه، وروائعه، ونقَّاده ومدارسه النقديَّة، حتى ظننت أنَّه متخصِّص في هذا الجانب من ثقافة العالم لا يتقن سواه، وانتقلت شجون الحديث في يوم آخر إلى الأدب والنقد في مواطن أُخرى من العالم فإذا به يسفر عن قارئ طُلَعة في مجال الفن المسرحي، ونظريات النقد الأدبي المعاصِر، وفلسفاته الاشتراكية والبرناسية والوجودية، فلم أشكَّ في أنَّه متخصِّص في الأدب الحديث بعامة.

ثم علمت أنَّه قدم رسالة علمية في الدراسات الإسلامية مهمَّة، فساجلته في بعض شؤون هذا التخصّص، حتى أيقنت أنه ذو شأن فيه كبير، متمكِّن من مصادره، خبير برجاله، ناقد لفنونه، فأيقنت أنني اكتشفت تخصّصه، ثم سألته عن سلَّمه التعليمي فعرفت أنه مهندس في ميدان النفط!.. فازداد عجبي وإعجابي ولم ينقضيا، فلقد علمت أن له في ذلك إبداعاته التي اشتغل بفضلها مسؤولاً في ميدان التدريب، وله مسؤوليات عملية في شأن الهندسة النفطية، وليس لي أن أحكم عن باعه في هذا المجال.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ثم توالت لقاءاتي بالرجل، فعرفت رجلاً خبيراً في عالم الاستشراق، بصيراً في تاريخ القرآن والسُّنَّة، وله في ذلك كتب لم تُنشر حتى كتابة هذه الأوراق، ولكنه باشر التدريس لمادتها في بعض الجامعات العربية الليبيَّة، وله ترجمات وبحوث في الإدارة، ومحاولات شعرية مشرِّفة، وجولات في ميدان الفكر والفلسفة.. يحادثك في ميدانها عن آخر ما صدر لهذا المفكِّر أو ذاك، والردود التي كُتبت ضده، أو رأى أنها ينبغي أن تُكتب، فيخطئ أوهام الواهمين، ودعاوى العابثين، وله ترجمات لنصوص إنجليزية تدل على تبصّر بهذه اللغة وتذوُّق لآدابها، ولكل ذلك لم تفاجئني هذه البسطة الموسوعية في حكايات النيسابوري.

وعندما بدأ يكتب هذه الحكايات، ظنّ بعضهم أنه يتتبع آثار شخصيَّة حقيقيَّة، لها ماضٍ معروف في التراث العربي، وأن ليس للأستاذ الصديق شيء غير جمع تلك الآثار وتنسيقها، وظنّ غيره أن الرجل يكتب قصصاً خيالية، قد تدوم بضعة أيام وتنتهي، وأشفقنا عليه من إطالتها مخافة الإملال والرتابة؛ لكن الحكايات تتابعت ولم تنقض متعتها في الجديد المتوالي داخل سلسلة العنوان المتكرِّر، وها هو الجزء الأول من هذه الحكايات، يرى النور مرَّة أُخرى، ولكن في صورة كتاب مستقل، يتلوه الجزء الثاني في مثل هذا الثراء العلمي والأسلوبي الشائق، بإذن الله.

ولم يكن التشويق في هذه الحكايات عائداً إلى عنصر واحد هو الجدَّة والطرافة، إنما هي عناصر متعددة، تآزرت وتعاضدت لتجمع لهذه الحلقات جانبي المتعة والفائدة، ولعل أبرز العناصر هو الثقافة المتنوعة التي عرفنا بها هذا الكاتب الماتع، ثم الخيال الخصب، والأسلوب المتين، والتحلية بمختارات الشعر ودرر النثر، والإفادة بالعلم والفكر تذكيراً، وإتحافاً، وتوليفاً، مع دفق إيماني عميق، ورصيد من الحكمة والمعرفة جذّاب ومثير.

لكل ذلك كانت حكايات النيسابوري رحلة في عقل رجل واسع الاطلاع، قادر على تَمَثُّل المعرفة وصياغتها في أسلوب آسر وقوي، وأفكار واضحة

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وملتزمة، كما كانت هذه الحكايات رحلة في ثقافة أمّة تحترم عقل الإنسان وروحه، فتمدّه من رصيدها الثقافي والمعرفي بالفكر والعلم والأدب، وتعرض ذلك في برود من الأساليب الرفيعة والأبحاث الرائقة، كما تمدُّه من آداب البحث والمناظرة بما يجعل ذلك العرض مقبولاً من الناحية المنطقية أيضاً، ولذلك فإن حكايات النيسابوري لم تغفل قضايا الخلاف، وأصوله، وأسبابه، وآدابه.

ولم تقف هذه الحكايات عند الظاهر من العلوم والمعارف، بل تعدتها إلى الحديث عن العلم اللدني، أَو علم الباطن، وكان في ذلك مناسبة لتناول التفسير الإشاري، والكاتب لا يسوق ذلك سوق الجمَّاعة المكاثر، أَو ما يعرف بحاطب الليل، ولكنه يعرضه عرض الناقد المحقّق، فيُعرِّف، ويفرِّق، ويستشهد، ويمثل، ويحلِّل، ويردّ، ويؤيِّد، ويحدِّد المصادر؛ فيعرض أفكارها، ويناقشها مناقشة العارف بها وبثقافة كتابها، وقد يبين قيمة المصدر، وأهمية مؤلفه، ولا يبقي في هذا الصدد من مأخذ، سوى ما يأخذه علماء البحث العلمي عادة من إهمال الإحالة إلى المصادر والمراجع في حواشي البحث، ولكن ذلك مما ينادون به في البحوث العلمية الصرفة، أما هذه فخواطر وومضات أدبية لا تستدعي ذلك المطلب، ولا تخضع لأوامر البحث العلمي الصارمة.

وإن تعجب فعجب أن تساق كل تلك التفاصيل العلمية والفكرية في قالب قصصي سائغ، لا تبرد فيه حرارة العاطفة، ولا تنكمش براعة العرض، ولا تتعثر سلاسة التعبير، ولا تتناقض الأفكار، أَوْ تتبدل أنماط الشخصيات في الملامح الرئيسة التي أُعطيت لها، فتظل شخصية العارف النيسابوري شخصية العالم المؤمن الوقور، وهو يفسِّر كلام الله، أَو ينتقد بعض الكتب، أَو يجلّي بعض الحقائق، محذِّراً من الخرافات والأوهام، أَو باحثاً عن الحكمة معبراً عنها في شتى المواقف، ومختلف المعارف. كما تتجلَّى شخصية عبد الله المحجوب في الباحث عن الحقيقية، المتسائل عن مجاليها بشغف واستزادة، مع شخصيات جادَّة وأُخرى هازلة، طيبة أَو ماكرة، عالمة أَو جاهلة، تمثِّل أنواعاً من البشر، ممن تخيَّلهم الكاتب، لكنهم صور لنماذج بشرية من الحياة، وأنماط مألوفة في

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

واقعها المعيش، قد لا يرسم من خلالها شخصية معينة، ولكنك لا تعدم مثل هذه الشخصية في معظم العصور.

وبعد... فلا غرو أن تصدر هذه الحكايا المتنوعة، والمكتنزة بالعطاءات الفكرية والأدبية عن الأستاذ الصديق نصر، فمن عرفه حقَّ المعرفة عرف أنَّه جدير بإنجاز مثل هذه الأعمال الغنية في سداها ولحمتها.

هنيئاً لمكتبتنا العربية بعامة، والمكتبة الليبية بخاصة، بهذا العمل الطريف، وهنيئاً للأستاذ الصديق بخطوة أُخرى في طريقة الملآن بالإنجازات القيِّمة، والأعمال المفيدة.

د. عبد الحميد الهرَّامه

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

اجتماع العارف النيسابوري بعبد الله المحجوب في سمرقند

استبدّ بي الأرقُ ليلةً حتى خِلتُ أَنَّ الزمنَ تعطلت دورتهُ، وتناهبتني الوساوسُ تشرِّق بي حيناً وتغرِّب.. كيف لا وقد صادفت قلباً خالياً فتمكنت. وبينما كنت أتقلب ذات اليمين وذات الشمالِ تملكني شعورٌ غريب أن هناك من يساكنني الغرفةَ حتى لكأنني أسمع أنفاسَه الحرّى تدنو مني فتوشك أن تلفحَ وجهي، ثم لا تلبث تولّي مبتعدة فلا أعود أسمع حسِيسَها. ولم أبرح حتى ألقت عليّ الظلمة أثقالَها، ولفّني صمتٌ مطبق لا يُعرف له كنهٌ ولا يُسبر له غَورٌ، وكأنني في قراءة بئر سحيقة لا أسمع فيها إلاَّ ضربات قلبي المتلاحقة.. قلبي الذي يكاد لفرط خوفي ينخلع. ولم ألبث إلاَّ قليلاً حتى سمعت طرقاتٍ خفيفة على باب داري، أَو هكذا خُيِّل إليَّ للوهلة الأولى، فقلت في نفسي: أبلغ الهلعُ بي هذا الحد حتى صرت أتخيّل ما لا وجودَ له فأبصر ما لا يُبْصَر، وأسمَعُ ما لا يُسمَع؟ لكنَّ الطرقَ عاد من جديد. أخذتُ أحبو على ركبتيّ أبحث عن القنديل، ولشدة اضطرابي لم أهتد إليه مع علمي بموضعه. هدّأتُ من رُوعي وتذكرتُ أن في جيبي بعضَ أعوادِ الثقاب كنت دسستُها فيه أوّل الليل. أشعلت عوداً فانطفأ، فأشعلت آخرَ وكم سُررت حينما وقع ناظري على القنديل الذي لم يكن يبعد عني إلاَّ خطوة واحدة. أشعلتُ القنديلَ.. عاد الطرق من جديد. وقفت متماسكاً. اقتربت من الباب في خطىً وئيدةٍ متثاقلةٍ، ورفعتُ المرتاجَ فانفتح

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الباب. . قرّبتُ القنديلَ من وجه زائري وأنا أتمتم: «أعوذ بكلمات الله التامّة من غضبه وشرِّ عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون» «أعوذ بالله من شرِّ كل طارق إلاَّ طارقاً يطرق بخير».

بادرني الرجلُ السلام، فبعث في نفسي الطمأنينةَ. رددت عليه، ثم سألته: مَن الرجلُ؟ أجابني: عابر سبيل انقطعت به السبل. قلت: وما حاجتك؟ قال: مأوى لليلةٍ وبعضُ طعام.

دعوت الرجلَ إلى الدخول وأجلسته على أحسن ما عندي: قطعة من بساطٍ قديمةٍ كنت أحتفظ بها لمثل هذه المفاجآت. أحضرت له بضع تمرات وقدحاً من لبن. كانت خمس تمرات، أكل منها ثلاثاً وشرب نصفَ القدح ثم طفق يحمد الله ويثني عليه. قلت له: يا هذا أعن شِبَع أم عن حياء؟ فقال: لا هذا ولا ذاك. ولكنني أبقيت شيئاً لطارق آخر قد يفجؤك قدومُه فتكره استقباله، إذ ليس أثقل على المرء من أن ينزل به ضيف فيلتمس له طعاماً فلا يجد شيئاً. . حتى الأسودين.

قلت: ومن أنبأك أن هذا الذي بين يديك هو كل ما عندي؟

قال: إن كان الأمر هكذا فإنَّك لبخيل وما أحسبك كذلك.

قلت: وما الذي يدعوك إلى قول هذا وأنت لا تعرفني.

قال: لخُلقٍ تأدّبت به، ولأمارَةٍ رأيتها. فأما الخلق فهو حُسن الظن بالعباد وأما الأَمَارة فتلك القراطيس والدواة. وما أحسبك إلاَّ طالب علم أجهده الطلب، قلت: صدقت أيها الشيخ في حدسك ولكن ما صلة العلم بطعام أقدِّمه لضيف أَو عابر سبيل؟ قال: اعلم يا بني أنك اخترتَ العلمَ فبانت منك الدنيا، فالعلم والدنيا ضرّتان لا تجتمعان. فكلما أوغلتَ في العلم نفرت منك الدنيا، وإذا أردت أن تعرفَ قدرَك في العلم فانظر إلى حظِّك من الدنيا، واعلم أنَّه كلما زاد حظ الدنيا في قلبِ العالِم سقطت مهابتُهُ وخفَّ وزنُه في أعين الناس.

أعجبني منطقُ الرجل وحسنُ بيانه، فقلت له: بربك أيها الشيخ من أنت؟

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

قال: عبدٌ من عبادِ الله الفقراء يسيح في ملكوته. قلت: ما اسمك؟ قال: اسمي العارف شرف الدين من نيسابور وينادونني العارفَ النيسابوري. ومن أنت يا ولدي؟ قلت: أنا عبد الله المحجوب وأبي اسمه نور الدين ونحن من طوس. رحلنا مع جدي إلى سمرقند، وهناك ولدت وحفظت القرآن وتلقيت بعض الفقه على يد مشايخنا. قال: ومن المحجوب؟ قلت: اسم أطلقه الناسُ على جَدِّي ولم يكن يُعرف به بين الناس حتى وقعت خصومة بينه وبين والي طوس، وكانت بينهما مودّة، بسبب فتنةٍ أثارها بعض الحاسدين ممن كرهوا أن تدوم تلك المودة. وكان الوالي أُذُناً فصدّق ما قيل في صاحبه فنبذه، فاحتجب جَدِّي عن أعين الناس، وكانت فيه غفلة الصالحين فأقسم على نفسه ألا يدخلَ على الوالي أبداً ولا يحدثه في الأمر.

وطال احتجاجه فسمي بين الناس (المحجوب) ولما مات الوالي أقسم ألا يبقى في طوس بعده فخرج بأهله إلى سمرقند، وفيها مات. قال: الحمد لله من قبلُ ومن بعدُ. اعلم يا ولدي أن (المحجوبَ) من حُجب عن معرفةِ الله، ومن أحبه الله كشفَ له عن أسراره فاغتنى بها عن التفكير فيما في أيدي الناس.

واعلم أنّها حُجُب، ما هتك المرءُ حجاباً حتى وقع في آخر. فالغفلةُ حجابٌ، والشكُّ حجابٌ، والقنوطُ حجابٌ، والدنيا حجابٌ. وحجابُ الحُجب الكفرُ بواجب الوجود.

قلت: أيها الشيخ قلتَ إنك من نيسابور فَعلام خرجتَ منها إلى هنا؟ ابتسم وقال:

غزلت لهم غزلاً رقيقاً فلم أجد ... لغزلي نسّاجاً فكسّرت مغزلي

طرح الشيخ عَباءته، افترش طرفاً منها وتغطى بالآخر وراح يغطّ في نومٍ عميق.

أطفأتُ القنديلَ ورحت أعيد ما سمعتُ، وأفكر في هذا اللقاء الغريب.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT
Est. 2012 CE

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

العَارِفُ النَّيْسَابُورِيّ يَعِظُ أَحَدَ المَغْرُورِينَ

في الهزيع الأخير من الليل نهض العارف النيسابوري، واقترب منّي وكان يظن أنني نائم، وأخذ يناديني بصوتٍ خافت: «عبد الله استيقظ، عبد الله أفق» قلت: ما أنا بنائم أيها الشيخ. قال: إنما النائم من نام قلبه عن ذكر الله، وما نامَ من استيقظت بصيرتُه وغفا بَصرُه، وما أفاق من غفت بصيرتُه واستيقظ بصرُه. إليّ ببعض الماء لأتوضأ لعلّني أدرك ركعةً أو اثنتين قبل أن يؤذنَ للفجر.

توضأ الرجلُ ثم صلّى ركعتين سَجَدَ في الأولى سجدةً طويلةً حتى خلت أنّه قُبِضَ، وسجد في الثانية سجدةً خفيفةً حتى ظننت أنَّه لم يسجد، ثم سلّم ورفع يديه إلى السماء متمتِماً بكلامٍ لم أتبيّنه.

قلت له: أيها الشيخ صليت ركعتين أطلت في الأولى وقصّرت في الثانية فما معنى ذلك؟ قال: تجلت لي عظمةُ الباري في الأولى وأنا ساجدٌ بين يديه فاستحقرت ما دونه ورحت أفكّر في ملكوته وأنا أقرأ في نفسي قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: الآية 67] وفي السجدة الثانية تذكرتُ ذنوبي فاستعظمتها وخفتُ أن ألقى ربي بها، فهربت إلى التسليم. والآن، يا ولدي لعلك تدرك ركعة قبل أن يُرفع الأذان. لم يكد ينتهي من قوله حتى ارتفع نداءُ الحق «الله أكبر» قال: لا إله إلاَّ الله. لم يُكتب لك ذلك، وهذه هي الغفلة.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

اقترب الشيخُ من الباب وقال: صوت الأذان يدل على أن المسجدَ ليس ببعيد، سأخرج إليه وأدركْني هناك إن شئتَ. قلت: كيف ستهتدي إليه والظلمةُ شديدةٌ وأنت لا تعرف موضِعَه. أخشى أن يصيبك مكروه قبل أن تصلَ إليه. قال: لا عليك إن ربي سيهديني إليه. توضأتُ بسرعةٍ وخرجت في إثره فأدركتُه عند باب المسجد. دخل الشيخُ وهو يدعو: «اللهم افتح لي أبوابَ رحمتِك» صلّى ركعتين ثم ركعتين أخريين. سرَّحتُ نظري في أركان المسجد فلم أر إلاَّ الشيخَ والمؤذنَ وهو رجلٌ ضريرٌ، وثالثاً جلس عند ساريةِ المسجدِ. لبثنا بعضَ الوقت.. طال انتظارنا لعل قادماً يدخل علينا، لكن أحداً لم يأت، نهض المؤذنُ الضريرُ وأقام الصلاةَ.. لم يتقدَّم أحدٌ للإمامة فأخذت بذراع الشيخ وقدَّمته... نظر إليّ نظرةً عميقةً تحمل في أغوارِها حزناً أعمقَ وحرقةً شديدةً تكاد تُفصح عن مكنونِها. قرأ في الأولى بعد الفاتحة قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: الآية 114] وقرأ في الثانية قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: الآيتان 43 ـ 44] بعد أن سلّم الشيخ دنا مني وهَمَس في أذني: أين المصلون؟ قلت: سل عنهم ذلك الرجلَ القابعَ عند السارية. قال: ومن يكون؟ قلت: عَيْنٌ من عيونِ الوالي تَرقُب الداخلَ والخارجَ، وترصد ما يجري ويدور. ارتاع الناسُ منه فهجروا المساجدَ مخافةَ الفتنة. قال: إلى الله المشتكى ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: الآية 18].

نهض الشيخُ واقترب من ذلك الرجل وجلس قبالته، وقال له: يا هذا ما ظنّك برجلٍ باع دينَه بدنيا غيره؟ أجاب الرجلُ: لم أفهم. قال الشيخ: لو كنت تفهم لكنت على غير هذه الحال. ألم تقرأ قولَه تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: الآيات 128 ـ 130]، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران: الآية 50].

انتفض الرجل وكأن مسّاً أصابه، وطفق الشيخُ يقول: حَسْبُك. وقرأ قوله

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: الآية 54] امتُقِع وجهُ الرجل لكنه لم ينبسْ ببنت شفة. فقال الشيخ: ألم تسمع قولَه تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: الآية 113] قال الرجل في صوت متهدِّج: وهل أنا إلاَّ عبد مأمور؟ قال الشيخ: ويحك وقُبِّح من عذر جئتَ به، ألم تقرأ قولَه تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الذاريات: الآية 40] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ﴾ [القصص: الآية 8] فما ذنبُ جنودِهما إذن وهم عبيدٌ مأمورون؟ ذنبهم أنَّهم أعانوا على ظلمِ العبادِ والإفسادِ في الأرضِ.

أجهش الرجلُ بالبكاء. وقف الشيخُ وأخذ طريقَه إلى الباب، فلحق به الرجلُ وسأله: قل لي بربك هل لي من أوبةٍ؟ قال الشيخُ: نعم. وقرأ قولَه تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: الآية 53]، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: الآية 39]. قال الرجلُ: وكيف يكون ذلك؟ أجاب الشيخ: على ما سَلَف من الذنبِ والإقلاعِ عنه في الحالِ والعزمِ على عدم الرجوع إليه وردِّ الحقوق إلى أهلها. قال الرجل: لكنني يا سيدي أخشى الوالي وأعوانَه فهم لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمةً. قال الشيخ: تذكّر قولَه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: الآية 44] قال الرجلُ: إن لي صبيةً صغاراً أخشى عليهم. قال الشيخ: الله أحق أن تخشاه، وقرأ قولَه تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: الآية 100].

غادرنا المسجدَ والرجل يرمقنا ببصره من بعيد حتى غبنا عن ناظريه والشيخُ يقرأ قولَه تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: الآية 16]، ورفع يديه إلى السماء داعياً:

اللهمّ اهدِ قلبَه.. اللهمّ اشرح صدرَه.. اللهمّ لا تفتنه بعد هذا اليوم.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT
Est. 2012 CE

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

فِي خَرائِبِ سَمَرقند

انطلقت والشيخ العارف نَغُذُّ المسير على غير هدىً في صمتٍ شديد لا يكلم أحدنا الآخر، ولا يكدّر صفو سكوننا إلاّ قرقعة الحصى تحت أقدامنا. وقطعنا نحو فرسخ دون أن نشعر حتى بلغنا خرائب في أطراف المدينة، وهنا توقف كلانا فجأة على نعيب غراب، نظر الشيخ إليّ في ارتياب قال: ما هذا المكان الذي جئت بي إليه؟ قلت: لا أدري والله! كنت أتبعك وأنت تسير وظننت أن لك وجهة أنت موليها. قال سبحان الله. لعل أقدامنا قادتنا إلى هنا ونحن لا ندري.. مشى الشيخ صوب الخرائب، وقال: يا عبد الله! العبرة ها هنا.. العبرة ها هنا. كم عجَّ هذا المكان بالحركة.. وكم خفقت بين جنباته أرواح. وها قد أضحى أثراً بعد عين، فسبحان الملك القدوس، وقرأ قولَه تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: الآية 26] ثم نظر إليّ وقال: يا عبد الله ألا يذكرك هذا بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: الآية 24] ثم أنشد:

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت ... ولم تخف سوء ما يأتي به القَدَرُ

وسالمتك الليالي فاغتررت بها ... وعند صفو الليالي يحدث الكَدَرُ

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

قلت: هات زدني أيها الشيخ. قال: عجباً لأمرك يا ولدي! إذا لم ينفذ إلى عقلك ما تراه وهو محسوس فكيف يبلغ قلبك ما لم تره من قولي وهو مدسوس. قلت: عذراً أيها الشيخ فالنفس مشتاقة، والروح توّاقة، والقلب مكلوم، والعقل محروم، وأنشدت لبعض الفقراء:

نفسي إذا ما ضَرَّني داعي تكثر أسقامي وأوجاعي
كيف احتيالي من عَدوّي إذا كان عدوّي بين أضلاعي

ابتسم الشيخ وقال: أيها الغافل! المعرفة عندك ضرب من الشهوة والفضول، وهي عندي كشف للمحجوب والانقياد للحق والتسليم به، والصبر عليه. وقرأ قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ * إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: الآيات 1 ـ 3] ثم قال: وهل يقوى مثلك على ذلك؟ وأنشد:

وأنت إذا أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوماً أتعبتك المناظرُ
رأيت الذي لا كلّه أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابرُ

قلت: أفعل إن شاء الله. قال مبتسماً: دع عنك هذا المراء فلا أنا الخضر ولا أنت الكليم.

انطلق الشيخ وسرت خلفه، ثم لم يلبث أن توقف وقال لي: أيها القابس العجلان. هل دخلت الدار؟ قلت: أيّ دار؟

قال منشداً:

يا ذا الذي زار وما زارا كأنه مُقْتَبِسٌ نارا
مر بباب الدار مستعجلاً ما ضرّه لو دخل الدارا

قلت: لم أفهم شيئاً. أفصح يرحمك الله. قال: تلك دار الماكثين سر الأسرار هناك فاطلبه. قلت: ومن الماكثون؟ قال: هم الظاعنون. فقلت: عجباً. الماكث مقيم، والظاعن مرتحل. فكيف يستقيم هذا؟ قال: لو عرفت

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

هذا يا ولدي لعرفت الدار ولعرفت أهلها. غداً أوقفك عند بابها إذا كان في العمر بقية.

سرنا نحو ساعة. ثم توقفنا عند سنديانة عجوز شاخت فتيبست أغصانها، وتساقطت أوراقها فلا ظل لها ولا فيء، وقد أعمل أحد الحطّابين فيها فأسه. فقال لي الشيخ: انظر يا فتى واعتبر ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: الآية 88]. كان ثمة جدول ماء يمر بقربها قد نبتت على أطرافه شجيرات صغيرات. التفت الشيخ نحوي وقال: آن لهذه السنديانة العجوز أن تنتهي، اعلم يا عبد الله لو أن أنهار الدنيا جميعها حولت إلى هذه الشجرة ما بعثت فيها الحياة من جديد. أخذ الفأس التي كانت ملقاة عند جذعها وشرع يحول مجرى الجدول نحو تلك الشجيرات، وبينما كان الشيخ يحفر في الأرض سقطت منه رقعة صغيرة لم يأبه لها. قلت: أيها الشيخ انظر ماذا سقط من جيبك. لم يكترث لما قلت وكأنه لم يصغ إليّ، رمى الفأس ثم أشار إليّ بيده قائلاً: حسبك هذا اليوم وسألقاك غداً. انصرف الرجل دون أن ينتظر مني كلمة. اعتراني حزن لذهابه وشق عليَّ فراقه وكأنني أعرفه منذ أمد بعيد. قلت في نفسي: لقد وعد أن يلقاني غداً. ولكن أين؟ ومتى؟ لم يخبرني... هل نسي أم تعمد ذلك؟ وبينما أنا في هذه الحيرة وقع نظري على تلك الرقعة الصغيرة التي سقطت من الشيخ. أسرعت إليها وأخذتها، ووجدت مكتوباً على وجهها: هذه أبيات كتبتها إلى والي نيسابور أعطه فردها إلي مع صرة مملوءة بالدنانير. فسخرت من نفسي، وقلت لها معاتباً: هذا جزاء من يقلّد الدرّ جيد الخنازير.

ووجدت مكتوباً على ظهرها هذه الأبيات:

ترفق قليلاً أيها الهالك الفاني ... وروِّح بذكر الله عن قلبك العاني

حنانيك هل يجري القضا غير عنوة ... يسوق الفتى قهراً ويبقي على الثاني

غداً كلما هاج النوى سيل عبرة ... تخط من الآثار في جسمك الواني

تذكر جلال النفس حيناً إذا سمت ... وحيناً إذا طافت بها سطوة الجاني

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

بنيت من اللذات تبغي معالياً ... فما أحقر المبنى وما أتعس الباني
فلا تحسبنَّ الناس عنك بمعزل ... يداريك قاصيهم ويغري بك الداني
يغيب شريف القوم كرهاً وحسرة ... ويعلو خسيس الناس بالأحمر القاني
فلا تأمن الدنيا وإن عمَّ فيضُها ... فكم أقبرت أصحاب عزٍّ وتيجان

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

في سوق الورّاقين

قفلتُ نحو المدينةِ ولا شيءَ يجول في خاطري غير ما سمعته من الشيخ العارفِ في هذا الصباح. اعترض طريقي رجل تفصح عن حالهِ أسمالُه البالية، وعيناه الغائرتان. ووجهُه الشاحب، وجسمُه الهزيل. قلت في نفسي: متسول أنهكه الضنَى. دسست يدي في جيبي وأخرجتُ منه درهماً وألقيت به إليه.

ضحك الرجلُ مني وألقى بالدرهم في جيبي، ثم انصرف. لحقتُ به، وقلتُ له: خذه. والله لا أملك غيرَه. قال: أنت إذن أحوجُ إليه مني. امضِ لشأنِك غفر الله لي ولك. قلت له: سيعوضني الله خيراً منه، قال: هاته. أخذه مني، ثم رمى به بعيداً. قلت: ويحك ماذا صنعتَ؟ قال: إذا لم تكن لي حاجة إليه، وأنا في غنى عنه، فلعل الله يرسل إليه من هو أحوجُ إليه مني ومنك. مضى الرجلُ إلى شأنه، وتركني تمضّني الحيرة مُخاطباً نفسي: يا له من معتوه! ثم لم أبرح حتى سمعت صوته يدوّي من بعيد: يا عبدَ الله. حسناتُ الأبرار سيِّئاتُ المقربين. قلت: والله لألحقنّ به. عدوتُ خلفه أطلبه فلم أعثر عليه وكأن الأرضَ ابتلعته. وقفت أقلّب النظرَ هنا وهناك حتى وقع بصري على راعٍ يهشّ على غنمه. اقتربتُ منه، وسألته: ألم يمر بك متسول قبل قليل؟ قال: نعم. تجده هناك متكئاً خلف تلك الصخرة، انطلقتُ نحوها يغمرني سرور عظيم، فوجدته كما قال الراعي، اقتربتُ منه، فنهض فَزِعاً وكأنني قضَضتُ مضجَعه،

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

قلت له: لا ترع. قال: ماذا تريد؟ قلت: أن تحسنَ الظنّ بي، فربما لم أكن يوماً غنياً ولكنني ما كنت قط بخيلاً.

ثم تذكّرتُ أبياتاً فأنشدتها:

أبيتُ خميصَ البطن عريان طاوياً ... وأوثر بالزاد الرفيقَ على نفسي

وأمنحه فرشي وأفترش الثّرى ... وأجعل سترَ الليل من دونه لبسي

قال: والله ما ظننت بك إلاّ خيراً، ولكنك أسأت الظنّ بي، ولم أكن يوماً متسوّلاً، ثم أنشد:

إذا امرؤ ضاق عني لم يضق خلقي ... من أن يراني غنياً عنه بالياس

لا أطلب المال كي أغنى بفضلته ... ما كان مطلبه فقراً إلى الناس

تحرّك خطوة أو خطوتين، ثم وقف. نظر إليّ نظرةَ إشفاق وكأنه يريد أن يقول شيئاً إلاّ أنه لم يقو عليه. قلت: هل أنت راحل؟ قال: نعم. قلت: إلى أين؟ قال منشداً:

لعمري ما أدري وقد أذن البِلى ... بعاجل ترحالي إلى أين ترحالي

وأين محل الروح بعد خروجه ... عن الهيكل المنحلّ والجسد البالي

كادت العينُ تطفر بالدمع، ولكنّ الدمعَ تحجّر في المآقي. قلت له: بربك عِظني. قال: أيها المرتاعُ المحزون. أقرأ في عينيك شكّاً في الحاضر وخوفاً من الآتي. لو أحسنت الظن بالله لاطمأنّ قلبك وسكنَتْ روحُك، ثم قرأ قولَه تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: الآية 28] ثم قال: احفظ عني هذه الأبيات:

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر ... أنا جائع أنا ضائع أنا عاري

هي ستةٌ وأنا الضمين لنصفها ... فكن الضمينَ لنصفها يا باري

مدحي لغيرك لهبُ نار خضتها ... فَأَجِرْ عبيدَك من لهيب النار

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وتدبر قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: الآية 6]. وقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: الآية 22].

مضى الرجلُ في خطى متثاقلة مُخَلِّفاً وراءه جملة من التساؤلات... تناهبتني الوساوسُ، من هذا الرجل؟ بالأمس التقيت الشيخ العارفَ على غير ميعاد، وها أنذا اليوم أجتمع بهذا الفقير الغريب وكأن الأقدارَ ساقته في طريقي لحكمةٍ يعلمها الله. انطلقتُ نحو المدينةِ.. حاولت أن أصرف تفكيري عن هذا الرجل ولكن دون جدوى.. لقد استبدّت بي الأفكار والظنون، وكنت كلّما تذكرت هذا الرجل اعترتني رعْدة، وصار حالي كقول الشاعر:

وإنـي لـتـعـرونـي لـذكـراك هِـزةٌ كما انتفضَ العصفورُ بلَّله القطرُ

سرت ساعة أو بعض ساعة حتى بلغت بوابة المدينة، فرأيت الناسَ يروحون ويجيئون كل يسعى إلى شأنه غير آبهٍ لغيره.. هذا يحمل على ظهره حطباً، وذاك يقود دابّة، وثالث ينادي على بضاعة له، ورابع يسأل عن خان ينزل فيه.

دخلت المدينة وسرت في أزقتها الضيقةِ التي كانت تعجّ بالمارة والحوانيت. اختلطت فيها أبخرةُ أعوادِ الندّ بروائح العنبر والكافور المتصاعِدة من حوانيت العطّارين. توجهت نحو سوقِ الوراقين لأجلس بعض الوقت، وكنت اعتدتُ فعل ذلك كل يوم. وقفت بباب دكّان لأحد الورَّاقين يُدعى أبا عليّ الخازن كنت عرفتُه منذ بضع سنوات.. سلّمت على الرجل وكان جالساً على مصطبة أمام الباب يقلّب بين يديه صحائف قديمةً. قلت له: ما جديدك اليوم أبا عليّ؟ قال: هذه نسخة عتيقة من كتاب (المضنون به على غير أهْله) قلت: أليس هو من وضع إمام المتقدمين أبي حامد؟ قال: نعم. وسأشرع في نسخه لأحد وجهاء سمرقند. قلت: وماذا يفعل به هذا الوجيهُ وقد ضنّ به صاحبُه على أمثاله؟ قال: يا عبد الله من يملك في هذه الأيام يشتري كلّ شيء. قلت: إلاّ العلم والمعرفةَ. قال: ذلك مبلغ ظنك يا مسكين. قلت: نعم قد يشتري إجازة ولكنه لن يشتري علماً أبداً.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

لم أهنأ بمقامي مع أبي عليّ الخازن، وقد اعتاد أن يضع بين يديّ ما يأتيه من مخطوطات جديدة من خراسان وبغدادَ ومكة، حتى أفسد عليّ جلستي صوتٌ تعالى من بعيد:

ألا مـوت يـبـاع فـأشـتـريـه فـهـذا الـعـيـشُ مـا لا خـيـرَ فـيـه
ألا رحـم الـمـهـيـمـن نـفـسَ حـرّ تـصـدّق بـالـوفـاةِ عـلـى أخـيـه

قلت لصاحبي: مسكين هذا الدرويش. يطلب شيئاً يعزّ بيعه وشراؤه.

اقترب الصوت أكثر فأكثر حتى ظهر علينا صاحبه في هيئة زريّة.. اتجه صوبي وكأنه أحسّ بمقالتي، ثم أنشد:

ولـي كـبـدٌ مـقـروحـةٌ مـن يـبـيـعـنـي بـهـا كـبـداً لـيـسـت بـذات قـروح
أبـاهـا عَـلَـيَّ الـنـاسُ لا يـشـرونـهـا ومـن يـشـتـري ذا عـلـةٍ بـصـحـيـحِ

قال صاحبي أبو عليّ وهو يربت على كتفي:

ذهـب الـذيـن يـعـاش فـي أكـنـافـهـم وبـقـي الـذيـن حـيـاتـهـم لا تـنـفـعُ

دَسَسْت يدي في جيبي أبحث عن درهم أعطيه لهذا السائل، ونسيت أنني فرّطتُ في آخر درهم كان معي. نظرت إلى أبي عليّ ولسان حالي يقول له: جُد ببعضِ ما عندك. غيرَ أن أبا عليّ نهض من مكانه وقال لي: يا الله لقد نسيتُ شيئاً في الدار وتذكرتُه لتوّي. ابقَ عبد الله هنا ريثما أذهب وأعود، ثم انصرف دون أن يسمعَ مني. لحق به السائل وهو يصرخ وراءه:

أيـهـا الـخـارجُ مـن بـيـتـه وهـاربـاً مـن شـدّة الـخـوفِ
ضـيـفـك قـد جـاء بـزاد لـه فارجع وكن ضيفاً على الضيف

إلاَّ أن أبا عليّ غاب في جموع الناس واختفى. ضحكتُ، وقلت في نفسي: هيهات، هيهات. كالقابض على الماء خانته فروجُ الأصابعِ.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

عَبْدُ الله المحجُوب وقَاضِي سَمَرْقَنْد

ذاب صاحبي أَبو عليّ في جموع الناس، ورجع المتسوِّلُ غضبانَ أسِفاً. نظر إليَّ وكأنَّه يعاتبني، ويقول لي: أمثل هذا تتخذه صاحباً؟ اقتربت من الرجل وقلت له: تلك الأبيات التي أنشدتَها أوهمتني أنك تعنيها. قال: لا تصدّق كلَّ ما تسمع أَو تبصرِ. قلت: من أين جئتَ بها؟ قال: البركةُ في صاحبك الورَّاق أَبي علي الخازن. كلّما وقف على بيت من الشعر مؤثّر حَفَّظَنِيه. قلت: لقد أفسدتما والله معانيها، وهكذا حال كل شيء أُنزِل غير منزله.

مضى الرجلُ لحاله دون أن يسلّمَ.. رجعتُ إلى الكتب والمخطوطات المكدّسة هنا وهناك داخل دكان أبي عليّ. اغتنمت فرصةَ غيابه واهتبلتها سانحة وأخذت أقلِّب هذه وأتصفَّح تلك.

لم ألبث طويلاً حتى سمعت منادياً ينادي من خارج الدكان عَلى أَبي عليّ. لم يكن ذلك الصوتُ غريباً عن أذني. خرجت فإذا هو شيخُنا شهابُ الدين قاضي سمرقند السابق، وهو من أفاضل البلد وأشرافها. كان وجهه يطفح بشراً وما رأيته قط عابساً أو متجهماً.

لقد أُجبِر على ولاية القضاء، ولم يمكث فيها أكثر من أسبوع. ولولا أن أهالي سمرقند تجمعوا أمام داره وأقسموا ألا يبرحوا مكانهم حتى يقبلَ لما قبِلها. وقبلها مكرهاً. وما زلت أذكره يومها عندما خرج إلى الناس وهو يقول:

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لقد ذُبِحتُ بغير سكين. لقد ذبِحت بغير سكين، فخرج عليه من بين جموع الحاضرين رَجُل ذَلِقُ اللسان فصيحُه، وقال مخاطباً الشيخَ شهابَ الدين: يا أبا الحسن. بلغنا أن والي سمرقند عرض عليك ولايةَ القضاء فأبيتَها ونحن نعلم أنَّك بها تُمتَحن، ولكنك إذا ابتليتَ بنا فلنُكرَم بك. قال أَبو الحسن: ولكنني لا أصلح لها، ولا أراها تصلح لي. فإذا كنت صادقاً فدعوني، وإن كنتُ كاذباً فالكاذب لا يولَّى القضاء. قال الرجل: إنما قلتَ ذلك تورعاً. ولسنا منصرفين عنك حتى تقبل. أَو تشيرَ علينا بمن يقوم بذلك. قال أَبو الحسن: ويحي. إذا كنت كرهتُ ذلك لنفسي فكيف أرتضيه لغيري. هذه والله تزكية. والتزكيةُ شهادة وإني لا آمن أن أُسألَ عنها يوم القيامة.

قال الرجلُ: إذن أنت والله صاحبُها، نشهد أنها جاءتك ولم تَسْعَ لها، وعسى الله أن يسدّدك ويعينك عليها.

قَبِلَ الشيخُ ولايةَ القضاء كارهاً مخافة أن يتولاها من لا يقوم بحقها، وما زالت كلماته التي افتتح بها أولَ مجلسٍ له للنظر في المظالم تَرِنُّ في أذني، ومن كلماته يومئذ قوله: «العدل تاج الملك، وميزان الحق نَصَبَه الله بين الخلائق. لا يقوم بشأنِه إلاَّ قاضٍ عادل، وراع نزيه».

ومن قوله أيضاً: «عزةُ الأمة وسلطانُها يثبت بعدل القضاء. وذِلّة الأمة وهوانُها يولد من سياط الولاة وهراوي العَسَس» ومن جميل قوله يومئذ: «العدلُ والإنصافُ من علامات المروءة، والجورُ والاعتسافُ من دلائل الخسّة».

لم يدخل على والي سمرقند إلاَّ مرةً واحدة وكان رجلاً فيه غلظة وجلافة وزَهوٌ أجوفُ وقد أحاط نفسَه ببطانةٍ سوء من أغمارِ الناس وسفلتهم، ولم يَسْمَع في مجلسه يومئذٍ إلاَّ قالةَ السوء، والسعيَ بالنميمة والوقوع في أعراض العباد، ومَدْحَ الوالي بما ليس فيه تزلفاً ونفاقاً. فلم يقو الشيخُ شهاب الدين على حَبْسِ لسانِه في فيه، فقال: شاهَت الوجوه. شاهَت الوجوه، وغادر المجلس، وكان ذلك آخرَ عهدِه بالقضاء الذي لم يعمّر أكثرَ من أسبوع. كل هذا تذكرته دَفْعَة

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

واحدة عندما وقع بصري على شيخي أبي الحسن. سلمت عليه، وقال لي: يا عبدَ الله. هذه نسخة فريدة من (تحفة الحكام) بخط مؤلفها قاضي الجماعة أبي بكر محمَّد بن عاصم جئتُ بها لأبي علي الورّاق لينسخَها لي. وها قد ساقك الله في طريقي لتقوم بذلك بدلاً عنه، فإن أراه كثيرَ التصحيف وأنا أكره الغلطَ. وأنت يا عبد الله أخبرُ بهذه الصنعة منه، وسأمنحك ديناراً نظير ذلك على أن تأتيني بالنسخةِ قبل انصرام النهار. قلت له: قد قَبِلتُ ولكن أبقها معك الآن ريثما أحضر إليك بعد ساعة وآخذها منك فإني أكره أن يراها أَبو علي عندي فيظن بي الظنون. قال: تحسن صنعاً بذلك. وضع الشيخُ في يدي ديناراً ثم انصرف. قلت في نفسي: يا الله هذا الصباح تصدّقت بآخر درهم في جيبي، وها قد استبدلني الله ديناراً بدرهم.

دخلت إلى الدكان، وعدت أعبث بما فيه من جديد، تقليباً تارةً وتارة ترتيباً حتى وقع نظري على مجموع شعريّ صغير كتب على غلافه (زاد المسافر) وكُتِب تحت عنوانه بخط صغير (مختارات من شعر الطرابلسي)، وكُتِب على ظهر الغلاف بخط الناسخ دون أن يذكرَ اسمه ودون تاريخ: «هذه المختارات نسخناها عن أصلٍ بخط صاحبِها يحتفظ به أَحدُ حجاج المغاربة التقيناه في المدينة المنورة في موسم الحج قبل بضع سنين. وكل الذي عرفناه عنه أنه لرجل من طرابلس الغربِ يكنى أبا أحمد؛ أخذت القرطاسَ والقلمَ وشرعت أنسخ ما فيه قبل أن يحطّ عليَّ أبو علي بكلكله، وكان منها:

إن يـومـاً أتـى فـانـقـضـى ... لـيـس إلاَّ زمـانـاً مـضـى

فـانـظـرِ الـمـرءِ مـاذا جَـنـى ... غـيـر فـعـلٍ طَـواه الـقَـضـا

حَـسْـبُـك الـيـومَ مـاذا تَـرى ... واعـقـل الأمـسَ حُـكـمـاً جَـرى

سـوفَ يـأتـيـكَ ذكـرُ الألَـى ... لَـفَّـهُـم طـيـفُ مـوتٍ سَـرى

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

قِـف بـدارٍ عَـفـاهـا الـزّمـن ... لـن تـرى غـيـرَ شَـبْـحِ الـكَـفَـنْ
بِـئـس عـمـرٌ قـضـاه الـفـتـى ... حـسـرةً بـيـن أيـدي الـمِـحَـنْ

سـاءَنـي كـيـف يَـعْـلـو الـغَـبـيّ ... كـيـف يـشـقـى الـعـزيـزُ الأبـيّ
بِـئـس هـذا الـزمـانُ الـعَـجَـبْ ... يـسـتـوي شـيـخُـنـا والـصَّـبـيْ

عُـمـرُنـا لـسـنـا نَـدري مَـداه ... يـفـضـح الـبـئـرَ رَجْـعُ صَـدَاه
سَـلْ عـنِ الـحـقّ أهـلَ الـنـهـى ... لـيـس يـنـجـيـك غَـيـرُ هـداه

قُـل لـمـن لامَـنـي إن عَـذَرْ ... قـلّ مـن عَـابـنـي فـاعـتـذَرْ
لـيـت شِـعـري عَـلام الـمـلام ... كـلّ شـيءٍ قَـضَـى فـانـدثَـرْ

صاحِبي ليس يَخشى العَطَب ... كـلّـمـا نـالَ مـنـه الـنَّـصَـبْ
قـام يَـعْـدو بـسـيـفٍ جـديـد ... فـارسٌ سـيـفُـه مـن خَـشَـبْ

يـا لـهـولِ الـزَّمـان الـعَـصـيـب ... أصـبـح الـعِـيُّ يـومـاً خـطـيـبْ
مـاذا يَـجْـنـي فـحـولُ الأدب ... إن غـدا الـقـردُ فـيـهـم أَديـبْ

قُـمْ بـنـا نَـعْـلـو هـامَ الـجـبـال ... مـا بَـقَـى غـيـرُ قـيـلٍ وقـالْ
نُـطْـلِـق الـفِـكـرَ سـيـفـاً فـمـا ... أبـقـى لـلـحـرِّ غـيـرَ الـنـزالْ

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كلُّ عمر قضاه الغَويّ بيتُ شعرٍ خلا من رَوِيّ
لهف نفسي إلامَ الشقا ما بَقَى فيك إلاَّ الذَّوِيّ

يُصْلحُ الناسَ حكمٌ صحيحْ يفسد النفسَ فعل قبيح
كيف نهنأ وأصل البلا سقم جسمٍ وعقلٌ كسيح

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT
Est. 2012 CE

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

في سوق سمرقند

انقضَتْ أيامٌ وانصرَمت ليالٍ، ولم يظهر لشيخِنا العارفِ النيسابوريّ أثرٌ، ولم أقف له على خَبَرٍ حتى مررتُ يوماً بالسوق الكبير في سمرقند وكان يعجّ بالباعةِ فإذا بي ألمحُ عن بعدٍ مولانا العارِفَ وهو يودّعُ رَهْطاً من الناس لا أحسبَهُم من أهلِ سمرقند وظلّ يلوّح إليهم بيديه حتى غابوا عن ناظِرَيه. اقتربتُ منه دون أن يحسَّ بي.

اتكأ الشيخُ على جدارٍ متداعٍ يوشكُ أن ينقضَّ، ثم أنشأ يقول:

مددتُ إلى التوديعِ كفّاً ضعيفةً وأخرى على الرمضاء فوق فؤادي
فلا كان هذا آخرَ العهدِ منكمو ولا كان ذا التوديعُ آخِرَ زادي

أخذ الشيخُ يحدّق في السماء.. اقتربت أكثرَ فأكثر حتى وقفت أمامه فَهالَني ما فيه من مهابةٍ وجلالٍ، غير أن صاحبي لم يشح ببصرِه عن السماء وكأنّه يناجي سكانَها.

لا ريبَ أن الشيخَ لم يشعر بي.

انحدَرتْ من عينيه دمعتانِ سخينتانِ، وطفق ينشد:

يا نسيماً هبّ من وادي قُبَا خَبّريني كيف حال الغُرَبا

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كم سألت الدهرَ أن يجمعَنا ... مثل ما كنّا عليه فأبى

فجأة انتبه الشيخُ وأحسّ بقربي منه، فاعتدل واقفاً.

سلّمت عليه.. شدّ على يديّ.

قلتُ له: أين أنتَ يا هذا؟ قال: ها أنذا.

قلتُ: ألم تقل إنك تأتيني غداً بعد آخر لقاءٍ جَمَعَنا؟ قال: نعم.

قلتُ: لكنك لم تفعل.

قال: قولي أراك غداً أريد به مطلقَ الزمانِ المستقبل، وغداً تأتي للبعيد المرتقَب. ألم تقرأ قولَه تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان: الآية 34] قلتُ: بلى. ولكن قل لي بربك ماذا كنتَ تفعلُ كلَّ هذا الوقت؟ قال: بَلَغَنِي أن نَفَراً قادمون من نيسابور، فهاجَ ذلك أحزاني، فَخَرجتُ أرقُبُ قدومَهم لعلّي أسمعُ منهم عن الأحبّةِ خَبَراً. فلم يَصِلُوا إلاّ قبل يومين فمكثتُ معهم هذين اليومين وها هم لتوّهم رحلوا. آه يا صديقي، أضَعْتُ رَحْلي، وغابَ عَنّي الرفيقُ. يا لَقلّةِ الزّادِ وَوَحشةِ الطريق.

قلتُ له: ترفّق بنفسِك فأنت بينَ أهلِك وذويك. قال: هذا والله عَزائي، ولكنّني أخافُ أن يطولَ مكثي هنا فيطيب ليَ المقامُ فلا أعود أذكُر أهلاً ولا صحباً، ثم أنشأ يقول:

فألقَتْ عَصَاها واستقرّ بها النّوى ... كَمَا قرّ عيناً بالإياب المسافِرُ

قلتُ له مواسياً: علام هذا الدمع إذاً؟

قال:

يقولونَ لي والدّمعُ قرّح عيني ... بنارِ أسىً من حَبّة القلبِ تقدَحُ

أدمعك جمراً قلت لا تتعجبوا ... فكلّ وعاءٍ بالذي فيه يَنْضَحُ

ثم قال: لا عليك يا ولدي. ضَعْفٌ انتابني لا يلبث أن يزولَ. ثم أنشد:

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ولي كَبِدٌ حرّى ونفسٌ كأنها بكفٍّ عدوّ ما يريد سَراحَها

كَأنّ على قلبي قطاةً تذكّرت على ظمأ وِرْداً فهزّت جناحَها

قلتُ: والله إن وراءك لحكاية. هلا حدَّثتني بسرِّك قال: أيها الغافلُ. لا سرَّ عندي أكتمه. ولو كان الأمرُ كما تظن لما بُحْتُ به. فمن يفرّط في سرِّه لغيره لا يلومنّ إلاَّ نفسَه.

ألم تسمَع قولَ الشاعر:

إذا المرءُ أفشى سرَّه بلسانِه ولامَ عليه غيرَه فهو أحْمَقُ

إذا ضاق صدرُ المرء عن سرِّ نفسه فَصَدْرُ الذي يُستودع السر أضيقُ

قلت: عذراً أيها الشيخُ. وهل أنا إلاَّ غريبٌ مثلك، وإن طالَ مقامي في سمرقند. ألم أخبِرْك في أولِ لقاءٍ لنا أننا من طوس وقد رَحَل بنا جَدّي من هناك إلى هنا؟ فلا تثريبَ عليّ إن أكثرتُ عليك بالسؤال. ثم تذكرتُ قولَ الشاعِر:

أجارتَنا إنا غريبانِ هَا هُنا وكلّ غريب للغريب نسيب

قال: صدقت. قلت: بالله عليك ما الذي أخرجك من نيسابور، وما إخالك إلاَّ واحداً من كُبَرائها، وإن لم يُفْصِح مظهرُك عن مَخْبَرِك؟ قال: أخشى أن يضيقَ صدرُك بما تسمَع.. فما أنا إلاَّ غِرّ جَهولٌ، وعَبْدٌ آبق غَرَّه من سَيِّدِه طولُ حِلمه، فظنّ أن لَنْ يقدرَ عليه.. فلما أفاقَ من غفلتِه، ومضى كلُّ ذي شأنٍ لشأنه لم يجد أمامَه إلاَّ معاصيه وآثامَه تنهش فيه من كلِّ جانبٍ كأنَّها أنيابُ الثعابين. انفضّ عنه الأصحابُ والأهلُ وتركوه وحيداً يضرِب في بيداء روحِه المقفِرَة فلا يزيده إلاَّ ضلالاً وتيهاً. اغرورقَتْ عيناي بالدمعِ، وقلتُ في نفسي: هذه والله نَفْسٌ تروح بين الخوفِ والرّجاءِ. نظر إليَّ الشيخ العارفُ، وقال: ويحك عبدَ الله ما يبكيك؟ قلت:

فلو قَبل مَبكاها بكيتُ صبابةً بسُعدى شفيتُ النفسَ قبل التندّمِ

ولكن بكَتْ قبلي فهيّج لِي البُكا بُكَاها، فقلتُ: الفَضْلُ للمتَقَدِّمِ

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

رفع الشيخُ العارفُ يديه إلى السماءِ، وأخذَ يدعو بصوتٍ سَمِعَه كلُّ من في السوقِ: يا مغيثَ المستغيثين، ويا مفرّجَ كَرْبِ المكروبينَ، إن تُعذِّبنَا فَبِعدْلِك وإن تغفر لنا فبرَحْمتك، ثم أنشأ يقول:

يا مَن يرى مَدَّ البعوضِ جناحَه ... في ظلمةِ الليلِ البهيمِ الأليلِ

ويَرى مَناطَ عروقِها في نَحْرِها ... والمخَّ في تلك العظامِ النحَّلِ

أمنُن عليَّ بتوبةٍ أمحُو بِها ... ما كانَ مِنّي في الزَّمانِ الأولِ

سقط الشيخُ مغشيّاً عليه، ولم نسمع غير نشيجِ الناس.

أظلّتنا غمامةٌ، لم تلبَث أن صارت سُحباً سُوداً كثيفة، ثم فَتَحَتْ علينا السماءُ أبوابَها وكأنَّها أفواهُ القِرَبِ. انطلقَ الناسُ يَعدون هنا وهناك.. ارتميتُ بقربِ الشيخ، وأنا أدعو: اللهمّ فوق شَعَفِ الجبالِ وعلى رؤوسِ الشّجر.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

العارِفُ النّيْسَابُوريُّ يَشْرَحُ كَلِمَةَ التَّوحِيدِ
(لا إله إلاَّ الله)

أفاق الشيخُ العارف من غَشيته.. كان وجههُ المغَضَّن معفَّراً بالتراب، وثوبُه الخَلَق ملطخاً بالطين. أخذتُ طرفاً من ثوبي أريد أن أمسحَ عن الشيخ ما علق به، فردَّ يدي عنه بعيداً، وقال: يا عبد الله دع كلَّ شيء في مكانه.. إنها والله لتذكرة، وقرأ قولَه تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: الآية 55] وطَفَقَ يقول: يا عبد الله. هذا موقف تتجرّد فيه الروحُ من علائقِ البدنِ، وتَخْلُص من أثقالِ الدنيا، وتنفصلُ عن الأغيار، وتؤوب إلى بارئها، وقرأ قولَه تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۖ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: 49].

تَوكّأ الشيخُ على ساعدي، ونهض متثاقلاً، ولا تزال المطر تنهمر. اغتسل كلانا بمائها وقلتُ في نفسي: رحمةُ السماءِ تطهّر أدرانَ الأرض. سرنا خطواتٍ في الوحل... نظرتُ إلى الشيخ فإذا إشراقة تنبعث من وجهِه، وخيِّل إليَّ أنَّ هالةً من النور غطّته. قلت في خاطري: هذا واللهِ صفاءُ السريرةِ ونقاءُ النفسِ وعلامةُ التسليم والانقيادِ المطلق لله. وتلك أعلى درجات العبودية. كيف لا، والإذعانُ طاعة، والطاعةُ المطلقة هي الطريقُ إلى الربانيّة، ألم يقل سبحانه وتعالى في حديثه القدسي: «عبدي أطعني أجعلك ربانياً تقول للشيء كن فيكون». قلتُ مخاطباً الشيخَ: قل لي بالله عليك متى يكون العبدُ ربانياً؟ قال: هذا سؤالٌ يطول جوابُه. ولكن امضِ إلى مكانٍ نجلس فيه. فنتحدَّث. قلت: لا مكانَ

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أفضل من داري. قال: إذن هلمّ بنا. انطلقتُ آخذاً بيد الشيخ، وَكنّا كلما مَرَرنا في طريقنا بَنَفَرٍ من الناس رفعوا أيديهم مسلِّمين، فأخذني شيءٌ من العُجْبِ والخُيَلاء حتى ظننتُ أنني أُماشِي عظيماً من العظماء. يا سبحانَ الله لقد رُزِق الشيخُ محبةَ الناسِ ولمّا يعرفوه بعد، والمحبة المجرّدة عن الأهواءِ سرٌّ يقذفه الله في قلوبِ العباد. . أليس هذا معنى قول المصطفى ﷺ : «**الأرواحُ جنودٌ مُجنَّدة. ما تعارف منها ائتلف، وما تنافر منها اختلف**».

بلغنا الدارَ، ووقفنا ببابِها وسمعتُ الشيخَ يتمتم: «اللهم إني أسألك خيرَ المَوْلِج، وخيرَ المخرج، بسم الله وَلَجْنَا، بسم الله خرَجنا، وعلى ربنا توكلنا» دلفنا إلى الداخل. سلّم الشيخ: السَّلام عليكم ورحمة الله أهلَ الدار. قلت: ومن أهلُ الدارِ إلاَّ أنا وأنت؟ قال: وآخرون لا تعلمهم، الله يعلمهم.

طرحت له قطعةَ البساطِ القديمةِ التي كنت فرشتُها له في تلك الليلة التي اجتمعتُ به فيها أولَ مرةٍ، وقرّبت له بعضَ الماء. قلت له: هات حدِّثني. قال: سألتَ متى يكون العبدُ ربانياً. اعلم أنَّه لا يكون كذلك حتى يعرفَ معنى «لا إله إلاَّ الله» حقَّ المعرفةِ. قلت: وهل لها معنى غير الذي نعرف؟ قال: وما الذي تعرف؟ قلت: «لا إله إلاَّ الله» نفيٌ وإثباتٌ. نفيٌ للشركِ، وإثباتٌ لوحدانيةِ اللهِ. قال: هذا بعضُ معناها وبعضُها الآخر يكمنُ سرُّه في «لا» وفي «إلاَّ». قلت: «لا» نافية للجنسِ و«إلاَّ» للاستثناء. قال: هل هذا كلُّ ما تعرِفه عنهما؟ قلت: ذلك ما قرأناه في كتبِ النّحوِ. قال: اعلم إذاً أن «لا» تنفي الجنسَ فتعمل عَمَلَ «إن»، وتنفي الوَحْدَة وتعمل عملَ «ليس» فقولك: لا رجلَ في البيت نفي لجنس الرجال. وقولك: لا رجلٌ في البيت برفعِ اسمِها نفي أن يكونَ أحدٌ في البيت وقد يكون بداخله اثنانِ أو أكثر.

و«لا» كلمةِ التوحيدِ من قبيل الأولى لا ريبَ. وما بعدها اسمُها منصوبٌ وهل تعرف يا عبدَ الله خبرَها؟ قلت: نعم. خبرُها محذوف وتقديرُه «موجود»، والمعنى: لا إلهَ موجود إلاَّ الله. قال: ولكنّ الأصنامَ والأوثانَ موجودةٌ وهي آلهة وإن كانت باطلةً. قلت: فما تقديرُه إذاً؟ قال: تقديرُه «بحقّ»، وإن شئتَ

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

قلتَ: «موجودٌ بحق» أي أنه لا إلهَ موجودٌ بحقٍّ غير الله. قلت: أوليسَ نفيُ الجنسِ نفياً للماهية؟ قال: بلى. قلتُ: ونفْيُ الماهيةِ من غيرِ قيدٍ أعمُّ من نفيها بقيدٍ؟ قال: أين وقفتَ على ذلك؟ قلتُ: كلامٌ سمعته من بعضِ أشياخي. قال: هو كلام للرازي. قلت: أبو بكر محمَّد بن زكريا جالينوس العرب؟ قال: لا. بل فخر الدين صاحب «مفاتيح الغيب» وتفسيرُه هذا من أعظمِ التفاسير لمن يطلبُ التفسيرَ بالمعقول وأحسبُه من أجودِ كتبِ التفسير في هذا الزمانِ حيث اشتدّت الفتنُ، وأخذت الضلالاتُ بمجامعِ القلوب، وقُدِّم المعقولُ على المنقولِ. وإني وإن كنتُ يلذّ لي قولُه هنا إلاَّ أني أميل إلى أن التقديرَ أولَى جرياً على القاعدةِ العربيةِ في تقديرِ الخبرِ حتى تكونَ كلمةُ التوحيدِ جامعةً لثبوتِ ما يستحيل نَفْيُه، ونفيِ ما يستحيل ثبوتُه. وللإمام الزركشي رسالة لطيفةٌ في هذا المعنى فاطلبها.

قلتُ: هذا عن «لا»، فماذا عن «إلاَّ» قال: الأصْلُ في «إلاَّ» أن تكونَ للاستثناء، وفي «غير» أن تكون صفةً. وقد تُحمل إحداهما على الأخرى. فكما يُسْتثنى بـ «غير» يُوصَفُ بـ «إلاَّ». وقد اختلفَ أهلُ اللغةِ في هذا الموضع فمنهم من ذَهَب إلى أن «إلاَّ» في كلمةِ التوحيدِ بمعنى «غير» فجعلها وما بعدها صفةً مستدلّين بقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: الآية 22] وحُمِلت إلاَّ في هذه الآية على مَعنى «غير» وجُعِلت هي وما بعدها صفةً لآلهة لتعذّر جعلها للاستثناء، لأن المعنى سيكون حينئذٍ «لو كان فيهما آلهة ليس منهم الله لفسدتا» وهذا المعنى يقتضي فهماً آخر فاسداً وهو «لو كان فيهما آلهة فيهم الله لم تفسدا» وهو باطل لاستلزامِه تعددَ الآلهةِ وهذا ينافي التوحيد.

ومنهم من ذهَبَ إلى أن «إلاَّ» في كلمةِ التوحيدِ للاستثناء وأن ما بعدها مرفوعٌ على البدليةِ من «إله»« باعتبار محلِّه. استطرد الشيخُ قائلاً: وإذا أدرك العبدُ هذه المعاني في كلمةِ التوحيدِ فقد وضعَ رِجْلَهُ على أوَّلِ الطريقِ، ولن يبلغَ نهايةَ الطريقِ حتى يأتي بشروطِها. قلت: وما شروطُها؟ قال: شروطُها سبعة، فاحْفظْها ولا تنسها: العلمُ المنافي للجهلِ، واليقينُ المنافي للشكِّ، والإخلاصُ

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

المنافي للشركِ، والصدقُ المنافي للكذبِ، والمحبةُ المنافيةُ للكرهِ، والانقيادُ المنافي للامتناع، والقبولُ المنافي للردِّ. الربانيّة يا عبدَ الله هي التخلّصُ من أربابِ الأرض. قلتُ: وهل للأرضِ أربابٌ؟ قال: نعم. هم كلّ طواغيتِ الدنيا.. إنَّهم آلهةُ هذا الزمان الذين يتعبّدهم الناسُ ويطلبون رضاهم بغضب الله. قلتُ: وهل تلك عبادتُهم. قال: نعم. ألم تقرأ قولَه تعالى: ﴿اتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: الآية 31] لقد سمع عديّ بن حاتم النبي ﷺ يقرأ تلك الآية فقال له: إنا لسنا نعبدُهم. قال ﷺ: « **أليسَ يُحرّمون ما أحلَّ الله فتحرّمونه، ويُحلّون ما حرَّم الله فتحلّونه**». قال عديّ: بلى. قال ﷺ «**فتلك عبادتُهم**». سكت الشيخُ قليلاً ثم قال: آه عبدَ الله ما أشبهَ الليلةَ بالبارحة.

دنت الشمسُ من المغيب، وبَدَت حُمرَةُ الشّفقِ تلوحُ في الأفقِ، ولم يلبث أن ارتفعَ نداءُ الحقِّ «الله أكبر» اقترب الشيخُ من قَدَح الماء وشربَ منه وهو يدعو: «اللهمّ لك صُمنا، وعلى رزقِك أفطَرنا، فتقبّل منا إنَّك أنتَ السميعُ العليمُ. ذهب الظمَأُ، وابتلّت العروقُ، وثبت الأجرُ إن شاءَ الله» حينئذ أدركتُ أن الشيخَ كان صائماً. فقلت له: بربِّك ادعُ لي. فقد صَحَّ عن المصطفى ﷺ قولُه: «**ثلاثة لا ترد دعوتُهم: الصائمُ حتى يفطر، والإمامُ العادِلُ، ودعوةُ المظلوم**». قال الشيخُ: اللهمّ أنِر قلبَه وزكِّ فؤادَه، وخلِّص نفسَه من براثنِ الشِّركِ والعبوديةِ لغير الله.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

العَارِفُ النّيْسَابُورِيُّ يَكشِفُ عَنْ عِلَّةِ الإِفْسَادِ فِي الأَرضِ

لما أدركتُ أنّ الشيخَ العارفَ كان صائماً، وقد نالَ منه الإعياءُ، وأنهكه ما أصابَه من شوقٍ إلى أهلِه هذا اليوم، وهدَّه ما ذكّره بالأَحبَّةِ والأصحابِ في نيسابورَ، تركتُه قائماً يصلّي المغربَ، وخرجتُ ألتمسُ له طعاماً، فقد كان البيتُ خِلواً من أيِّ أثرٍ للطعام. وحمدتُ الله أن في جيبي بعضَ المال. اتّجهتُ مسرعاً نحو أقربِ دكانٍ من بيتي لعلّني أدركُه قبل أن يُوصَدَ بابُه، وكان يخامِرُني شعورٌ أنني سأعود صِفَر اليدين لأن دكاكينَ سمرَقند تقفلُ أبوابَها عند الغروبَ. وصدقَ حَدسي فقد كان بابُ الدكانِ موصداً. أحزنني ذلك فماذا أصنعُ والشيخ العارفُ ينزل عليَّ ضيفاً وهو صائم؟ ماذا أصنع لهذا الغريب الذي ساقَه القدَرُ في طريقي فأحببتُه في اللهِ حبّاً ما خالط قط قلبي مثلُه من قبل؟ ماذا أصنع وقد بدأ الليلُ يتسلل رويداً رويداً؟ لم يبق أمامي إلاّ أن أطرقَ بابَ أولِ بيتٍ يعترض طريقي لأطلبَ منه حاجَتي وما إخالُ أهلَه بمانعيه عنّي ـ فأهل سمرقند أصحابُ نجدةٍ ونخوة ـ كنت أوشِكُ أن أطرقَ أحَدَ الأبواب لولا يدٌ حَطّت على كتفي، وصوتٌ رخيمٌ أعرفه لا ريبَ ناداني.. التفتّ فإذا هو شيخي ومعلّمي شهاب الدين. كدتُ أطير فرحاً.. حدثتُ الشيخَ بما أنا فيه.. فضَحِك مشيراً إلى كيس يحملهُ في يدِه، وقال: سبحانَ الله. أردناه لأنفسِنا وقسمَه الله لغيرنا، وقرأ قولَه تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: الآية 22]. ثم قال: خُذه يا عبدَ الله،

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وانطلق.. وأدرك ضيفَك فما أراه إلاَّ رجلاً من أهلِ الله. ولو صَدَقتْ فِراستي لتجدنّه لمّا يفرغ من صلاتِه بَعْدُ.

تركتُ الشيخَ شهابَ الدين ورائي، وانطلقتُ أعدو صوبَ بيتي. اندفعتُ إلى الدّاخلِ. تسمّرتُ في مكاني، إذ وجدتُ الشيخَ العارفَ لا يزال ساجداً، وهو عينُ ما توقّعه الشيخُ شهابُ الدين. قلتُ: سبحانَ الله. هؤلاء الناس يستغرقونَ في العبادةِ حتى يمّحي الوجودُ من أذهانِهم. انتظرتُ هنيهة حتى سلّم الشيخُ، ثم بادرني بالقول: يا عبدَ الله، أليس الله بكافٍ عبدَه؟ قلت: بلى. قال: فلم تتعجّل إذاً عطاءَ الله؟ أيقنتُ أن الشيخَ أدركَ ما صنعتُ، وما اعتراني من جَزَعٍ، ثم استطرد يقول: يا عبدَ الله: ألم يقرع سمْعَك الحديثُ القدسيّ الذي يرويه المصطفى عن ربِّ العزّةِ: «**من لم يرضَ بقضائي، ولم يصبر على بلائي، فليلتمس ربّاً سوايَ**» قلت: كأني سمعتُه. قال: ها أنت ذا يقيناً تسمَعُه، فاحفَظْه ولا تَنْسه. قلتُ: أفعلُ إن شاءَ الله. فتحتُ الكيسَ وطرحتُ ما فيه من طعام أمام الشيخ. كان طعاماً متواضعاً لكنني سُرِرْتُ به لأمرين، الأول: لأنه حفظَ ماءَ وجهي أمام الشيخ العارفِ، والثاني: لأنه الزادُ الذي اعتاد أن يَقتاتَ به شيخُنا القاضي شهابُ الدين، فكان ـ أعزّه الله ـ يكتفي بالقليل ويذكّرني دائماً بالحديث النبويّ: «**حَسْبُ ابن آدم لقيماتٍ يُقِمن صُلْبَه، فثلثٌ لطعامِه، وثلث لشرابِه، وثلث لنفسِه**».

ولو وجدتُ في الكيس غير الذي وجدتُ لشككتُ في أمره. وإن كان الشرعُ لا يمنع التوسِعةَ على النفسِ والأهلِ..

تناول الشيخُ العارفُ بعضَ الطعام، ثم حمد الله وأثنى عليه، ونظر إليَّ وقال: أتدري عبدَ الله من أين يُؤتى ابنُ آدم؟ قلت: لا. قال: من شهوةِ الملكِ، وَوَهْمِ الخلودِ. وهذان أصلُ عللِ الإنسان.. فمن أجلهما يقتلُ ويعتدي ويظلم ويفتري.

وقد أدرك إبليسُ نقطةَ الضعفِ هذه في آدمَ وحواء، ومنها نفذ إليهما، ألم

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

يرد ذِكرُ ذلك في قوله تعالى من سورة الأعراف: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: الآية 20]، وفي موضع آخر من سورة طه ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: الآية 120].

انظر كم من متوهم مغرور طلبَ الخلودَ، وهو اليوم مقبورٌ تساكنه العقاربُ وهوامّ الأرض، وَنَسِيَ قولَه تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: الآية 2] انظر كم من غرٍّ جهولٍ عاث في الأرضِ فساداً فسفك دماءَ الأبرياء، وزجّ بالمستضعفين في سجونِه الموحِشة العفنة لظنه أنه سيَخلد في الأرضِ، ويفلت من عقابِ الله ولن يقوى عليه أحدٌ، وفاتَه أنه من عدل الله الأزليّ أَنْ قَهَرَ الجبارين بالموتِ، ونسِي قولَه تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: الآية 78]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: الآية 168]، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: الآية 185] وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: الآية 19]، وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [الواقعة: الآية 60]، وقولَه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة: الآية 8].

أين جبابرةُ الأرضِ وطغاتُها يا عبدَ الله؟ كلّهم قضَوْا واندرسَتْ آثارُهم ولم تبق إلاّ رسوم تَشْهَد على جبروتِهم في الدنيا، كما ستشهَدُ على عتوّهم يومَ القيامة. يا لخيبة المسعى وسوء المصير.

انظر يا عبدَ الله كم من أحمق معتوه سعى للملك فاجتهدَ يطلبه هنا وهناك وخرج يلتمس رزقَه الذي تكفّل الله به عند أعتابِ العبيد، فلما لم ينله ذلّ لهم، ولم يَظْفَر منهم إلاّ بلقمةٍ ملوثةٍ بدماءِ الشرفاءِ وعرقِ المظلومين معرضاً عن قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت: الآية 17].

اعلم يا عبدَ الله أنه من هنا أُتي ابنُ آدمَ. خاف على رزقه، وخشي على

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

عياله المسغَبة فسلَم نفسَه عبداً ذليلاً لأول من يعترض سبيلَه ولو كان إبليس نفسه. وما أرى أحداً ناجياً من ذلك ما لم يتدبّر قولَه تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: الآية 22] وما لم يتأمّل في قولِه تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: الآية 21].

وما لم يتفكّر في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: الآية 6].

الرزقُ يا عبدَ الله من الله، والتوكّل من العبد. فانظر إلى حديث المصطفى: «**لو توكّل أحدُكم على الله حَقّ توكّله لرزقَه كما يرزق الطيرَ. تغدو خماصاً وتروح بطاناً**» فسترى أن حقيقةَ التوحيدِ هي صحةُ التوكُّلِ على الله.

ولو جئتَ تقيس الرزق بحسابات الإنسان وقوانينِ الأرض لماتت العجماواتُ من طير ودابة وزاحفةٍ وعائمةٍ. ويا لله ما أجمل قول الشاعر:

ينال الفتى من عيشه وهو جاهلٌ ... ويكدي الفتى في دهره وهو عالِمُ

ولو كانت الأرزاقُ تجري على الحِجى ... هلكن إذاً من جهلهنّ البهائمُ

قلتُ: صدقتَ أيها الشيخ، وهذا نظيرُ قول الآخر:

كم عاقلٍ عاقلٍ أعيَت مذاهبُه ... وجاهلٍ جاهلٍ تراه مرزوقا

هذا الذي ترك الأوهامَ حائرةً ... وصيَّر العالِم النحريرَ زنديقا

قلت: نعم. قال: ولو تمعّنت يا عبدَ الله في الأمر لأدركتَ أن كلّ عللِ البشرِ ترجع إلى الإنسانَ انخدع بمقالةِ إبليس فتوهّم حياةً خالدة وملكاً لا يبلى.

ولو سلَّم بأن الحياةَ فانيةٌ، والملكَ زائلٌ لسكنت نفسه المضطربة وقنع بما كتبه الله له من رزق، وما كان ذلك ليفوته أبداً.

قلت: حسبي اليوم هذا منك أيها الشيخُ.

ابتسم العارفُ وقال: عجباً لأمرك يا عبدَ الله، ألم نأتِ هنا إلاّ لنتحدَّثَ في

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

هذا الأمر؟ ألم تكن متلهفاً للسماع؟ ألا رَحِمَ الله صاحبنا النجفيّ إذ يقول:

وكم زائرٍ ظامٍ أتى نحو منهلي ... فلما ارتوى منه عَراه صدودُ

فقلت له إذ مَلَّ صافي موردي ... ستظمأ يا هذا غداً وتعودُ

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT
Est. 2012 CE

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

العَارِفُ النّيْسَابُورِيُّ.. البَاحِثُ أَبَداً

أسنَدَ الشّيخُ العارفُ ظهرَه إلى الحائط، وأغمض عينيه وغرق في تأملاتِه.. غاب بعيداً إلى عالم آخرَ لا أعرفه.. ولم يبق أمامي إلاّ جسدٌ متخشّب. ولولا أنفاسٌ خافتة أبصرها في صدرٍ يعلو قليلاً ويهبط لقلت إن الرجلَ قُبض. ظل الشيخُ على هذه الحالة ساعةً أو بعض ساعة ولم أشأ أن أقطعَ استغراقه، وظللت أحدّق فيه مليّاً حتى كدت أنا نفسي أغرق في بحرٍ متلاطم من الحيرة، والاستغراب، والدهشة.. فهذه أمور لا أعرفها من قبلُ وإن كنت قرأتُ عنها. وبونٌ شاسع بين المحفوظ في تضاعيف الكتب وبين ما يجري على الجوارح من أحوال. والفرقُ لا ريبَ كبيرٌ بين ما يُعْرَف وما يقال.. وليس كلّ ما يُعْرف يقال.

وهذا الشيخُ الحاضرُ الغائبُ أول تجربة لي في طريق المشاهدات والأحوال. لم أمكث طويلاً حتى سمعت همهمة تنبعث من الشيخ. أصخت السمع فإذا هو يقول في صوت خافت:

فليت الذي بيني وبينك عامرٌ ... وبيني وبين العالمين خرابُ

وليتك تصفو والحياةُ مريرةٌ ... وليتك ترضى والأنامُ غضابُ

إذا صحّ منك الودُّ فالكلّ هيّنٌ ... وكل الذي فوق الترابِ ترابُ

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

قلت في نفسي: هذا كلام للعابدة الزاهدة رابعة، وهو أجلُّ ما قيل في الحبّ الإلهي. عاد صاحبي إلى همهماتِه غير الواضحةِ... وفي هذه المرّة اختلطت بعبرات.. ولم تلبث العبراتُ أن استحالت إلى شهقات. خِفْتُ على الشيخ من شدة الوجْد فهززته بلطف لعلّه يفيق، لكنه لم يفعل وعاد يتمتم من جديد، وكأنه ينشد:

عَدِمْتُكِ نفسي ما تَملّي بطالتي ... وقد مرّ أصحابي وأهلُ مودتي
أُعاهد ربي ثم أنقُضُ عهدَه ... وأترك عزمي حين تعرض شهوتي
وزادي قليلٌ ما أراه مبلِّغي ... أللزاد أبكي أم لبعدِ مسافتي

فجأة انتبه الشيخ وفتح عينيه فرأيت فيهما بريقاً لم أعهَده من قبل.. لم أشأ أن أبدأه بالكلام. نظر إليَّ ثم قال:

يا عبدَ الله، أرى في عينيك كلاماً لا يطاوعك قلبُك أن تفصحَ عنه.. قله وفرِّجْ عن نفسك. قلت: بربك أيها الشيخ قل لي من أنت؟ قال: ألا تملُّ من هذا السؤال يا فتى؟ قلت: حتى أسمع عنه جواباً يطفئ غلتي ويشبع نهمي.

قال: قد لا تصدِّق لو قلتُ لك لا أدري. قلت: وذاك نصف العلم.

قال منشداً:

يقولون نصفُ العلم قولُك لا أدري ... وإن ادّعاءَ العلم في ذي الحِجَى يُزري
إذاً أنا حقّاً أعلمُ الناسِ كلهم ... فعندي لو فتشتني ألفُ لا أدري

يا عبدَ الله، أنا رجلٌ ما لانت لباطلٍ قناتي، ولم أعتد معاشرةَ الظلمة ومخالطة الأشرار. فصار حالي كحال القائل:

إني لمِن نَبْعةٍ صمّ مكاسرها ... إذا تناوحت البكاءُ والعشرُ
فلا ألين لغير الحقّ أسألُه ... حتى يلين لضرسِ الماضِغِ الحجرُ

يا بنيّ، هذا زمنٌ إذا قلتَ فيه الحق كَثُرَ أعداؤك، وقلّ صحبُك، وربما رموك بالطيش والسَّفَه، وسلقوك بألسنةٍ حداد، واتهموك بكل نقيصة.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ماذا أقول يا عبدَ الله في زمن استنسر فيه البُغاث، وتطاول فيه أهلُ الباطل على أنصار الحقِّ غير مقالة أعمى المَعرّة:

فيا موتُ زُر إن الحياةَ ذميمةٌ ... ويا نفسُ جِدّي إن دهرَك هازلُ

وهذه مقالة لأَبي العلاء أكرهها، لكنها تجري على لساني على غير رضىً مني لأنني مذ عقلتُ وأنا أحفظ حديثاً للمصطفى يقول: «**لا يدعوَنّ أحدُكم بالموت لضرّ نزل به، ولكن ليقل: اللّهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفّني إذا كانت الوفاةُ خيراً لي**».

يا عبدَ الله، دع عنك السؤال عن الأشخاص فهي أشباح ماثلة، وأعراض زائلة، وإذا كنت لا بد فاعلاً فسل عن الحق والباطل، والخير والشر، والعلم والجهل، والصواب والخطأ، وهذا أولى من الخوض فيما تحب. ولا أظن أن معرفَتك بي ستقلِّل من جهلك، ولا أن جهلَك بي سينقص من معرفتِك.

يا عبدَ الله، هذا الفقير الذي تراه أمامك هو غير الذي رأيتَ قبل ساعة، وما أظن أنه سيبقى على حاله بعد ساعة، ثم أنشد:

كلّ يومٍ أزيح عني ثوباً ... بالياً من عقائِد الأحقابِ

أملاً أن أعرّي النفسَ حقاً ... من لباس يَشينُها وحجابِ

غير أني إن أنضُ ثوباً أصادف ... ألفَ ثوب ملاصقاً لإهابِ

فتراني ما عشت أنزع أثواباً ... كأنّي كوّنت من أثوابِ

صرتُ أخشى إنْ أنضُ كلّ ثيابي ... لم أصادف روحاً وراء الثياب

يا عبدَ الله، غادرت نيسابور وأنا كاره لها، وها أنذا اليوم تتوق لها روحي وتهفو لها نفسي. خرجت منها أبحث عن ذاتي فضيعت ذاتي، فصرت كالضارب في البيداء أضاع طريقه.

صمت الشيخُ قليلاً، ثم أنشد:

أبغي أسافر لكن لا إلى جهةٍ ... كأنني عن وجودي أبتغي السَّفَرا

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

فكم قصدتُ جهاتٍ ما لها عددٌ ... فما بلغتُ بها قصداً ولا وَطَرا

فلا الإقامةُ في الأوطان تُسْعِدُني ... ولا التغرّب يجلو عنِّيَ الكَدَرا

أنَّى جَلَسْتُ رأيتُ النفسَ في قلقٍ ... يثيرُها فتعاف الصّحبَ والسمرا

وأين سرتُ رأيت القلبَ منقبضاً ... والعينُ في كلّ شيء، تبغُضُ النّظرا

كأنّني باحثٌ في الكونِ عن وَطَنٍ ... به شُغِفتُ ولم أعرف له أثرا

لم ألقَه وأنا حيّ وبي رَمَقٌ ... فهل سأَلقاه لما أغتَدِي خَبَرا؟

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

السّير في طريق الله

بُعَيْدَ صلاةِ العشاء جلس الشيخُ العارفُ يتلو وِرْداً له يبدو أنّه اعتاد تلاوتَه كلَّ يوم في مثل هذا الوقت. أخذتُ أتملّى في كتاب بين يديّ كنتُ فرغتُ من قراءته البارحة.

أثار الكتابُ اهتمامي وهممتُ بإعادة قراءته من جديد لولا أنني سمعتُ الشيخَ يقول لي: إيهٍ عبد الله. ما هذا الذي بين يديك؟ قلتُ: كتابٌ شَغَلَ بالي فقرأتهُ في ليلتين، ونفسي تحدثُني أن أعيدَ قراءته مرّةً أخرى. قال: ألهذا الحدّ؟ قلتُ: بل أكثر من ذلك. قال: وما اسمه؟ قلتُ: منطق الطير لفريد الدين العطار. قال: النيسابوريّ؟ قلت: لا أدري. قال: بل هو مِن نيسابورَ مسقطِ رأسي، ولقّب بالعطّار لأنه كان له حانوت عطارة، كما كان له اشتغال بالطب. وله تآليف كثيرة مثل: تذكرة الأولياء، وأسرار نامه. وأراه في منطق الطير متأثراً برسالة الطير لابن سينا. قلت: أذكر يا سيدي أنني وقفتُ على رسالةٍ في هذا المعنى للغزالي. قال: أصبتَ ولا يستبعد أن يكون العطار تأثّر بكلتيهما. ولكن قل لي عبدَ الله ما الذي شدّك إلى هذا الكتاب؟ قلت: الكتابُ منظومةٌ شعريةٌ طويلة ممتعة عن مدارج السالكين، وحقيقةِ المعرفةِ، وأصنافِ العُبّاد، والعشقِ الإلهي، والوقوف على مقامات العارفين، وأشياءَ أخرى عن الفناء والاتحاد.

قال شيخنا العارف: لكن احذر عبدَ الله. فهذا وادٍ قَلَّ من دخل فيه وخرج

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

منه سالماً. قلتُ: وما الضررُ الذي تراه يلحَق بمثلي إذا اعتلَى طوقاً وأمخر به في عُبابه. قال: هذا بحرٌ لجيّ متلاطم، إذا أوغلت فيه ابتلعتك أمواجُه، وإذا وقفتَ بساحله أصابك برذاذه ولم تقف على سرّه وظللتَ تمضّك الحيرةُ ويعتصرُك الأسى.

قلت: زدني بالله عليك. قال: لو كنت تذكر حكاية الفراشات الثلاث في منطق الطير للعطار لوقفتَ على حاجتك، وهذا ما أخشاه على المبتدئين عند قراءة مثل هذه التصانيف. اعلم يا بنيّ أن أشدَّ ما أصابَ التصوّفَ هو ما دخل عليه من تفلسفٍ أفسد رواءه وبهاه وأخرجه من دائرةِ القلب إلى دائرة العقلِ فاضحى ضرباً من الطلاسم والألغاز. سكت الشيخ قليلاً ثم أنشد.

أمّا الخيامُ فإنها كخيامِهم وأَرى نساءَ الحيِّ غيرَ نسائِها

ومن هنا يا عبدَ الله يأتي الخطرُ إذ يخرج الأمرُ من دائرة التأمّل والمشاهدة في النّفس وملكوتِ الله إلى الخوض في ذاته حتى بلغ الأمرُ بأحدهم أن قال: نحن معاشر الأولياء خضنا بحراً وقف الأنبياء عند ساحله قلت: هل ترى أن أصرفَ نظري عن مثل هذا؟ قال: بل أقول لك اشغل نفسَك بنفسِك فهي تكفيك، ثم طفق ينشد:

أتحسَبُ أنك جِرمٌ صغير وفيك انطوى العالَمُ الأكبرُ

وهذا يا عبدَ الله ما دعا إليه ربُّ العزّة في قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذريات: الآية 21].

قلت: أَوليس الإمعان في التدبّر في النفس البشرية والإفراط في ذلك يُفضي بدوره إلى القول بالاتحاد ووحدة الوجود وهذا ما أراك تريد أن تُجَنّبنيه. قال: بلى. وهذا بلا ريب من الضلالات والمجازفات، ولم يجرؤ على القول بها سادةُ الطريقة من أشراف المتقدمين من أضراب إبراهيم بن أدهم وذي النون المصري، وبشر الحافي، والفضيل بن عياض، والجنيد، وآخرين.

قلت: هات إذن بربك حدِّثني عن النفس. قال: وهل أجد شيئاً يليق بهذا المقام أفضلَ من عينية الشيخ الرئيس، ثم أخذ ينشد:

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

هَبَطت إليك من المحلِّ الأرفع ... وَرقاءُ ذاتُ تعزّز وتمنُّع
محجوبةٌ عن كلِّ مقلةِ عارفٍ ... وهي التي سَفَرت ولم تَتبرقع
وصَلَت على كُرْهٍ إليك وربما ... كرِهت فراقَك وهي ذَات تَفَجُّعِ
تبكي وقد ذَكَرت عُهوداً بالحِمى ... بمدامع تَهمي ولمَّا تُقْلِعِ
وتظل ساجعة على الدّمن التي ... درست بتكرار الرياحِ الأربَع
إذ عاقها الشرك الكثيف وصدها ... قفص عن الأوج الفسيح الأربُعِ
حتى إذا قَرُبَ المسيرُ من الحِمى ... ودنا الرحيلُ إلى الفضاءِ الأوسَعِ
هَجَعَتْ وقد كُشِف الغطاءُ فأبصرت ... ما ليس يُدْرَك بالعيونِ الهُجّعِ
وغَدَت تغرّد فوق ذِروةِ شاهقٍ ... والعِلم يرفع كلَّ من لم يُرْفَعِ
فلأيِّ شيء أُهبِطت من شاهقٍ ... عالٍ إلى قعرِ الحضيضِ الأوضعِ
فكأنّها برقٌ تألّق بالحِمى ... ثم انطوى فكأنّه لم يَلْمَعِ

قلتُ: يرحمك الله أيها الشيخ لقد ذكرتني بأبياتٍ على غرارها لشهاب الدين السهروردي.

قال: لعلك تعني السُّهرَوَرْدي المقتول صاحبَ (هياكِل النّور) و(حكمةِ الإشراق).

قلتُ: هو بعينه، وهو صاحب رسالة (أصوات أجنحة جبريل).

قال الشيخُ: هاتِ أسمعنيها. قلتُ: أنشد المقتول:

خَلعَتْ هياكِلَها بجرعاء الحِمى ... وصَبت لمغناها القديمِ تَشوّقا
وتلفتَتْ نحو الديارِ فشاقَها ... ربعٌ عفَتْ أطلالُه فتمزّقا
وَقفَتْ تسائله فردّ جوابَها ... رَجْعُ الصّدى أن لا سبيلَ إلى اللقا
فكأنما برقٌ تألق بالحمى ... ثم انطوى فكأنه ما أبْرَقا

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

قال الشيخُ العارفُ: هذا والله حسنٌ جداً. اقتربتُ من الشيخ أكثر ووضعت يديَّ على ركبتيه متذللاً، وقلت له: ذكرْتَ نفراً من الزهَّاد فهلاّ حدَّثتني عن بعضهم. قال: هؤلاء يا عبدَ الله قومٌ انقطعوا للعبادة وخرجوا من دنيا الناس بالمجاهدة وإن كانوا من قبل لمن الغافلين شأنهم شأن أغمار البشر.

اعلم يا عبد الله أن بدايةَ الهداية لحظةٌ ربانيّة يُشْرِقُ فيها نورُ الله في قلب عبده الموعود فيفيض ذلك على جوارحِه فترى غير الذي ترى وتسمع غير الذي تسمع. فهذا إبراهيمُ بن أدهم كان على موعدٍ مع الهداية.

خرج يوماً كعادته يطلب الصيدَ وكان أميراً من بلخ، ولم يكن يعبأ بشيء غير متعته ولذته، فجرى وراء ظبيةٍ فابتعدت عنه ونأت به عن صَحْبِه، وظلّ يجرى خلفها حتى أدركها وقد أجهدها الجريُ فتعثرت أمامه وهي مروّعة تلهث. وضع سهمه في قوسه وكاد يرميها لولا أنه سمع صوتاً أو خيّل إليه ذلك، يناديه:

يا إبراهيم ألهذا خلقتَ؟ أم بهذا أُمِرْتَ؟ اضطرب الأميرُ البلخيّ واعترته رعدةٌ ونزل عن فرسِه وأفلتت الظبية، وأجهش بالبكاء. وفي الطريق صادف راعياً عليه جبة من صوفٍ أخذها منه وأعطاه فرسَه وما معه، ثم لبس خرقة الصوف وضرب في البريّة وانقطع إلى العبادة، وكان عامة دعائه رحمه الله:

«اللهم انقلني من ذلِّ معصيتك إلى عِزّ طاعتك».

قلتُ: وماذا عن الفضيل بن عياض؟ قال: وهذا عبدٌ آخر كان على موعدٍ مع الهداية، وقد وُلد هنا في سمرقند، ونشأ في (أبيورد) ومات في مكّةَ، أتدري عبدَ الله أن الفضيل هذا كان من الشطّار والعيّارين يتربّص بالمسافرين فيسلبهم ما معهم حتى سمع يوماً هاتفاً يقول: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: الآية 16]. فقال: يا ربّ قد آن. فرجع فأوى إلى خربةٍ فإذا فيها نفر من الناس فاقترب منهم دون أن يحسّوا به فسمع بعضَهم يقول: نرتحل الآن. والبعضُ الآخرُ يقول: لا. حتى نصبحَ فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا. فحزن الفضيلُ لذلك حُزناً شديداً وهالة أن يرتاعَ الناسُ منه، فتاب الفضيل

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

وجاور الحَرَمَ حتى مات ولُقِّبَ بعابد الحرمين. قلت: وماذا عن بشر الحافي. قال: كان من أعيان الناس مرّ يوماً فأصابَ ورقةً مكتوبٌ فيها اسمُ الله عزّ وجلّ قد دِيست بالأقدام فأخذها واشترى بدرهم كان معه بعضَ الطّيبِ فطيّبها به وجعلها في شقٍّ بحائط فرأى في المنام كأن قائلاً يقول له: يا بشر طيّبتَ اسمي في الدنيا لأطيِّبن اسمك في الدنيا والآخرة.

إذا كنت يا عبدَ الله لا بد قارئاً فاقرأ عن هؤلاءِ وتدبّر في حياتهم ولكن لا تنسَ يا بنيّ أن الحياةَ عقيدةٌ وجهادٌ وما كانت قطّ انصرافاً عن الدنيا وإعراضاً عن أمر إصلاحها وتَدبّر مقالةَ العالِم الربانّي عبد الله بن المبارك إِذْ يعاتبُ صاحبَه الفضيل مع ما يعرف له من مقامٍ وورعٍ حيث يخاطبه منشداً:

يا عابدَ الحرمين لو أبصرتَنا ... لعلمتَ أنك في العبادةِ تلعبُ

من كان يخضّب جيدَه بدموعِه ... فنحورنا بدمائِنا تتخضَّبُ

أو كان يُتعِب خيلَه من باطلٍ ... فخيولنا يومَ الكريهةِ تَتعبُ

ريحُ العبيرِ لكم ونحن عبيرنا ... رَهْجُ السنابِكِ والغبارُ الأطيبُ

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT
Est. 2012 CE

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

العَارِفُ النّيْسَابُورِيُّ يُحَذِّرُ مِن بَعْضِ خُرَافاتِ أهْلِ الطّريقَةِ..

وَقَع كلامُ الشيخ في نفسي موقعاً حسناً، وكنت أحبُ أن أستزيدَه منه فمنعني من ذلك أمران: مهابةُ الشيخِ ووقارُه، وخطورةُ الموضوع. وهذان معاً عَقَلا لساني. قد لا يجد المرءُ معنىً لكلامي هذا حتى يُقيِّضَ له أن يجلسَ في حضرة رجلٍ من طبقةِ العارفِ النيسابوري فيستحوذَ على قلبه وعقلِه بصفاءِ روحِه، ونقاءِ سريرتِه، ورباطةِ جأشِه، وسَدادِ منطِقه، وبليغِ لغتِه، وجرأتِه في الحقّ.

لم يكن أمامي إلاّ أن يبدأني الشيخُ بالحديث أَو أتدبّرَ حيلةً لأفاتحَه في أن يكملَ أمامي ما بدأه من الحديثِ عن أربابِ الطريقةِ. وبينما كنتُ أفكّر في هذا الأمر جاء الفَرَجُ حيث سمعتُ صوتاً يأتي من وراء باب الدّار ينشد قائلاً:

سلامٌ على طِيب المقامِ سلامُ ... فليس لعينِ المستهام منامُ
ولو ترك الإغماضَ يوماً لجفْنِه ... لأيقظه مما يُجنُّ ضِرامُ

قلت مُسْمِعاً الشيخَ العارفَ: هذا واللهِ صوتٌ أعرفه. انتبه الشيخُ وقال:

مَنْ هو؟ قلتُ: منصور الدرويش، أشهرُ دراويش سمرقند، بل هو أشهرُ أهِلها على الإطلاق فلا يكاد يوجد أحدٌ يجهله.. حتى إن واليَ سمرقندَ حينما بلغه خَبرهُ وحبُّ الناس له همّ بحَبْسه حَسَداً. هذا الدرويشُ لا يفتأ يدور في

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

شوارع المدينة وطرقاتها والصبيانُ يجرون خلفه يرددون ما يقول، والكبارُ يدعونه إلى مجالِسهم بعضُهم بنيةِ الاستخفافِ به، وبعضُهم الآخر بنيةِ الاستماعِ إلى شعرِه ومواعظِه وإن جاءت على خِلافِ هَواهُم. . وكان كلّما وقف بجماعة تمثَّل بقول جميل:

ألا أيّـهـا الـنـوّامُ ويـحـكـمُ هُـبّـوا أسائِلكم هل يقتُلُ الرجلَ الحبُّ

قال الشيخُ العارفُ: قُم عبدَ الله فادْعُه. فنهضتُ وفتحتُ البابَ فإذا هو متكئٌ على جذع شجرة كَستناء بباحِة الدار. نظر إليّ وقال: هل أنت موجود؟ قلت في صوتٍ مسموع: اللهم يا مسلّم العقول من الآفاتِ سلِّمنا. أشرتُ إليه بيدي أن أقبِل. دخل الدرويشُ ووضعَ يَدَه على كتفي وأنشده:

أرى كـلَّ إنـسـانٍ يـرى عـيـبَ غـيـره ويـعـمـى عـن الـعـيـبِ الـذي هـو فـيـهِ
ومـا خـيـر مَـنْ تـخـفـى عـلـيـه عـيـوبه ويـبـدو لـه الـعـيـب الـذي لأخـيـه
وكـيـف أرى عـيـبـاً وعـيـبـي ظـاهـرٌ ومـا يـعـرف الـسـوءاتِ غـيـرُ سـفـيـه

لطمني الدرويشُ بقوله، فأحسستُ بندمٍ شديدٍ لما قلتُ. جلس في وسط الدار وشرع يحملق في الشيخ العارف وقد وضع طَرَفَ ثوبه المرقّع بين أسنانه وظل الرجلان يتبادلان النظرات. أردتُ أن أقطعَ هذا الصمتَ المطبقَ فسألتُ الدوريشَ: أين أنت أبا سعيد لم أرك منذ وقت؟ نظر إليّ وأنشد:

فـهـام بـحـبّ الله فـي الـقـفـر سـابـحـاً وحـطَّـت عـلـى سـوق الـقـدوم رواحِـلُـهْ
نـهـاه الـنُّـهـى فـارتـاع لـلـخـوف بـاطـنـه وخـاف وعـيـد الله فـالـحـقُّ شـاغـلـه
فـلـمـا جـرى فـي الـقـلـب مـاءُ يـقـيـنـه فـأنـبـت زرعـاً لـم تـجـفَّ سـنـابـلـه
طـوى دهـره بـالـصـوم حـتـى كـأنـمـا عـلـيـه يـمـيـنٌ أنـه لا يـزايـلـه
فـعـاد بـحـزن قـد جـرى بـضـمـيـره تـنـوحُ بـه أعـضـاؤه ومـفـاصـلُـهْ
يُسرُّ الـفـتـى مـا كـان قـدّم مـن تـقـى إذا عـرف الـداء الـذي هـو قـاتـلُـهْ

ابتسم الشيخُ العارفُ وقال: ما أجمل ما قلتَ يا منصور! أليس هذا من

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كلام حَيّان بن خيثم المجنون؟ أجاب: بلى. ولكن أما بلغك أن هذيان المجانين إرثٌ بين المجانين على مرّ الدهور؟ أجاب الشيخ: بلى، فبعضُهم يرثه كلالةً، وبعضهم يرثه تعصيباً. لم أفهم شيئاً مما قيل. قدَّمت بعضَ الطعام للدرويش فدسّه في جراب كان يحمِلُه. واتّجه صوبَ الباب ثم التفتَ نحونا وكأنه يريد أن يقولَ شيئاً ثم أحجَم عنه. كان وَجهُه أصفرَ شاحباً كمن أُخْرِجَ من قبر. قلت: أبا سعيد هل أصابك شيء؟ خرج الدرويش دون أن يفوهَ بكلمةٍ حتى إذا اقترب من شجرةِ الكستناء سمعناه ينشد:

قد لَسَعَتْ حيةُ الهوى كَبِدي ... فلا طبيبَ لها ولا راقي

إلاَّ الحبيبُ الذي شُغِفْتُ به ... فعنده رُقيتي وترياقي

قُلت في نفسي مبتهجاً: هذا واللهِ مفتاحُ العودةِ إلى ما وقفتُ عنده من حديثٍ مع الشيخ العارفِ عن الطريق وأهلِها. قلتُ للشيخ: هذه الأبياتُ كأنني قرأتُها في بعضِ كتب المتصوّفة، أجاب الشيخُ: صدقتَ. وهي أبياتٌ حسنةٌ لولا أنها ارتبطت بحكايةٍ باطلةٍ. قلت: هلا أخبرتني عنها؟ قال: هذه الأبياتُ رواها السُّهروَرديّ في كتابه (عوارف المعارف). قلت مقاطعاً: هل هو المقتول؟ أجاب: كلا فالمقتولُ هو شهاب الدين من أعيان المائة السادسة واسمه يحيى. وصاحبُ (عوارف المعارف) هو أبو حفص عمر السّهروردي. وفي (العوارف) عن أنس قال: كنا عند رسول الله ﷺ إذ نزل عليه جبريل عليه السلام فقال: يا رسول الله إن فقراء أمّتِك يدخلون الجنَّةَ قبل الأغنياء بنصفِ يومٍ وهو خمسمائة عام. فَفَرِحَ رسولُ الله ﷺ فقال: هل فيكم من يُنْشِدُنا، فقال بدويّ: نعم، يا رسولَ الله، فقال: هات، فأنشد الأعرابيُّ تلك الأبيات.. فتواجد رسولُ الله ﷺ وتواجد الأصحابُ معه حتى سقط رداءُه عن منكبيه، فلما فَرغُوا وأوى كلُّ واحدٍ منهم إلَى مكانه قال معاوية بن أَبي سفيان: ما أحسنَ لعبَكم يا رسولَ الله. فقال: «مه يا معاوية ليس بكريمٍ من لم يهتز عند ذكر الحبيب» ثم اقتسم رداءَ رسول الله من حضرَ بأربعمائة قطعةً. وهذه حكاية يا عبد الله باطلة فانتبه. وهي لا تروج إلاَّ بين الجهّال. وآفتها رجُلٌ اتّهم بالوضع والاختلاق اسمه أَبو بكر عمار بن إسحاق

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وقد نبَّه إلى ذلك من ألّف في الموضوعات، قلتُ: مثل مَن؟ قال: مثل ابن عراق الكِناني في (تنزيه الشريعة المرفوعة)، والعجلوني في (كشف الخفاء ومزيل الإلباس) وقبلهما شيخ الإسلام في رسالة له عن السماعِ ضمن مجموعة رسائله الكبرى. والعجيبُ يا عبدَ الله أن بعضَ متأخّري المتصوفة ينقلون هذه الحكايةَ الباطلةَ عن (عوارف المعارف) بينما صاحبُ العوارفِ نفسُه يقول عنها: «ويخالج سرّي أنَّه ـ أي هذا الخبر ـ غيرُ صحيحٍ، ولم أجد فيه ذوقَ اجتماع النبيِّ ﷺ مع أصحابِه وما كانوا يعتمدونه على ما بلغنا في هذا الحديث، ويأبى القلبُ قبولَه».

فَتَيَقَّظْ عبدَ الله ولا تغترَّ بمثل هذا. قلتُ: جازاك الله عنّي خيرَ الجزاء أيها الشيخُ الفاضل. قال: إذا استغلق عليك فهمُ بعض الأمور من شأن أهلِ الطريقةِ فَسَلْني عسى أن تجدَ حاجتَك أَو أدلّك على موضعها. قلتُ: نعم، إن في نفسي شيئاً من بعض الأمور لو أذِنْتَ طرحتُها عليك، قال: هاتِ ولا تتردد. قلت: كنتُ يوماً جالساً مع نَفَر من فقراء الصوفيةِ نذكر الله وبينما نحن في شغلنا ذلك إذ نهض أحدُهم وقال وكأنه يحدّث غيرَنا: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. قلتُ له: على من تردّ السلامَ؟ ابتسم وقال: هذا الخَضِرُ صاحبُ موسى يُقْرئكم السلامَ. فتناظرنا ليلتَها في حياةِ الخَضِر وخلودِه ولم نَصِلْ فيها إلى شيء. فهل عندك عن هذا الأمر نبأ؟ قال: اعلَمْ يا عبدَ الله أن هذا موضعٌ من المواضع الذي اغترّ به كثيرون وهذا يتنافى مع صريح القرآن وصحيح السنّة وإجماع المحققين. فأما القرآنُ فقولُه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ [الأنبيَاء: الآية 34]، فالخَضِر إن كان بشراً فقد دَخَل في هذا العموم لا محالةَ، ولا يجوز تخصيصُه منه.

وأما السُّنَّة فما أخرجه الشيخان أنّ رسولَ الله ﷺ قال: **«أرأيتكم ليلتكم هذه؟ فإنّ على رأس مائةِ سنةٍ منها لا يبقى على ظهرِ الأرض ممن هو اليوم عليها أحدٌ»**.

وأما إجماعُ المحققين فإن أكثرَ أهلِ العلمِ ممن يُعتَدُّ بقولهم كالبخاريِّ في

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

المتقدمين وابن حجر في المتأخرين على أن الخَضِر ليس حيّاً. فضلاً عن أن هذا يتنافى مع العقل. قلت: أين أجد تفصيلَ هذا الموضوع؟ قال: عليك بـ (المنار المنيف في الصحيح والضعيف) لابن القيم ففيه عرض وتحقيق قد لا تجده في غيره، وإن أحببت تفصيلاً أكبر فرسالة (الزهر النضر في نبأ الخضر) لابن حجر فقد استوعب كلّ ما قيل في الموضوع، ويقرّر في نهايتها أن الذي تميل إليه النفسُ من حيث الأدلة القوية خلاف ما يعتقده العوام من استمرار حياته.

اعلم يا عبدَ الله أنّ كثيراً من هذه الخرافات لا أصلَ لها وإن شاعت بين الناس، قلت: هل هنالك خرافاتٌ أخرى تحبّ أن تحدّثَني عنها؟ قال: نعم. سأحدثك غداً عن فريةِ دعوى إيمان فرعون، وخرافة الأوتاد والأبدال، وتقديسِ إبليس وتعظيمِهِ وأشياءَ أخرى. وحسبُك اليومَ من القلادِة ما أحاط بالعنقِ.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT
Est. 2012 CE

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

نوحٌ الجامعُ القاصّ يهيّج العامَّةَ على عبدِ الله المحجوب..

سكت الشيخُ العارف ساعةً، ثم نهض واتجه نحو الباب قائلاً: سأخرج الآن يا عبدَ الله. قلت: إلى أين ونحن في منتصف الليل؟ قال: لشأن يعنيني. لم أجرؤ على سؤاله عن شأنه ذاك. ولكنني سألته: أين أراك؟ قال: ظهر الغد عند صاحبك الورّاق. ودّعت الشيخ، وقبل أن ينصرف شدّ على يدي وقال: عبدَ الله لا تنس كفارةَ المجلسَ. قلت: الحمدُ لله إني أحفظها. قال: هات أسمعنيها قبل أن أمضي. قلت: سبحانك اللّهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلاّ أنت، أستغفرك وأتوب إليك. قال: أحسنت. انصرف الشيخ وهو يدعو: اللّهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك، ومن طاعتِك ما تبلّغنا به جنّتك، ومن اليقين ما تهوّن به علينا مصائبَ الدنيا، انطلق الشيخُ في خطىً متثاقلة. أحسستُ بعد انصرافه بأن النعاسَ يغالبني فأخلدت إلى النوم، ورحت أغطّ في سباتٍ عميق لم أفق منه إلاّ وقد اكتنفني ضوءُ النهار.. وأخذت أشعةُ الشمسِ المتسللة من كوةٍ في الجدار تداعب جفنيَّ.

نهضت مذعوراً فقد انصرم طرفٌ من النهار.. استعذتُ بالله من الشيطان الرجيم، وجرى على لساني ما حفظته من حديث المصطفى: «**اللهم بك أصبحنا، وبك أمسينا وبك نحيا، وبك نموت، وإليك النشور**»، ويْحي لقد ضيّعتُ صلاةَ الفجر.. لقد كان بيني وبينها قبل أن آوي إلى فراشي ساعة أَو ساعتان.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ألا بئس ما صنعت.. هذا هو التفريطُ بعينه. استغفرتُ الله وقمتُ أتوضأ من فوري وأنا أستحضر قولَه تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: الآية 114] وقوله تعالى: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾ [المجادلة: الآية 19] وقفت بين يدي الباري وصليت ركعتين، ثم ركعتين أخريين... انتابتني بعضُ السكينة. قلت في نفسي: لا أعود لمثلها إن شاء الله. تناولت قدحاً من اللبن وبعضاً من فضل طعام. وخرجت أستحثّ الخطى نحو سوق الورّاقين وأنا أنشد أبياتاً وقفت عليها في أحد كتب الرقائق، وهي:

يا ذنوبي عليك طال بكائي ... صرتِ لي مأتماً فقلّ عزائي
في كتابي عجائبٌ مُثبتاتٌ ... ليتني ما لقيتُها في بقائي
نظَرُ العينِ قادني للخطايا ... إذا أذِنَتِ اللحوظُ للأهواءِ
تالياً للقرآن يتلو المعاصي ... اسمه في السماء عبدٌ مُرائي

وبينما أنا كذلك إذا بمنصور الدرويش يعترض طريقي، ويشد طرف ثوبي وهو ينشد:

يا نفسُ قومي بي فقد نام الورى ... إنْ تفعلي خيراً فذو العرش يَرى
وأنت يا عينُ دعي عنك الكرى ... عند الصباح يَحمد القَوم السُّرى

قلت: عجباً. من أعلم هذا الدرويش بما كان من أمري. شدّني من ثوبي مرةً أخرى وهزّني هزّاً عنيفاً، وقال:

طال القيامُ لهجعة النُّوام ... وتراكَ مطَّلِعاً لطول مقامي
يا سيدي ومؤمّلي وموثقي ... من أجل حبك قد هجرت منامي

قلت: لله ما أعجب أمرَ هذا الدرويش، ولولا أنني أعلم أن به جِنّةً لقلت إنه أعقل أهل سمرقند. نظر إليّ الدرويشُ بعينيه الغائرتين المجهدتين وقال:

إياك أن تزدري الرجالَ وما ... يدريك ماذا يُجنُّهُ الصدفُ
نفسُ الجوادِ العتيق باقيةٌ ... فيه وإن مسَّ جسمَه العَجفُ

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

فـالـحـرُّ حـرٌّ وإن ألـمّ بـه الـضُّـرّ فـفـيـه الـحـيـاءُ والأَنَـفُ

قطعت الطريقَ كلّها وأنا في حالة هيمان حتى انتهت بي قدماي عند بوابة السوق الكبير، حينئذ انتبهت لأصواتِ الباعةِ، وجلبة المارة وتذكرت دعاءً كان الرسول الكريم إذا خرج إلى السوق يقوله؛ وهو قوله: «**بسم الله. اللّهمّ إني أسألك من خير هذه السوق، وخير ما فيها، وأعوذ بك من شرّها وشرّ ما فيها. اللّهم إني أعوذ بك أن أصيبَ فيها يميناً فاجرة، أَو صفقة خاسرة**» دخلت إلى السوق فإذا بجمع من الناس احتشدوا يستمعون إلى أحد القصّاص ويدعى نوحٌ الجامع وكان مفتوناً بكل عجيبة ولا يروي إلاَّ الغرائبَ والمنكرات، ويزعم أنه أعلمُ الناس.. ويسوق حكاياتٍ ملفقةً تضحك الثكلى، ويروي أحاديثَ ليس لها خُطُمٌ ولا أزمّة أكثرها من الموضوعات المختلقة وأهونها من الضعيف غيرِ المنجبر. وكان من مضحكاتِه التي سمعتها منه ذات يوم حديثه عن أشياخه الذين تلقى عنهم، وذَكَرَ منهم الإمام فخر الدين الرازي، ولا أنسى أنني قلت له يومئذ: كيف يكون الرازي شيخَك وبينك وبينه أكثر من ثمانية قرون؟ قال محدثاً الجمهور ومشيراً بأصبعه نحوي: اسمعوا ماذا يقول هذا الأحمق. كأنه ليس في الدنيا إلا (رازيّ) واحدٌ هو صاحبُه. حوّل نظرَه نحوي وقال: ألم تقرأ فيما قرأتَ إن كنت تُحسِنُ القراءةَ أن الرازي نسبة إلى بلاد الريّ؟ قلت: بلى. وينسب إليها أَبو حاتم الرازي المحدِّث، وأَبو بكر محمَّد بن زكريا الرازي الطبيب، والمفسر.. قاطعني وقال: هو ذا صاحبي الذي تلقيتُ عنه، قلت: ولكن صاحبَ التفسير هو نفسه الإمام فخر الدين الذي ذكرتهُ لك وقد مات وأسلافك في أصلاب آبائهم. قال دون حياء: هل لصاحبك تفسير؟ قلت: نعم. إنه مفاتيحُ الغيب. صاح الرجل: الله أكبر فصاحبي غير صاحبك لأن تفسير شيخنا الرازي اسمه (مغاليق الشهادة) قلت له ضاحكاً: وأين نعثر على نسخة منه؟ قال: هذا شي دونه خرط القتاد. أدركت وقتئذ أنني كنت أجادل دعيّاً لا يستحي وكاد يهيّجُ عليّ العامة يومها فانصرفت مخذولاً.

لم أجد نفسي اليوم إلاَّ وأنا في قلب هذا الحشد، يَدْفَعُني الفضول لسماع

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

المزيد من أباطيله.. اقتربت أكثر فأكثر حتى سمعته يقول: حدَّثني الخضرُ وقال لي: يا نوحُ قد أوتيتَ حظاً من المعرفة لم يؤته أحدٌ من قبلك.. إنك تُسْأَلُ فتجيبَ. لم أتمالك نفسي، فقلت له: ما هذه الافتراءات والأكاذيب التي تسمِّم بها عقولَ العامِة. أجاب الرجلُ بكل وقاحة: أفسحوا لحاطبِ الليلِ.. أعمى البصيرة. انفرجت صفوفُ الناس ووجدت نفسي أمامه وجهاً لوجه. بادرني بالكلام قائلاً: أتعلم يا فتى لِم سُمّيت (الجامع)؟ لم ينتظر ردي وأجاب: لأنني جمعتُ من كل ضرب من ضروب المعرفة قدراً لا يبلغ عُشْرَه شيوخُك مجتمعين. قلت في نفسي: حمداً لله أنه قال (مِن) وإلاَّ فإنه يكون قد أعظمَ على الله الفِريةَ. رفع القاصّ عقيرتَه وقال: أيها الناس. ما فتئ هذا الفتى يسفّه علمي، ويستخفّ بمعرفتي. إني سائله أمامكم عن أمور يجيبُ عنها في الحال فإن فعل تركتُ السوق، وإن لم يفعل لا يبرح حتى يؤدّبَ جزاءَ طيشِه ونزقِه. أدركت أن هذا اللعينَ أطبق عليّ. حاولت أن أفلت فلم أستطع. قال: هات أسمعنا ما المراد من هذه الأبيات:

مَن باتفاقِ جميع الخَلْق أفضلُ مِن ... شيخِ الصحابِ أَبي بكر ومِن عُمَر
ومِن علي ومِن عثمان وهو فتى ... من أمةِ المصطفى المختارِ من مُضَر

قلت: لا أعرف. قال:

من كان والدُها ابناً في البنين لها ... وذاك غيرُ عجيبٍ عند ذي نَظَر

قلت: لا أعرف. قال:

مَن الفتاةُ لها زوجان ما برحا ... تزوجتْ ثالثاً حِلٌّ بلا نُكر

قلت: لا أعرف. قال:

وآكل وسط شهر الصوم منفرداً ... عمداً نهاراً ولم يفطر ولم يزر
وآكل فيه ليلاً لم يقل أحدٌ ... بصومِه من سُراة الرأي والأثر

قلت: لا أعرف. قال:

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ثلاثةٌ فَرْجُ أنشى منه ما خَرَجُوا وأوجد الروحَ فيهم خالقُ الصّور

قلت: لا أعرف. قال:

وسارقٍ هَتَك الحرْزَ الحريزَ ولم يقطع بلا شبهةٍ والمالُ ذو خطر

قلت: لا أعرف. قال:

وسَارَ قبرٌ بمن فيه إلى أمدٍ من الزمانِ فلا يُنكر لذي الخبر

قلت: لا أعرف. قال: لقد أبرأت ذِمتي فدونكم الفتى.

هَاجَتْ الدهماء وانقضَّت عليّ دَفْعةً واحدة، ولم أشعر إلاّ وقد انهالت عليّ بالنعال من كل جانب. . كان آخر ما تردد في مسمعي قبل أن يغشى عليّ كلما نوح الجامع: هذا بعضُ مما عندي فلا تعد لمثلها. لم أفق من غشيتي إلاّ بعد أن أهرق عليّ ذَنُوب من الماء.

تحاملت على نفسي وخرجتُ لعلّي أدرك موعدي مع شيخنا العارف عند أَبي عليّ الورّاق.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT
Est. 2012 CE

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

العارِف النَّيْسَابُورِيّ يُجيبُ عَلى أسئلةِ نُوح الجامعِ ويختَبِرُه بلغزٍ فقهيٍّ

اتجهت نحو سوق الورّاقين وأنا أجرّ أذيالَ الخيبةِ، فما وقع لي اليوم هو أشدّ ما قابلتُ في حياتي وأقساه. ولم أجد ما أعلِّل به نفسي غير أبياتٍ حفظتها في صباي:

لـمـاذا تـوالـت عـلـيّ الـنـقَـمْ ... وخـلِّـي عـلـيَّ كـخـصـمـي هَـجـمْ

أجـل أنـا أدري بـسـرّ الألـم ... فـإنـي لـمـوقِـدُ ذاك الـضَّـرَمْ

أأحـطـم أصـنـامَـهـم ثـم لا ... يـثـور الأُلـى يـعـبـدون الـصَّـنَـمْ

أأهـدم أبـيـاتَـهـم ثـم لا ... يـضـجّ الأُلـى بـيـتُـهـم قـد هُـدِمْ

أأسـلـب مـنـهـم غـرورَ الـنـفـوس ... ولا يـرسـلـون عـلـيَّ الـحُـمَـمْ

أأوقـظـهـم مـن سـبـاتٍ حَـلا ... وأحـرمـهـم مـن لـذيـذ الـحُـلـمْ

فـلا غـرو إن حـاربـوا مـوقِـظـاً ... وإن قـابـلـوه بـنـار ودَمْ

وقفت عند دكان أَبي علي الورّاق، وكان واقفاً ببابه. سألني:

ويحك ماذا أصابك؟ قلت: لا تجزع. هديةٌ أهدانيها غوغاءُ السوق لا أذاقك الله مثلها. قال: أهو أنت من... قاطعته: نعم هو أنا.

أَبَلَغَكَ خَبَري قبل أن أصلَ إليك؟ قال: نعم. ألم تعلم أن قَالة السّوء تسري

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

في جنباتِ السوق سريانَ النار في الهشيم؟ هات حدِّثني ما كان من خبرك. قلت: لا تعجل عليَّ وجئني ببعض الماء. دخل أبو عليّ إلى الدكان ولم يمكث طويلاً حتى أَحْضَرَ إبريقاً من الماء وشرع يصبّ عليَّ وأنا أغسل وجهي وأطرافي، وصاحبي أبو عليّ لا يفتأ يعيد على مسامعي أبياتاً من الشعر وكأنه يستخفّ بي:

لا يمتطي المجدَ من لم يركب الخَطَرا ... ولا ينال العُلا من قَدَّم الحَذَرا

ومن أراد العُلا عفواً بلا تعب ... قضى ولم يقضِ من إدراكها وَطَرَا

لا بدّ للشَّهْدِ من نَحْل يمنعه ... لا يجتني النفعَ من لم يحملِ الضَّرَرا

لا يُبْلَغُ السُّؤْلُ إلاّ بعد مؤلمةٍ ... ولا يتمُّ المنى إلاَّ لمن صَبَرا

رفعت عينيَّ نحوه، ولم أجد ما أدفع به استخفافه إلاَّ بيتاً من الشعر يتيماً لمع في ذهني وقتها، وهو:

تقلّدتني الأيام وهي مدبرة ... كأنني صارمٌ في كفّ منهزم

سألت أبا عليّ: ألم يأت أحد للسؤال عنّي؟ أجاب: بلى شيخ لا أعرفه، ما أحسبه من أهل هذا البلد. إنه بداخل الدكان ينتظرك. قلت: ويحك لماذا لم تخبرني منذ وطأت قدماي عتبةَ دكانك؟ قال: لم أشأ أن تلقاه وأنت على هذه الحال. دلفت إلى داخل الدكان، فإذا بشيخنا العارف جالساً يقلّب كتاباً بين يديه. سلّمتُ عليه، وجلستُ بقربه. سألني: عبدَ الله ما الأمر؟ قلت: لا شيء. قال: المعذرة يا بنيّ فقد طرق سمعي ما دار بينكما على كره مني. فلا عليك، هات أخبرني بما جرى. حدَّثت الشيخَ بقصّتي مع نوح الجامع، وكيف هيَّج عليَّ العامةَ، فانهالوا عليَّ ضرباً بالنعال في وسط السوق. قال: لا عليك يا بني ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ قلت: وأيّ خيرٍ ترى فيما جرى؟ أمن الخير أن تسخرَ منّي العامة؟.

قال: قد يحتاج المرءُ من حين إلى آخر إلى ما يكبح جماحَ نفسه كلما عنَّ لها أن تفعلَ ما تُحب. ولو فكرت قليلاً لعلمت أن ما أصابك درسٌ مفيد لا يقدّر بثمن. اعلم يا عبدَ الله أنك أخطأتَ أكثر من مرة.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الأولى: حينما تكلّمتَ وأنت تطلب الغلبةَ لا الحقَّ حتى يقول الناسُ إنك عالمٌ. فاستويت هنا مع نوح القاص. فظهر عليك بما تجهل.

الثانية: حينما قبلتَ أن يكون سائلاً، وأن تكونَ المسؤولَ. وحظ السائل في الغلبة أكبر، لأنه لن يسألك إلاّ فيما يظن أنك تجهله.

والثالثة: حينما جعلت الدهماءَ خصماءَك، وهؤلاء يتكلّمون بلغةٍ أنت تجهلها أَو على الأقل لا تحذقها، ولذلك سُمِّيت بالسوقة، وواحدها السوقيّ نسبة إلىٰ السوق، وما أصابك بعضٌ من لغةِ تلك السوق، حيث لا يجتمع في السوق إلاَّ سقطُ المتاع. وقيل: ما سُمِّيَت الدهماءُ سوقةً إلاّ لانسياقها وراء كل ناعق.

استطرد الشيخُ قائلاً: لا تثريبَ عليك. قم بنا نعود إلى البيت. تركنا دكانَ أَبي علي بعد أن سلّمنا عليه وخرجنا دون أن يكلّمَ أحدُنا صاحبه. ثم توقفتُ فجأةً فسألني الشيخُ: ما الأمرُ؟ قلت: أعرف طريقاً أقرب إلى البيت غير هذه.

ابتسم الشيخُ وقال: أتهزأ بي يا عبدَ الله؟ قلت: حاشا لله أن أفعلَ. قال: إذن أفصِح. قلت: هذه الطريق تفضي إلى وسط السوق حيث يجلس نوحٌ القاصّ. وأكره أن يراني. قال ويحك هل عدتَ تخافه؟ إنك بصنيعك هذا تعترف بهزيمتك أمامه. إذا عجزت اليوم عن ملاقاته فإنك لن تقوى على هذا بعد ذلك. هيا امض بنا نختبر صلابةَ عودِك. انطلقنا فإذا نحن في وسط السوق حيث لم يبرح نوحٌ الجامع مجلسَه بعد وقد التفّ حوله الناسُ يستمعون إلى غرائبه ومناكيرِه، وما وقع بصره عليَّ حتى صاح من بعيد:

كناطحِ صخرةً يوماً ليوهِنَها ... فلم يضرها وأوهى قَرْنَه الوَعلُ

وقال: إن استزدتني يا فتى زدتك. ضغط الشيخُ على يديّ، واقترب من الحشد حتى دنا من القاص، وقال: سلامٌ عليك يا نوحُ. لقد بلغني من خبرك ما حبَّبَ إليّ لقاءك. انفرجت أساريرُ نوح القاص. استطرد الشيخُ يقول: لا عليك من هذا الفتى، فإنَّه بَعْدُ حَدَثٌ لا يعرف قَدْرَك. وما أكثرَ ما تُجْهَل أقدارُ

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الرجال. كاد صاحبُنا يطير من الفرح وكدت أتميّز من الغيظ. نهض نوحٌ القاصُّ من مجلسه وهو يقول: أفسحوا الطريقَ للشيخ الجليل. جلس الشيخُ العارف بجنب نوح القاص، ثم التفتَ إليه قائلاً: يا نوح سألت هذا الفتى عن مسائل. هلا أعدتها على مسمعي. قال: نعم. سألته:

من باتفاقِ جميع الخلق أفضلُ من ... شيخ الصحابِ أَبي بكر ومِنْ عُمَر

ومن عليّ ومن عثمانَ وهو فتى ... من أمة المصطفى المختار من مُضَر

قال الشيخُ العارف: هذا والله أسامة بن زيد. فقد أمّره رسول الله ﷺ على جيش فيه أبو بكر وعمر، ولم ينفذ حتى توفي رسول الله، فبعثه الصدّيقُ إلى الشام وكان الصحابة في ذلك السفر يدعونه أميرَ المؤمنين. وكان عمرُ رضي الله عنه إذا رأى أسامة قال له: السَّلام عليك أيها الأمير. ويجوز أن يكون الجواب: لا أحد إذا كان المراد بـ(مَنْ) استفهام نفي واستنكار. قال نوح: صدقت. وسألته:

من كان والدُها ابناً في البنين لها ... وذاك غير عجيبٍ عند ذي نظر

قال الشيخُ العارف: تلك عائشة أم المؤمنين، وأبوها أَبو بكر، وهو ابن لها لأنه يدخل في جملة المؤمنين. قال القاص: صدقتَ. وسألته:

مَن الفتاة لها زوجانِ ما بَرحَا ... تزوجت ثالثاً حِلٌّ بلا نُكْر

قال الشيخُ العارفُ: هذه امرأة لها عبد وأمة. زوجت أحدهما بالآخر.

فصدق أنها امرأة لها زوجان، وإذا جاءها ثالث حُرٌّ فله نكاحُها. قال القاص: صدقتَ.

وسألته:

وآكلٍ وَسطَ شهرِ الصوم منفرداً ... عمداً نهاراً ولم يفطر ولم يزر

وآكلٍ فيه ليلاً لم يقل أحدٌ ... بصومه من سُرَاة الرأي والأثر

قال الشيخُ العارفُ: لا ضيرَ على الصائم إن أكل نهاراً متعمداً، لأن النهار

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

فرخ القطاة وولد الحبارى. ويأثم صائم رمضان إن أكل فيه ليلاً لأن الليل هنا ولد الكروان والمعنى أنه إذا أكل (ليلاً) في نهار رمضان أفطر.

قال القاص: صدقتَ. وسألتُهُ عن:

ثلاثة فَرْجُ أنثى منه ما خرجوا وأوْجَد الروحَ فيهم خالقُ الصّور

قال الشيخُ العارفُ: هم آدم، وحواء. وناقة صالح. قال القاص: صدقتَ وسألته:

وسارَ قَبْرٌ بمن فيه إلى أمد من الزمانِ فلا يُنْكَر لذي خَبَر

قال الشيخُ العارفُ: هو يونس عليه السلام لما كان في بطن الحوت، قال القاص: صدقتَ. وسألته:

وسارقٍ هتك الحِرْزَ الحريزَ ولم يُقطع بلا شبهةٍ والمالُ ذو خَطَر

قال الشيخُ العارفُ: هو الصبيّ والمجنون والحربيّ. قال القاصّ: صدقتَ.

قال الشيخُ العارفُ: هذا جواب أسئلتك. فأجب عن سؤالي:

أيها العالِمُ الفقيهُ الذي فاقَ ذكاء فمَا لَهُ من شبيهِ
أفتِنا في قضيةٍ حاد عنها كلّ قاضٍ وحَار كلُّ فقيهِ
رجلٌ ماتَ عن أخٍ مسلمٍ حرّ تقيّ من أُمِّهِ وأبيهِ
وله زوجةٌ لها أَيُّها الحَبْرُ أخٌ خالصٌ بلا تمويهِ
فَحَوَتْ فَرْضَها وحَاز أخوها ما تبقَّى من الإرثِ دون أخيهِ
فاشْفِنَا بالجَوَابِ عمّا سَألنا فهو نَصٌّ لا خُلْفَ يُوجَدُ فيه

صمت نوحٌ الجامع. ووضع يديه على جبهته، ثم قال وقد تمعّر وجهُه:

أمهلني بعضَ الوقت أيها الشيخُ. قال الشيخُ العارف: لا بأس. أمهلك ثلاثة أيام. أيكفيك هذا؟ قال نوحٌ القاص: نعم.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

نهض الشيخُ العارف وسلّم على الناس مودّعاً ثم انصرف. . اقترب مني ووضع ذراعَه على كتفي، وسرنا معاً وأحسستُ بنشوةِ الانتصار على نوحِ الجامع حتى إِنني نسيتُ ما كان منه معي هذا الصباح.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الإعْجَابُ بالنّفْسِ واتّبَاعُ الهَوَى

خرجنا من السوق تاركين نوحاً القاصَّ وراءنا وقد أخذ الحشدُ المجتمعُ حوله ينفضّ. بعث ذلك في نفسي الغبطةَ فقد ثأر لي الشيخُ العارفُ من ذلك الدّعيّ، ولو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ لعدتُ إليه لأُسمِعَه بعضاً من جنسِ ما أسمَعني، ولأضْحَكَ ملءَ فِيَّ لمرآهُ وهو يتفصّد عرقاً أمام دهماء السوق وكان قبل حين منتفخاً كالطاووس. اتجهنا صوبَ داري وكانت تبعد نحو ساعةٍ سيراً على الأقدام وكنت أقطعها على ظهر الدابة في أقلّ من هذا الوقت بكثير.

ما زال يؤلمني ما وقع على ظهري من نعالِ العامة، غير أن وجودي بقرب شيخنا العارف أنْساني ما أصابني، وقلت في خاطري مهوّناً على نفسي ما أَلَمَّ بها من خطب:

أقول لها وقد جَشَأتْ وجاشَت رويدك تُحْمَدي أَو تستريحي

نظر الشيخُ إليّ وهو يربّت على كتفي في حنوٍّ كما الأم تهدهد وليدَها وأنشأ يقول:

يهُون علينا أن تُصاب جسومُنا وتسلَمَ أعراضٌ لنا وعقولُ

أثلجَ كلامُه صدري ووقَعَ في نفسي عذباً زلالاً وقوعَ الماءِ في فم الظمآن عند الهاجرةِ ثم استطرد الشيخُ يقول:

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

يا عبدَ الله تَعلّم كيف تَصْفَح، وتعفو ولا تنسَ قولَه تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: الآية 13]. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحِجر: الآية 85] وقوله تعالى: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزّخرُف: الآية 89].

قلتُ: ولكن ألم يقل الباري جلّ وعلا: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البَقَرة: الآية 194]؟ قال: بلى والأصلُ ردّ العدوانِ. وذلك هو العَدل. والعفو زيادة يتفضّل بها القادر وهو المتّقي. وفي هذا يتفاوت الناس. ألم تقرأ يا عبد الله قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: 40] وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البَقَرة: الآية 237]؟ يا عبدَ الله ألم يبلغك قولُ المصطفى ﷺ: «**المسلمُ الذي يخالط الناسَ، ويصبر على أذاهم أفضلُ من الذي لا يخالطهم ولا يصْبِر على أذاهم؟**» وقد رُوِي عن أبي هريرة أن رجلاً شتم أبا بكر والنبيّ ﷺ جالسٌ يتعجّب ويتبسم. فلما أكثر ردّ عليه بعضَ قوله، فغضب النبيُّ ﷺ، وقام. فَلَحِقه أبو بكر، وقال: يا رسولَ الله كان يشتمني وأنت جالسٌ. فلما رددتُ عليه بعضَ قوله غضبتَ وقمتَ. قال: كان معكَ مَلَكٌ يردّ عليه فلمّا رددت عليه وقع الشيطان، ثم قال: يا أبا بكر ثلاث كلهن حقّ: ما من عبدٍ ظُلِم بمظلمةٍ فيغضي عنها لله عزّ وجل إلاّ أعزَّ الله بها نَصرَه، وما فتح رجلٌ بابَ عطِيةٍ يريد بها صلةً إلاّ زاد الله بها كثرةً، وما فتح رجلٌ بابَ مسألةٍ يريد بها كثرةً إلاّ زاد الله بها قلة».

يا عبدَ الله لقد قادَك العُجْبُ بنفسِكَ إلى ما تكره فسلّمتَ إليه قيادَك طائعاً غير مُكْرهٍ حيث ظننتَ أنّك بلغتَ من العلم ما تنالُ به أربَك، فساقتك قدماك إلى موطنٍ من مواطنِ الكِبْر والإعجابِ بالنفسِ، وهو إظهارُ العلمِ والتعاظم به أمام أعين العامّة وهذا هو التعالم.

العُجْبُ يا عَبدَ الله يدعو إلى نِسيان الذنوب وإهمالها، ويجعل صاحبَهُ يستعظم عبادَته وأعماله فيتبجّح بها وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق. ومن أشدّ آفاتِ العُجْبِ وأفتكِها بأهلِ المعرفةِ استحسانُ الرأي المخطئ، والميلُ إلى

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الخاطِر الفاسدِ لا لشيء إلاَّ لأنّهما من بناتِ أفكارهم وصَنْعَةِ عقولهم. ولا خلاصَ من ذلك إلاَّ بالاستهداء بنورِ القرآن، ومدارسةِ العلمِ، ومساءلةِ العلماء.

قلتُ: وما علاجُ العُجْب؟ قال: ما ذكرتُ لك بعضٌ من علاجِه. ولكن إن طلبتَ المزيد فاعلم أن لكلِّ داءٍ علةً، وأوّلُ علاجِ الدّاء معرفةُ سبَبِه. وأكثرُ ما تُعَالَج عِللُ النفسِ بأضدادِها، وعلةُ العُجْبِ يا عبدَ الله الجهلُ المحضُ. وهذا من جميلِ قولِ صاحبِ (الإحياء) ودقيقِ فهْمِه، وعلاجُه بالمعرفةِ المضادّةِ لذلك الجهل. قد يشقّ عليك فهمُ ذلك للوهلةِ الأولى ولكن لو تأملتَ قليلاً لأدركتَ صحة هذا المذهب. فالمعْجَبُ بعقلِه، التيّاه بعلمِه يجهلُ أن عقلَه معقولٌ بأصفادِ الحيرةِ والشكِّ، وأن علمَه إذا قِيس بجهله غَلَبَ علمَه جَهْلُهُ، ولولا رحمةُ ربِّه به ما فُكّ عنه قيدٌ، ولا رُفِعَت عنه حُجُبٌ.

العُجْبُ يا عبدَ الله من المهْلِكات الثلاث، قلتُ: وما هُنَّ؟ قال: رَوى أَبو هريرة أن رسولَ الله ﷺ قال: «**ثلاثٌ منجياتٌ، وثلاثٌ مهلكاتٌ. فَأَمّا المنجياتُ: فتقوى الله في السِّرِّ والعلانيةِ، والقولُ بالحق في الرِّضَى والسّخط، والقصْدُ في الغنى والفقر. وأما المهلكاتُ: فهوًى متَّبَعٌ، وشحٌّ مطاعٌ، وإعجابُ المرءِ بنفسِه وهي أشدّهُن**» ألا ترى أن العجْبَ منفذ إبليسَ إلىٰ قلبِ العبدِ المؤمنِ؟ وبهذه العلة انهزم المسلمونَ يوم حُنين حتى نزل الوحي معاتباً لهم ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: الآية 25].

يا عبدَ الله اخْلع من قلبك ما كان من يومك هذا، ولا تَعُد لذِكْرِه فإن ذكرَ الإساءة أبَدَ الدّهرِ مقتلةٌ، والتفكّر بنصائعِ العبادِ مشغلة، وإذا حدَّثتك نفسُك بشيءٍ من هذا فأنشد مع الشاعر قوله:

إذا جَرَحَتْ مساويهم فؤادي ... صَبرتُ على الإساءة وانطويتُ

وجئتُ إليهم طَلْقَ المحيَّا ... كأني لا سَمِعْتُ ولا رأيتُ

طَفَرتْ من عيني دمعةٌ حَبَسْتُها حياءً، وطفقتُ أقول للشيخ:

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

جازاك الله عني خير الجزاء. لقد أرحْت فؤادي وطيّبتَ خاطِري. ولكن بالله عليك أليسَ عجيباً ما جرى اليوم؟

ابتسم الشيخ وقال:

كن حليماً إذا بُليتَ بغيظٍ وصبوراً إذا أتَتْكَ مصيبة
فالليالي من الزمانِ حُبَالَى مُثْقَلاتٌ يَلِدْنَ كلَّ عجيبة

يا عبدَ الله.. الحمدُ لله الذي كَسَرَ شهوةَ المعصية بذلِّ الطاعة، وجعلَ مقاماتِ الأخيار في مخالفةِ الأغيار، ورفع مكانةَ العابدينَ على قَدْرِ اجتهادِهم في فِعْلِ الطاعات واجتنابِ الشهوات. ألا حُفّتْ الجنَّة ـ عبد الله ـ بالمكارِه، وحُفَّتْ النّارُ بالشّهوات.

يا عبد الله، دعْ عنك شهوةَ الكلام، إلاَّ أن تكونَ سائِلاً، أَو شاهداً على حقّ، أو معلّماً يختلف إليه الطلاّبُ. واعلم أنّه ما جانبَ الصدقَ من قال:

أرى خَلَلَ الرَّمادِ وميضَ جَمْرٍ ويوشكُ أن يكونَ لِها ضِرامُ
فإنَّ النَّارَ بالزندين تُورى وأن الحرْبَ أولُها الكَلاَمُ

قلتُ: حسناً سأعمل بنصْحك فهاتِ أخبرني جوابَ السؤال الذي طرحته على نوح القاصّ.

التفتَ إليّ مبتسماً وقال:

ليس قبل أن تجيبَ على هذا اللغز:

ولي خالةٌ وأنا خَالُها ولي عَمَّةٌ وأنا عمُّها
فأما التي أنا عَمٌّ لها فإنّ أبي أُمُّهُ أُمُّها
أبوها أخي وأَخُوهَا أبي ولي خالَةٌ هكذا حُكْمُها

قلتُ في نفسي: لقد أبْعدَ شيخُنا ـ والله ـ النُّجْعَةَ.

صمتَ الشيخُ وانطلقنا نحْوَ الدار لا يكلّم أحدُنا الآخرَ وكأنّ على رؤوسِنا الطير.. لم يمضِ ذلك طويلاً حتى سمعتُ الشيخَ ينشِد مبتهلاً:

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ألا أيها المقْصُودُ في كلِّ حاجَةٍ ... شكوتُ إليك الضرَّ فارْحَم شكايَتي

ألا يا رجائي أنت تَكْشِف كربَتي ... فَهَبْ لي ذنوبي كلَّها واقضِ حاجَتي

أتيتُ بأعمالٍ قِبَاحٍ رديئةٍ ... وما في الورى عَبْدٌ جَنَى كَجِنايَتي

أتحْرِقُني بالنّارِ يا غايةَ المنَى ... فأينَ رَجَائي ثم أينَ مَخَافَتي

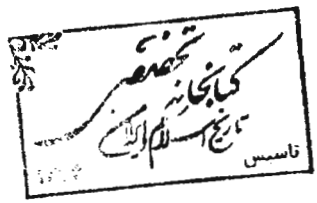

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT
Est. 2012 CE

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

فَسَادُ قَوْلِ صَاحِبِ «فُصُوصِ الحِكَمِ»: إنَّ فرعونَ مات مؤمناً

اعترضت طريقنا عريشةٌ لإسكافي فجلسنا تحتها ريثما نلتقط أنفاسنا المتلاحقة. لم أكن فيما مضى أفكّر في الجلوس تحتها، ربما لأنني لم أشعر وقتئذ بمثل ما أشعر به اليوم من الإعياء لفرط ما أصابني من نعال العامَّة أو ربما لما أعرفه من سوء خُلق صاحبها.

لم يكن الإسكافيُّ موجوداً، وهذا من حسن حظنا. لقد كان من أقماع السوء لا يستقر في فيه ما يسقط في أذنه، وكان أعلمَ سمرقند بما يدور في أزقّتها أو يجري وراء جدرانها لكثرة جلسائه الذين يتعللون بترقيع نعالهم عنده، وأكثرهم مما بلوا بإشاعة أخبار الناس عامتهم وخاصتهم. وكثيراً ما تسبَّب صاحبُنا في الوقيعة بين الأهلِ والأصحاب لجريه بالغيبة والنميمة بينهم حتى نُبذ بالعراء خارج أسوار المدينة حيث نصب هذه العريشة يتصيّد بها من لم يُبْلَ بخبره.. تذكرت قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحُجرَات: الآية 12] وهو قول لم أقف في حياتي قطّ على وصف لخلق أبشع منه. ولو علم النمّام سوءَ عاقبته لجلس يبكي على حاله أبد الدهر حتى تبيضّ عيناه. وما زلت أذكر قول المصطفى ﷺ: **«لا تؤذوا المسلمين ولا تُعيّروهم، ولا تتّبعوا عوراتِهم. فإنَّه من يتبع عورةَ أخيه المسلم يتبع الله عورتَهُ ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رَحْلِه»**، وقوله ﷺ: **«لا**

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

يدخل الجنَّة نمّام»، وقوله ﷺ: **«إن الرجل ليقذف بالكلمة لا يلقي لها بالاً يهوِي بها في جهنم سبعين خريفاً»**.

التفتُّ إلى الشيخ العارف، وقلتُ له: «بالله عليك يا سيدي ألا أجبتني عن الألغاز التي سقتَها اليوم فما لي بمعرفتها علم ولا عن إرجاء حَلِّها صبرٌ. قال: لا بأس عليك. اسمع: الرجل الذي مات عن زوجة وأخ شقيق فورثت الزوجة الثمنَ وحاز أخوها الغريب باقي التركة وحرم شقيقه لغير علةٍ في الظاهر، هو رجلٌ تزوج امرأة وزوج ابنه الذي هو من غيرها بحماته أم زوجه الوارثة. فأنجبت الحماة ولداً ومات أبوه، فيكون هذا الولد أخاً لزوجة الرجل المتوفى وهو في الوقت نفسه ابن ابنه. فترث الزوجة الثمن لوجود فرع وارث وهو ابن الابن ويرث هذا الحفيد الباقي لأنه في حكم الابن جرياً على قاعدة (وابن الابن وإن نزل). وهذه علة توريثه لا لأنه أخ الزوجة فتمعن وتدبّر. قلت: وماذا عن اللغز الثاني؟ قال: أتركه لفطنتك فلا تعجل. نهض الشيخ ونهضت في أثره وانطلقنا حتى بلغنا الدار. جلستُ متهالكاً. نظر إليّ الشيخُ في إشفاق وابتسم قائلاً: لن تبلغ المجدَ حتى تلعقَ الصبرا.

قلت: وهل تظن أنني ممن يجدّون في طلبه؟ قال: أحسب ذلك.

قلت: إذن هات أكمل لي ما شرعت في الحديث عنه البارحة، فقد وعدت أن تحدّثني عن بعض آراء منتسبي الطريقة وما يخالطها من خرافات وأوهام.

قال: يزعم بعض هؤلاء أن فرعون مات مؤمناً لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يونس: الآية 90] قلت: ومن يقول بمثل هذه المقالة الفاسدة؟ أجاب: أغلب الظن أن أول من قال ذلك ابن عربي في فصوص الحكم وعلى وجه التحديد في (فص حكمة موسوية) حيث ذهب إلى أن فرعون قبض عند الغرق طاهراً مطهراً، ليس فيه شيء من الخبث لأن الله تعالى قبضه عند إيمانه. قبل أن يكتسبَ شيئاً من الآثام والإسلام يجبُّ ما قبله.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

قلت: أذكر يا سيدي أن للشيخ جلال الدين الدواني رسالة تعدّ من غرائب المصنّفات بعنوان (إيمان فرعون). قال: نعم. وقد تمحّل فيها الأدلة على صحة ما ذهب إليه ابن عربي، وقد تصدَّى لها بالرد العلاَّمة علي بن سلطان القاري في رسالة له طريفة تحمل عنواناً لطيفاً هو (فرّ العون من مدعي إيمان فرعون) فاطلبها يا عبد الله فقد تجد فيها ما تطلبه في غيرها فلا تجده لاستيعابها وسَوْق صاحبها الأدلة القاطعةَ على فساد هذا الزعم. وقد أنكر بعضُ محبي ابن عربي نسبة هذه المقالة إليه وعدَّها مدسوسة عليه لمخالفتها ما جاء في كتابه (الفتوحات المكية) حيث ورد في الباب الثاني والستين من أن المجرمين أربع طوائف كلها في النار لا يخرجون منها، وذكر منهم المتكبرين على الله كفرعون وأمثاله ممن ادعى الربوبيةَ لنفسه كالنمرود وغيره. والعجيب أن واحداً من المتأخرين من علماء هذا العصر ممن عُنوا بابن عربي وتآليفه ويدعى أبا العلا عفيفي يؤول ما ذهب إليه ابن عربي في تعليقاته على الفصوص بقوله: «وهو هنا يرمز بفرعون إلى النفس الإنسانية الشهوانية ممثلة في أقوى صورها. فإن فرعون كان مثالاً للعصيان والكفر والطغيان والادعاء والكبرياء، ولكنه مع ذلك يمثِّل في نظر ابن عربي وفي نظر الحلاج قبله دور الفتوة والبطولة، لأنه لم يفعل ما فعل في نظرهما إلاَّ تلبية للأمر الإلهي التكويني الذي يخضع له كل ما في الوجود وإن خالف لمعصيته الأمر التكليفي. فهي طاعة في صورة معصية، ونجاة في صورة هلاك.

قلتُ: وما قولُك في كل هذا؟ قال: بسم الله الرحمن الرحيم. اللَّهم إن كان صواباً فمن عندك وبتوفيقك، وإن كان خطأ فمن عندي وبجرأتي. اعلم يا عبد الله أنني إذ أتكلم عن عقيدة ما فإنني أتحدَّث عنها بصرف النظر عن القائلين بها، فإذا حكمت بفسادها وخطلها فلا يعني ذلك البتة التعدي على من تورط فيها بالتجريح وهذا ما أكره أن ألقى الله عليه.

إن دعوى موت فرعون مؤمناً دعوى فاسدة يكذبها القرآن والسُّنَّة وإجماع علماء الأمة غير ابن عربي ونفر قليل لا يؤبه له.

فأما القرآن الكريم فقوله تعالى رداً على قول فرعون إنه آمن بالله: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: الآية 10] والاستفهام هنا استنكاري. والمعنى: الآن فقط تفكر في الإيمان بالله بعد فوات الأوان! ويؤيد هذا ما جاء في الآية التي بعدها وهي قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس: الآية 92] فوجب أن يعتبر به من خلفه، ولو مات مؤمناً لما كان عبرة لغيره بإهلاكه وإغراقه وكذلك قوله تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ * يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود: الآيتان 97 و98] فهنا أخبر سبحانه وتعالى أن فرعون يقدم قومه يوم القيامة ولم يقل يسوقهم وأنه أوردهم النار، ومعلوم أن المتقدم إذا أورد المتأخّر النار كان هو أولَ من يردها وإلاّ لم يكن قادماً بل كان سائقاً.

وكذلك قولُه تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: 39 ـ 41] فهذه الآيات ـ على رأي الملاّ علي القاري ـ لو لم يكن غيرها في القرآن لكفت في الدلالة والبرهان على كفر فرعون المقرون بالطغيان، إذ لم يفرّق بينه وبين جنوده حيث قال: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الذاريات: الآية 40] ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: الآية 46] وفرعون واحد من آله فيحق فيه ما يحقّ فيهم. ولا معنى لقول الجلال الدواني إن قوله تعالى: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: الآية 46] لا دلالة فيه لدخوله النار فإن المضاف غير المضاف إليه وذلك؛ مثل قولك ضربك غلامَ زيد، فهو يدل على أن زيداً غير مضروب. وهذا من التمثيل الفاسد. ألا ترى أن قولك (آل فلان) يدخل فيه ذلك الشخص. ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: الآية 34] حيث لا يعقل أن ينجو آل لوط وتحيق اللعنة بلوط.

وأما دليل فساد هذه الدعوى من السُّنَّة فقوله ﷺ عند مقتل أبي جهل: «**هذا فرعون هذه الأمة**» فضرب النبي ﷺ المثل في رأس الكفار المكذبين له

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

برأس الكفار المكذبين لموسى، وهذا يبيِّن أنَّه في غاية الكفر فكيف يكون مات مؤمناً ومعلوم أن من مات مؤمناً لا يجوز أن يوسم بالكفر. وأما إجماع الأمة على موت فرعون كافراً فلا نعرف أحداً خرقه إلاَّ ابن عربي وشراح فصوصه.

التفتَ الشيخُ نحوي وقال: حسبك هذا اليوم، وسأحدّثك فيما بعد عن عقائد أخرى فاسدة تورط فيها بعض المتصوفة. هذا إذا كان في العمر بقية. خرج الشيخ وتركني أفكر فيما قال وأنا أعجب كيف لرجل كابن عربي يقع في مثل هذا! ولكن ألم يأت في المثل السائر: لكل جواد كبوة...

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT
Est. 2012 CE

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

منزلَةُ القُرْبِ مِنَ اللّهِ

ارتفع منادي الحق (الله أكبر) مؤذّناً بدخول وقت صلاة العصر. مدّ الشيخ العارف يده إلى كوز صغير في ركن الدار فلم يجد فيه ماءً للوضوء، تحاملت على نفسي ووقفت، سألني: إلى أين؟ قلتُ: أحضر ماءً للوضوء. قال: لا عليك. أخبرني أين أجده وسأحضره بنفسي، قلت: هناك جرة كبيرةٌ تحت شجرة الكستناء بباحة الدار.

خرج الشيخ وعاد مبتسماً وهو يقول: هذا آخر كوز في الجرّة. هيا يا بنيّ لأصبّ عليك، ولنقتصد.

توضأنا ووقفتُ إلى يمين الشيخ مأموماً نظر إليّ وقال: لا تنسَ يا عبدَ الله أنّك تقف بين يدي ربّ العزّة فأحسِن وقوفَك بين يديه، واستشعر جلالَ المقام الذي أنت فيه، وصلِّ صلاةَ مودِّع إذ لا يدري المرء هل سيدرك غيرها أمْ يُقْبَض دونها، وأخلص النيةَ، وتوجه إلىٰ الله بملءِ قلبك حتى يخالطك شعورٌ أنّه قد استحوذت محبّتُه وعظمتُه على فؤادك فلا تجد فيه موضعاً لغيره، واجتهد في الدعاء فإن (الدعاءَ هو العبادة) كما جاء في حديث النعمان بن بشير عن خاتم المرسلين.

انقضت الصلاة، وخامرني شعورٌ أنني لم أكن أصلي قبل اليوم حيث لم

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أذق ما ذقته اليوم من لذة القرب فأدركت معنى حديث المصطفى: «**رُبَّ صائمٍ ليس له من صيامه إلاَّ الجوع، ورُبَّ قائمٍ ليس له من قيامه إلاَّ السهر**».

قلت: هات حدِّثني يا سيدي عن القرب. قال: القُربُ ضد البُعْد فلما كان البُعْدُ إرخاءَ الستر ونَصْبَ الحواجز بين نية القاصد وحقيقة المقصود، فإن القربَ يا عبدَ الله كشفُ الحُجُب وهتكُ السّترِ، وذلك لا يتحقَّق إلاَّ بالتذلّلِ والخضوع والرّجاء، ثم طفق ينشد:

لولا التعلّق بالرجاءِ تقطعت ... نفس المحبِّ تحسراً وتمزقا
وكذاك لولا بردُه بحرارةِ الـ ... أكبادِ ذابت بالحجاب تحرُّقا
أيكون قط حليف حبٍّ لا يرى ... برجائه لحبيبه متعلّقا
أم كلّما قويَت محبتُه له ... قوِي الرجاءُ فزاد فيه تشوّقا
لولا الرجا يحدو المطيَّ لما سرت ... بحمولها لديارِهم ترجو اللّقا

ثم قال:

واعلم يا عبدَ الله أن أقربَ ما يكون العبدُ من ربّه وهو ساجد ففي السجود تتحقَّق أعلى درجات العبودية ألا وهي القرب، وإذا أردت أن تعرفَ مبلغَ ذلك من الصدق فتأمّل قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ [العَلق: الآية 19].

قلت: إذا كان هذا هو القربُ، فما علامتُه؟ أغمَضَ عينيه وراح في تفكيرٍ عميق، ثم قال:

علامتُه أن تطفرَ عيناك بالدمع، وتهتزّ جوانحك من شدةِ الوجد، ويتزايد خفقانُ قلبِك، ثم لا تلبث أن تعتريك سكينةٌ فتغيب عن ذاتِك في ذاتِك. وهذا ليس كقولِ من يقول بالفناء في المحبوب والاتحاد به حيث تغيب ذاتُك في ذاته وتلك مقالةٌ فاسدةٌ

يا عبدَ الله معرفةُ القرب على حقيقته أولى من الظفر بأمارَاته لأن أمَارَة الشيء وعلامتَه لا تفضي بالضرورة إلى ماهيته، وإذا تبينتَ ذلك فاعلم أن القربَ

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

من الله أنس، والبعد عنه وحشة، والقريب من الله أنِسٌ به والبعيدُ عنه مستوحِشٌ بغيره، ألا رحم الله القائلَ:

إذا صار قلب العبدِ للسرِّ معدناً تلوح على أعطافِه بهجةُ السَّنا

وإن فاته المعنى عَلَته كآبةٌ فأصبح في أفعاله متلوِّنا

استأذن الشيخُ وهمَّ بالخروج، فقلت له: إلى أين؟ قال: ألتمس ماءً وطعاماً قبل أن يحلّ الغروب. دسست يدي في جيبي وأخرجت نصفَ دينار، وقلت: خذ هذا لعلك تستعين به على ذلك. قال مبتسماً: احتفظ به فأنت الليلةَ ضيفي في دارك وتلك ضيافة الغرباء إلاَّ إذا أحببتَ أن تقيمَ ليلتك معي في الخان.

قلت مبتهجاً: ليس ثمة شيءٌ أحبّ إلي من أن تبيتَ معي هذه الليلة في داري. انطلق الشيخُ، ووقفتُ عند باب الدار أرقبُ ذهابَه. تذكرت أمراً فصحت بالشيخ: سَل عن محمود السقاء فهو المتكفِّلُ بإحضارِ الماء إلى هنا. قبل أن يغيب عن بصري رأيتُه ينحني إلى الأرض ويلتقط شيئاً ويمسحه بطرفِ ردائِه ثم يدسه في كمّه، ومضى حتى غابَ عن ناظري.

دخلتُ إلى الدار، واستلقيتُ على ظهري ولشدة إعيائي رحتُ أغطّ في نومٍ عميقٍ لم أفق منه إلاَّ على طرقاتٍ على الباب، نهضتُ وفتحتُ البابَ فإذا هو شيخنا العارف. كان يحملُ على ظهره قربةً كبيرةً من الماء وفي يمناه صرةٌ ويسراه مضمومة إلى صدره كأنه يحمي بها شيئاً ما. سألني أين يضع الماءَ فأشرت إلى الجرّة، فتحرّك نحوها وأفرغ فيها ما في القِربة ثم دخل. كان رداؤه مبتلاً بالماء. لقد شقّ عليَّ أن أراه هكذا. التفتَ إليَّ وقال: يا عبدَ الله أحضرتُ إليك معي ضيفاً آخرَ أرجو ألا يضيقَ صَدرُك به. قلت: أين هو؟ دسَّ الشيخ يدَه في كمِّه وأخرج منه قُبّرة صغيرة. ضحكتُ وقلت: ما هذا؟ قال: وجدتُها ملقاة أمام دارك وهي ترتعش برداً فخفت أن تهلكَ فدسستها في كمي. هل أجد عندك بعض الحَب؟

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

قلتُ: كلا. ولكن قد أجد بعضَ الخبز اليابس. قال: لا بأسَ به. أطلق الشيخُ القُبّرةَ داخل الغرفة ولكنها آثرَت أن تلتصقَ به. نزع رداءَه المبتل، أخذته من بين يديه وعلقتُه على مسمارٍ كان مضروباً في الحائط. كان الشفقُ يضرب بحمرتِه في الأفق لم يمضِ من الوقتِ طويلاً حتى أُذِنَ للمغرب.

أقمتُ الصلاةَ وهذا يعني أنني قدمته إماماً، وأنا أعلم أنه لا يؤم الرجل في أهله أو سلطانه إلاّ بإذنه. وقد أذِنتُ. قرأ الشيخُ في الآية الأولى بصوته الرخيم بعد سورة الفاتحة قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: الآية 35]، وقرأ في الثانية بعد الفاتحة قوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا * وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: الآيات 26 ـ 29].

بعد أن أنهى الشيخُ الركعةَ الثالثةَ سلَّم ونهضَ فصلَّى ركعتين أخريين خفيفتين. ثم التفتَ إلى الصرّة التي كان يحملها وفتَحها وطرح ما فيها من طعام. لم يكن أكثرَ من خبزٍ وزيتون وقطعةِ جبنٍ وثلاثِ تفاحات. نظر إلي وقال: رزقٌ من الله نستعين به على عبادته. هيا سَمِّ الله وكُلْ. قلتُ: لمن التفاحةُ الثالثة؟ قال: لعابرٍ قد يطرق بابكَ مثلي. فإن لم تُكْتَب له فهي لك غداً تتقوى بها على طاعةِ الله ومرضاته. قلت في خاطري: لله ما أعجبَ أمرَ هذا الشيخ وأحسنه! كل يوم أزداد به تعلقاً حتى كأنني أعرفُه منذ أمدٍ بعيد. أليس هذا تفسيرَ قول المصطفى **«الأرواح جنودٌ مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تنافر منها اختلف؟»** طارت القبّرةُ وحطّت على كتفِ الشيخِ ولعلها أحست بالأنسِ نحوه مثلي.

قلت للشيخ: قرأتَ في الصلاة آية النور، وهي آية شق عليّ فهمها فهل لك بتأويلها علم؟ قال: بل شقّ فهمها على مَنْ هم أعلمُ منك وأعرف فلا تنزعج، حتى إن أبا حامد حجة الإسلام أفرد لها مصنفاً مستقلاً هو (مشكاة

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الأنوار)، وأحسب أن أحسنَ من تكلم عنها بعد الغزالي الإمام الفخر الرازي في تفسيره وابن القيّم في (اجتماع الجيوش الإسلامية). بعد صلاة العشاء أحدّثك عنها إن شاء الله فلا تعجل.

طارت القُبَّرةُ في أرجاء الغرفة ثم عادت لتحطّ فوق كَتفِ الشيخ من جديد. قلتُ في نفسي:

وكَـــم لله مـــن لـــطـــفٍ خَـــفِـــيّ يَـدق مـعـنـاهُ عـن فَـهْـمِ الـذكـيّ

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT
Est. 2012 CE

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

العَارِفُ النّيْسَابُورِيُّ يفسِّرُ لعبدِ الله المحجوب

قَوْلَه تَعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: الآية 35]

بُعَيْدَ صلاةِ العِشاء، وعلى ضوءٍ خافتٍ هزيلٍ ينبعثُ من مِصباحٍ قديم مُثبَّت على الحائطِ في ركنِ الدَّار، أعددتُ بعضَ الشاي وقدمتُه للشيخ، الذي كان يُحدّق من خلال النافذةِ في السماءِ وقد اكتَنَفَتْها ظلمةٌ شديدةٌ حتى لا يكاد يُرَى فيها أثرٌ لنجم.

التفتَ الشيخُ نحوي وقال:

سألتَني يا عبد الله عن معنى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ﴾ [النور: 35].

فاعلم يا بنيَّ أن هذه الآية الكريمة وتعرف بآية النور قد استشكل معناها على الكثيرين فلا ضيْرَ عليك إن فاتك معناها ولم تهتد إلى سرّها.

وللغزالي كما أخبرتك مصنفٌ مستقل في بيانِ أسرارِها هو (مشكاة الأنوار) فاطلبه لعلك تجد فيه سؤلَك وإن كنت أحسبُ أنه يشقّ عليك فهمه لخوضه في مسائل قد تزيد من حيرتك، وإن أبيت إلاّ النظر فيه فأنصحك أن تتملى فيما كتبه الفخر الرازي في (مفاتيح الغيب) ففيه عرضٌ نافع لمجملِ قولِ

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أَبي حامد، ونقدٌ لطيف لبعض آرائه من قبيل قوله إن الله نورٌ في الحقيقة وإطلاق النور على غيره من المجاز.

وأحسنُ ما وقفتُ عليه في تفسير هذه الآية كلامٌ نافع لعمدة المحققين ابن القيم في أول كتابه (الوابل الصيّب من الكلم الطيب) عند كلامه عن فوائد الذكر وفي كتابه (اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية) حتى إنَّ القاسميَّ استحسنَه فساقه بتمامِه عن التعرض لهذه الآية، في تفسيره (محاسِن التأويل) قلتُ للشيخ مقاطعاً: أذكر أني رأيت لابن القيم في دكانِ أَبي علي الخازن كتاباً بعنوان (التفسير القيم لابن القيم) فهل تراني واقفاً على كلامه فيه؟ قال: لا نعرف لابن القيم تفسيراً، وهذا الذي ذكرتَ هو مجموعٌ يضمّ تفسيراتِه لآي القرآن المتناثرة في ثنايا كتبه الأخرى قام بجمعها فاضلٌ من أعلام الهند هو الشيخ محمَّد أويس من علماء دار النّدْوة وإليها يُنْسَب فيقال محمَّد أويس الندويّ، وكلام ابن القيّم الذي ذكرته لك تجده بتمامه فيه إن شاء الله.

قلت: هات إذن حدِّثني عن تفسير هذه الآية.

صمتَ الشيخُ قليلاً ثم قال: بسم الله الرحمن الرحيم، اعلم يا عبد الله أن أغلب المفسِّرين على تأويل لفظةِ النورِ في الآية تنزيهاً لله عن الجسمية لأن النورَ موضوعٌ في اللغة لهذه الكيفية الفائضةِ من الشمس والقمرِ والنّار على الأرض والجدران وهذه يستحيل أن تكون إلهاً، والنورُ على هذا إما جسمٌ أو حال في الجسم وعلى الأوّل فهو حادثٌ وعلى الثاني فهو محدود يقع في متحيِّز وعلى ذلك فالنورُ بهذا المعنى مخلوق، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: الآية 1] فلا مخرج هنا إلاَّ بأحد أمرين: إما بالإثباتِ بلا كيف أَو بالتأويل، وعلى الأول يكون النورُ من أسمائه الحُسنى التي سمَّى نفسَه بها وعلى الثاني تؤوّل لفظةُ النورِ فيكون المراد منها في الآية (الهداية) فالله نورُ السماوات والأرض أي هدايته، وذلك نظير قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البَقَرَة: الآية 257] ومعنى ذلك أنه يهديهم إلى الحق وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشّورى: الآية 52].

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وذهب فريقٌ من أهل العلم إلى أن قولَه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النُّور: الآية 35] أي ذو نور السماوات والأرض، والمراد أن الله هو صاحبُ الهدايةِ التي يهتدي بها أهلُ السماوات والأرض. وقيل إن المراد بنور السماواتِ والأرض أي مدبّرها كما يقال في رئيسِ البلدِ نورُ البلدِ. وقيل المراد أنه مُنَوِّر السماوات بالملائكة والأرض بالأنبياء، والأقرب عندنا أن المرادَ بالنور الهداية ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزُّمَر: الآية 69] أي أشرقت بنور هدايته ولا يمكن أن يكون المراد هنا الضياء الذي يضيء الأرض فهو يسقط عليها من الشمس وهي كما أثبت علماء عصرنا كتلة من الغازات الملتهبة التي يتولّد عنها طاقة حرارية هائلة تسقط على الأرض في صورة ضياء لبُعد المسافة بينهما، وإذا تبين لك ذلك يا عبدَ الله فاعلم أن الآية صورةٌ رمزيّةٌ رائعةٌ تنبّه إليها ابنُ القيم حيث يرى أن الله مثّل لنوره بالمشكاة وهي الكوّة في الحائط فهي مثل صَدْرِ المؤمن، وفي تلك المشكاة زجاجة شديدة الصفاء كأنها الكوكب الدريّ في صفائها وبهائها، والمراد بالزجاجة هنا قلبُ المؤمن لصفائه ورقته وصلابته فيرى الحق والهدى بصفائه وتحصل منه الرأفةُ والرحمةُ والشفقةُ برقّته ويجاهد أعداءَ الله ويغلظ عليهم بصلابته. وفي الزجاجة مصباحٌ وهو النور الذي في الفتيلة، ولذلك النور مادة وهو زيت قد عُصِرَ من زيتونة لا شرقيةٍ ولا غربية أي من زيتونة موجودة في أعدل الأماكن تصيبها الشمس أول النهار وآخره فزيتها أصفى الزيت وأبعده من الكدر حتى إنه ليكاد من صفائه أن يضيء بلا نار فهذه مادة نور المصباح.

وكذلك النورُ الذي في قلب المؤمن هو من شجرةِ الوحي التي هي أعظمُ الأشياء بركة وأبعدها عن الانحراف بل هي أوسطُ الأمورِ وأعدلها وأفضلها لم تنحرف انحراف النصرانية ولا انحراف اليهودية بل هي وسط بين الطرفين المذمومين فالنور الذي يغمر قلبَ المؤمنِ يصدر عن الإيمان الناجم عن الفطرةِ السليمةِ حتى ليكاد إيمانُه يهديه إلى الحقّ ولمّا يبلغ ذلك حتى خَالَطَ قلبَه نورُ الوحي فكان ذلك نوراً على نور فاجتمع له بذلك نورُ الوحي إلى نور الفطرة.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وهكذا شأن المؤمن كما يقول ابن القيم يدرك الحقّ بفطرته مجملاً ثم يسمع الأثرَ يجيئ به مفصلاً فينشأ إيمانه عن شهادة الوحي والفطرة معاً.

في هذه الآية الكريمة يشبه الله نوره في السماوات والأرض بنوره في قلوب عباده المؤمنين النور المحسوس المشهود بالأبصار والنور المعقول المشهود بالبصائر والقلوب.

اعلم يا عبدَ الله أن نورَ الهدايةِ حياةٌ، وظلمةُ الضّلالِ موتٌ وتأمّل قوله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: الآية 122] فالأول هو المؤمن العارف والثاني هو الغافل المحجوب.

سألت الشيخَ: أليس قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزُّمَر: الآية 69] أن ذلك يوم القيامة. قال: بلى، والسّياق يفيد ذلك وهو قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزُّمر: الآيتان 68 و69].

ومعنى ذلك أن الأرض تشرق يوم القيامة بنور الله وليس إشراقُها يومئذ بشمس أو قمر فإن الشمسَ تُكوّر، والقمر يُخْسَف ويذهب نورهما، ولعلّ الأرضَ المذكورةَ في الآية غير الأرض التي نحيا عليها وليس ذلك على الله ببعيد. صمتَ الشيخُ واتّجه مرّة أخرى نحو النافذة وعاد ينظر إلى السماء من جديد وهو يتمتم: «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصَلحَ عليه أمرُ الدنيا والآخرة من أن يحل عليّ غضبك أو ينزل بي سخطك فلك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلاّ بالله».

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

العَارِفُ النّيْسَابُورِيُّ
يشرح لعبدِ الله المحجوب طرفاً من فلسفة ابنِ طفيل الأندلسيِّ وحكايته عن حيِّ بن يَقظان..

امتدّت يدي إلى أقربِ كتابٍ مِنّي، ورُحْتُ أُجِيلُ النظر في صفحاتِهِ. لم يثر ما فيه حفيظتي.. ألقيتُه جانباً، ومددتُ يدي إلى غيره فإذا هو حكاية (حيّ ابن يقظان) لأبي بكر محمَّد بن طفيل الأندلسي من أعيان المائة السادسة. كان هذا الكتابُ من الكتبِ التي اقتنيتها منذ زمنٍ بعيدٍ، وظَلَّ مرميًّا إلى جانب الكُتبِ الأُخرى المكدَّسَةِ في ركنِ الدّارِ ولم أفكّر وقتئذٍ في قراءته، ربما لأنني لم أجد له فسحةً من وقت أَو أنني لا أميل إلى كلام المتفلسفةِ والحكماءِ.

غير أنّني في هذه المرة لم أنتهِ من النظر في مقدّمته حتى وجدتني مأخوذاً بما فيه. كان الشيخُ العارفُ لا يزال واقفاً عند النافذة وقد تسمّرت عيناه عند نقطةٍ في قُبَّةِ الفلكِ لم تَبْرَحْهَا. قلتُ في نفسي: عن أيِّ شيء يفتّش الشيخُ في هذه السماء وقد لفّتْها ظلمةٌ دامسةٌ لو أخرَجَ المرءُ يدَه لم يَكَدْ يراها؟ تنهّدَ الشيخُ، وخِلتُ أنني سمعتُه يُنْشِدُ في صوتٍ خافتٍ وكأنّه يجيبُ عما يعتلجُ في صدري:

فكانَ ما كان مما لستُ أذكرُه فَظُنَّ خيراً ولا تسأل عن الخبرِ

عدتُ إلى ابنِ طفيلٍ وحكايتِه. لم أنتهِ من بضع صفحاتٍ حتى أوقفني قوله: «ولا تظنَّ أن الفلسفةَ التي وصلت إلينا في كتبِ أرسطو وأَبي نصر (ويعني الفارابي) وفي كتاب الشفاء (ويريد كتاب الشفاء للشيخ الرئيس) تَفِي بهذا الغرض الذي أردته، ولا أن أحداً من أهل الأندلس كتب فيه شيئاً فيه كفاية، وذلك أن

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

من نَشَأَ بالأندلس من أهل الفطرة الفائقة، قبل شيوع علم المنطقِ والفلسفةِ فيها، قطعوا أعمارَهم بعلومِ التعاليم وبلغوا فيها مبلغاً رفيعاً، ولم يقدروا على أكثرَ من ذلك. ثم خَلَفَ من بعدهم خَلفٌ زادوا عليهم بشيءٍ من علم المنطق، فنظروا فيه ولم يُفْضِ بهم إلى حقيقةِ الكمالِ، فكان فيهم من قال:

برّح بـي أن علـومَ الـورَىٰ اثـنـان مـا إن فـيـهـمـا مـن مـزيـد
(حـقـيـقـةٌ) يُعْجِزُ تـحـصـيـلُـهـا و(بـاطـل) تـحـصـيـلُـه مـا يـفـيـد

لم أشعر بنفسي وأنا أقرأ هذين البيتين بصوتٍ مسموعٍ قطع على الشيخ تأملَهُ وأزعجَ سكينَتَه.

التفتَ الشيخُ نحوي مبتسماً، فبادرتُه قائلاً: لقد صدقَ والله. ما أَتْلَفَ العقلَ إلاَّ هذان: حقيقةٌ غيرُ مُدْرَكةٍ، وباطلٌ ما أراه بنافعٍ طالبَه. قال: يا عبدَ الله إذا كان هذا ظنّك فما أراك بمنتفعٍ بما تقرأ، وما أراه بمبلغك حاجتَك من المعرفة. فحسبك إذن ما عندك، سكَتَ الشيخُ قليلاً ثم أنشد:

فيم اقتحامُك لُجَّ البحرِ تَركَبُه وأنت تكفيكَ منه مَصّة الوَشلِ

أحسستُ أنني أوقعتُ نفسي فيما أكره، فما كان أغناني عن مثل هذا القول، ولي عن هذا الأمر مندوحةٌ. لم أجد ما أُصْلِح به ما بَدَرَ مني من قولٍ يَفْضَحُ حظي من هذه المعارف إلاّ أن أسألَ الشيخَ العارف عن ابن طفيل هذا. فقلتُ له في تودد: بالله عليك إلا قبلت عذري فما أنا إلاَّ رجلٌ متسرِّع غَلَبَ لسانُه عقلَه. قال مشفقاً: إيهِ عبدَ الله. لقد كنتُ والله أُبْصِر فيك عقلاً ما أراه مُخَذّلَكَ حتى كان منك ما لا أُحِبُّه لك. وإن أَخْوَفَ ما أخافُ عليك منه أن تكونَ والعامّة في مقامٍ واحدٍ. صمتَ قليلاً، ثم أنشد:

قد رشَّحوكَ لأمرٍ إن فطنْتَ له فاربأ بنفسِك أن ترعى مع الهملِ

قلت: عدَّها فلتةَ لسانٍ، وهاتِ حدِّثْني عن خبرِ حيٍّ بن يقظان وصاحبِه ابن طفيل. قال: الحيُّ يقابله الميتُ. واليقظان يقابله الوسنان. فكأن ابنَ طفيل، وقبلَه الشيخ الرئيس، يريد أن يقولَ لنا إنَّ الحياة بنت اليقظةِ والموت ابنُ الغفْلةِ،

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

فلا يكون الحيُّ حيًّا حتى يكونَ يقِظاً متنبهاً بكل عقله وجميع جوارحه، ولا يكون الميْتُ ميتاً إلاَّ إذا أطبقَتْ عليه الغَفْلَةُ من كلِّ جانبٍ فيغفو عقلُه وتتعطَّل جوارِحُه.

قلتُ: وما تريد بقولك: ومِنْ قَبْلِه الشيخُ الرئيس؟

قال: اعلم يا عبدَ الله أنَّ لابنِ سينا قصة مماثلةً تحمل الاسمَ نفسَه (حيّ ابن يقظان)، وله قصةٌ أخرى تحمل اسمَ (سلامان وإسال)، واللطيف أن حيَّ بن طفيل يجتمع برجلين يُدْعَيَان (سلامان وإسال) أيضاً. وذلك يدلُّ على تأثّر ابنِ طفيل بالشيخ الرئيس.

فحيُّ بن يقظان عند أبي علي بن سينا هو العقلُ الفعّال الذي يَصدرُ عن القيوم الذي لا تأخذه سِنَةٌ ولا نومٌ. وبهذا العقل يهتدي الإنسانُ إلى الحقائق وسَبْرِ كُنهِها.

وحيُّ بن يقظان عند ابن طفيل يرمز إلى العقل الإنسانيِّ وهو يجدّ طلباً للحق و(إسال) يرمز إلى الإنسان الذي يلتمسُ الحقَّ عن طريق الوحي ما لم يتعارَض ذلك مع ظاهرِ العقلِ، وإذا حدث ذلك انصرفَ إلى تأويل النصِّ المُوحَى بما يتّفقُ مع العقلِ وأما (سلامان) فهو الإنسانُ العاميُّ الذي يتوقّف عند ظاهرِ الوحيِ فلا يتعداه.

مختصرُ القولِ يا عبدَ الله أن ابنَ طفيل أراد أن يبيّن لنا أن العقلَ الإنسانيَّ متى خَلُصَ من الشوائبِ والأكدارِ اهتدى إلى الحق، ولا يختلف في ذلك عن الوحي. قلتُ: هل يريد بذلك أن الإنسانَ يمكنه الاستغناء عن الوحي وبعثِ الرسل؟ قال: لا. وإلاَّ لما امتدح إسالَ وسلامان وهما رَمْزَا الانقياد إلى الوحي والتسليم بصحّته. أراد ـ يا عبدَ الله ـ أن يقولَ إن العقلَ السليمَ الذي لم تُكَدِّرْه الأهواءُ، والوحيَ الصادقَ لا يتعارضان. وإذا حدث ذلك فاعْلَمْ أنه إما أن يكون العقلُ فاسداً أو الوحيُ كاذباً، وهذا الموضوعُ يا بنيَّ شَغَلَ الفلاسفةَ والحكماءَ من قديمٍ، ولن يفتأ يَشْغَلهُم.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

بدأ النعاسُ يتسلَّل إلى جفني وأنا أغالبه حتى فَضَحَني تثاؤبي. حينئذٍ توجّه الشيخ نحوَ المصباح ونفخ فيه، فإذا ظلامٌ حالكٌ يخيِّم على الدار وصوتٌ ينبعث من مَرْقَدِ الشيخ يقول: «اللَّهم أنتَ خلقتَ نفسي، وأنت تتوفاها، لك مماتُها ومحياها، إن أحييتَها فاحفظْها، وإن أمَتَّها فاغفِر لها. اللهم أسلمتُ نفسي إليك، ووجهتُ وجهي إليك، وفوّضت أمري إليك، وألجأتُ ظهري إليك رغبةً ورهبةً إليك، لا ملجأ ولا مَنْجى منك إلاَّ إليك، آمنت بكتابِك الذي أنزلت وبنبيِّك الذي أرسلتَ».

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

العَارِفُ النّيْسَابُورِيُّ يُحَذِّرُ عَبْدَ اللَّهِ المحجوب
من أحاديثَ موضوعةٍ اشتهرت عَلى ألسنةِ المتصوِّفَةِ

التمستُ الشيخَ في مرقَدِه فلم أجِدْه. . . تناهى إلىٰ سمعي صوتُه الخافتُ وهو يقول: سَمِعَ الله لمن حمدَه. كان الشيخُ يصلّي. . ولعله أمضى ثلثَ الليل وهو قائمٌ يتهجَّد. لم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى انطلقَ أذانُ الفجرِ ينبعِثُ من صَوْتٍ واهنٍ آتٍ من بُعْدٍ مؤذِناً بانبلاجِ تباشير فجرِ يومٍ جديدٍ. نهضتُ متثاقلاً، وتسللتُ إلى خارج الدار لأسبغَ الوضوءَ. كان البردُ قارساً والماءُ متجمِّداً. . لم أفرغ من وضوئي حتى كادت أطرافي تتيبَّس. دخلتُ مسرِعاً إلى الدار وأنا أرتعد من شدّةِ البردِ. ألفيتُ الشيخَ واقفاً وَسط الدار، وقد أشعل المصباحَ، أخذت أنفُخ في راحتيَّ لعلّي أُصيبُ شيئاً من الدفء وأنا أتمتِمُ بأبياتٍ أحسبُها من شعرِ الصافي كنت حفظتُها في صِبَايَ:

ألا ربَّ بـردٍ يـقـشـعـرّ لـه الـثـرى ... ويحسد عاري الأرضِ مُكْتَسي الأرضِ

لـقـد كـان يـغـدُو ظَـاهـري مـنـه بـاطـنـاً ... إذا التفَّ بعضي يبتغي الدفءَ في بعضي

سمعتُ الشيخَ يقول: الحمدُ لله الذي أحياناً بعد مماتِنا وإليه النشورُ.

قلتُ: أسعدَ الله صباحَك أيها الشيخُ. قال: وصباحك يا عبد الله. أراكَ ترتجفُ من البرد، وهي رَجْفَة أرجو أن تُرْفَعَ بها درجةً يوم القيامة. ألم يبلغك حديثُ المصطفى فيما تُرْفَعُ به الدرجاتُ وتُمْحَى الخطايا؟ قلتُ: كلا هاتِ أسمعنيه.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

قال: جاء في حديثِ أَبي هريرةَ الذي أخرَجَه مُسْلم والترمذيُّ والنَّسَائيُّ، وكذا مالك في مُوَطَّئِه أن رسولَ اللهﷺ قال: «**ألا أدلّكم على ما يمْحُو الله به الخطايا، ويرفَعُ به الدرجات؟**». قالوا: بلى يا رسولَ الله. قال: «**إسباغُ الوضوء على المكارِه، وكثرةُ الخُطا إلى المساجِدِ، وانتظارُ الصلاةِ بعد الصلاةِ، فذلكم الرّباطُ، فذلِكم الرّباطُ، فذلِكم الرّباطُ**».

لم ننتهِ من الصلاةِ حتى تنفّسَ الصبحُ، وبَدَأ ضوءُ الفجر يهتك سِتْرَ الليلِ.. ولم تلبث ذُكَاء أن أرسلَتْ أوّلَ خيوطِ أشعّتِها الذهبيةِ التي أخذت تتسلّل إلىٰ أرجاءِ الغرفةِ عبْرَ شقوقِ النافذةِ مداعبةً جفْنيَّ اللذين لا يزالان مُثْقلَيْن بالنعاس.. نفختُ في المصباح فانطفأَ.

طارَتْ القُبّرةُ في أركانِ الغرفةِ الأربعةِ وهي تصفِّق بأجنحتِها. قلتُ للشيخ: إن صاحبتَك تبدو اليوم مبتهجةً. قال: بل إن ضيفتَكَ تقول لك افتَح الباب وخلِّ بيني وبين السّماء. فتحتُ البابَ، فانطلقت القبّرةُ ودارت دورتين في باحَةِ الدّار، ثم حَلّقت بعيداً حتى غابت عن الأنظار. قلتُ للشيخ العارف: يا سبحانَ الله! هذه القبّرة الضعيفةُ تطير طالبةً رزقَها، وليس لها من ضامِن إلاَّ الله. قال: هو التوكّل يا عبدَ الله، ولو فَهِمَ العبْدُ الخائفُ حديثَ المصطفى في التوكّل لأراحَ واستراحَ، قلتُ: وما هذا الحديث؟ قال: قوله ﷺ: «**لو توكّل أحدُكم على الله حقَّ توكّله لرزقَهُ كما يرزق الطيرَ، تغدو خِمَاصاً، وتروح بطاناً**» أي تخرجُ في الصباحِ ضامرةً البطنِ وتعود مساءً وقد امتلأ بطنُها بالحبّ.

قدّمتُ للشيخ ما اعتَدْتُ تناولَه من صَبُوحٍ وهو لا يعدو قليلاً من اللبنِ، وقدْراً من الشاي، وبعضاً من خبز الشعيرِ الأسمر. التفتَ الشيخُ نحوي، وقالَ: كيف كانت ليلتُك؟

قلتُ: هَجَعْتُ هَجْعةً تناوشتني فيها كوابيسُ مزعجات.. كأن غوغاءَ السوق ائتَمَرت بي مستبدِلين بنعالِهم عِصيّاً انهالوا بها عليَّ من كلِّ جانب، وصاحبُهم نوحٌ الجامعُ يقهقه طَرَباً ملءَ شِدْقيه. ضَحكَ الشيخُ حتى بانَت نواجِذُه، وقال: ثم ماذا؟

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

قلتُ: لا شيءَ.. استيقظتُ مذعوراً، وفرحْتُ أنَّ ذلك لم يكن إلاَّ حلماً أقضَّ مضجعي وداخَلتْني السكينةُ لمّا سَمعتُك تصلّي. قال: يا عبدَ الله تَعلَّم إذا نهضتَ من نومِك فَزِعاً أنْ تفعل كم عَلّمنا المصطفى أن نفعلَ. قلتُ: وما ذاك؟ قال: جاء في حديثِ أَبي قتادةَ بن رَبْعي الذي أخرجَه الشيخان أنّه سَمعَ رسولَ الله ﷺ يقول: «**الرؤيا من الله، والحُلمُ من الشيطان. فإذا رأى أحدُكم شيئاً يكْرهُه فلينْفُثْ عن يساره ثلاثَ مرات إذا استيقظ، وليتعوّذ بالله من شرِّها، فإنَّها لن تضرَّه إن شاءَ الله**» قلت: صدقَ المصطفى حيث يقول: «**الناس نيامٌ إذا ماتوا انتبهوا**» انتفضَ الشيخُ وقال: وَيْحَك عبدَ الله، هذا حديثٌ لا أصلَ له، وهو من كلامِ علي بن أبي طالب ينسبُه الصوفيةُ إلى رسولِ الله. وذلك افتراءٌ. قلتُ: ولكنّ معناه صحيح لأن الموتَ هو اليقينُ الذي لا يقينَ بعده. قال: العبرةُ هنا بصحّة نسْبةِ الخَبَرِ إلى قائِلِه لا بِحُسْنِ معناه، وإلاَّ لنُسِبَ كلُّ خبرٍ جميل وحَسَنٍ إلى رسولِ الله، وهذا مَوْطِنُ الزّللِ. فانظر هل تَظْفَر بأجْمَلَ من قولِهم: «مَنْ عَرفَ نفسَه فقد عرفَ ربَّه»؟

ما أراك يا عبدَ الله تقفُ على غيره في معناه.. ولكن ليس هذا بحديثٍ وإن اشتهرَ على ألسنةِ المتصوّفةِ، وشاعَ في كتُبِ كبرائِهم. وهو من كلامِ حيى ابن معاذ الرازيّ.

قال ابنُ تيميةَ فيه: موضوعٌ، وقال النووي قبله: ليس بثابتٍ، وللسيوطي رسالةٌ في شَرحِ هذا الحديث بعنوان (القولُ الأشبَهُ في حديثِ مَنْ عرفَ نفسَه فقد عرف ربَّه)، تجدُهَا في كتابه (الحاوي للفتاوى) وقد صرَّح فيها بعدمِ صحّتِه، ونقلَ أقوالَ الأئمةِ فيه، ثم ساقَ عشرةَ أوجهٍ في تأويلِه بافتراضِ صحّتِه. وهذا الحديث يا عبدَ الله والذي قبلَه شاعَ أمرُهما في كتبِ أكابر المتصوفةِ من طبقةِ الغزالي وابن عربي، تجدهما في (إحياء) الأول و(فصوص) الثاني وقد عِيبَ على أَبي حامد انسياقُه مع الموضوعات في كتابه (الإحياء)، ولولا أن الله قَيَّض له عالِماً جليلاً نخَلَ أحاديثَه وهو الحافظ زينُ الدين أبو الفضل العراقي في مصنَّف خصَّه به هو (المغني عن حَمْل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من أخبار) لحُرِمَ الناسُ من فوائدِه.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

وهذا يا عبدَ الله لا ينتقص من قَدْرِ الإمام، فقد شَغَلَه عن عِلْمِ الحديثِ اشتغالُه بالفقهِ وأصولِه، وعلمِ الكلامِ، والمنطقِ والفلسفةِ والتصوّفِ.

وأمّا ابنُ عربيّ فلا يُسْتَغْرَبُ منه سَوْقُ مِثْلِ هذه الموضوعات الواهية لأنه من المولعين بالغرائب، وإذا كانت آياتُ الكتاب الكريم لم تَسْلَم من تأويلاتِه بحجة أن للنص ظاهراً وباطناً، خُصّ العوام بظاهره، وأفْرِدَ الخواصُّ بباطِنِه، فليس بمسْتَنْكِرٍ عنده أن يتلقّفَ كل خبرٍ هالكٍ يصحّحُ دعواه.

إن الترويجَ للموضوعاتِ والأخبارِ الواهيةِ، والاستدلال بها في مواطن الاحتجاج والاستشهاد بها في مجالس الوعظِ والإرشادِ لخطرٌ يتهدّد الشريعةَ ويستوجب عَلَى أهل العلم درءه. قلتُ مستفسراً: وما هي مظانّ هذه الموضوعات؟ قال: كتبُ الوعظِ والإرشادِ، وكتبُ الزهدِ والرقائق، ووصف أحوال الآخرة، وبعض تآليف المتصوّفة. قلت: ألا أوقفتَني على المزيد من هذه الموضوعات مما اشتهرَ على الألسنة؟ قال: اسمع. شاعَ على ألسنةِ بعض الجهّال هذا الحديث الموضوع: (لو أحسنَ أحدُكم ظنَّه بحجر لنفعه الله به) قال فيه ابن حجر: لا أصلَ له. وقال ابنُ تيمية: كذبٌ. وقال ابنُ القيم: هو من كلامِ عُبّادِ الأصنام.

ومن الأحاديث التي لا أصل لها واشتهرت على ألسنة الوعّاظ والطرقيين: «ما وَسِعَني سمائي ولا أرضي، ولكن وسعني قلبُ عبدي المؤمن»، ومن هذه المنكرات والعياذ بالله ذلك الحديثُ الموضوعُ الذي يقول: «كنتُ كَنْزاً لا أُعْرَف، فأحببتُ أن أُعرَفَ فخلقت خلقاً فعرّفتهم به فعرفوني» قال ابن تيمية: ليس من كلام النبي ولا يُعْرَفُ له سَنَدٌ صحيحٌ ولا ضعيفٌ، وتبعه الزركشي وابنُ حجر والسيوطي.

ومن هذا الضَّرْب قولُ أَبي سعيد الخراز: «حسناتُ الأبرار سيئاتُ المقربين» الذي عده بعضهم حديثاً، وذلك باطلٌ لا أصلَ له.

قلتُ: كيف أعرف الموضوعَ من الصحيح؟ قال: عليك بما صنّفه أهلُ

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الحديثِ في الموضوعات، مثل: الموضوعات الكبرى لابن الجوزي، واللآلئ المصنوعة للسيوطي، والمنار المنيف لابن القيم، وتنزيه الشريعة لابن عراق الكناني، والأسرار المرفوعة لعلي القاري، والفوائد المجموعة للشوكاني.

سألتُ الشيخَ: وهل تظنّ أنَّ معرفةَ البعضِ بهذه الموضوعات كافٍ لدرئِها؟ وهؤلاء الوعّاظُ والقصّاصُ وبعض المنتسبين إلى العلم يشيعونها في مجالسهم وتصانيفهم دون حياء.

صمتَ الشيخُ قليلاً، ثم أنشد:

نارُ المعارفِ ليس منها عندنا ... إلاَّ الدخانُ وفي البلاد شُوَاظُ
الناسُ في علمِ المعاني استغرقوا ... فإلام فينا تُدْرَسُ الألفاظُ
نبّهتُ قومي للنهوضِ فساءَهم ... إن النّيامَ يسوؤها الإيقاظُ
يرضى الجهولُ إذا كذبتَ بمدحِه ... هُزءاً عليه وإن صَدَقْتَ يَغاظُ
يهدي الشعوبَ الواعظونَ وإنما ... شعبي أضلَّ عقولَه الوعاظُ
ما لي أرى الأوهامَ يُحفَظُ حقّها ... أفليس يُرعى للعقولِ حِفاظُ
لا يخدعنَّك ظاهرٌ. كَم معشرٍ ... نحفوا عقولاً، والجسومُ غِلاظُ
عجباً يطيبُ لنا الرُّقادُ بموطن ... فيه الأعادي حولَنا أيقاظُ
قد كان للآدابِ قِدْماً جاحظٌ ... واليومَ قد كَثُرَت بيننا الجُحَّاظُ

قلتُ في نفسي: هذا والله من شعرِ الصافي، إن بينَه وبين شيخنا العارف لنسباً ولعلي سائله يوماً عنه.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT
Est. 2012 CE

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

العَارِفُ النّيْسَابُورِيُّ يكمل حديثه
عن المقالات الفاسدة عند بعض المتصوِّفة

كانت الشمس رأد الضحى عندما انهمك الشيخ العارف يصلّي... انصرفت عنه لبعض شأني، ولم يمض وقت حتى سمعت منصوراً الدرويش ينشد خارج الدار:

يا من تمتع بالدنيا وزينتها ولا تنام عن اللّذّات عيناهُ
شغلتَ نفسك فيما لستَ تدركه تقول لله ماذا حين تلقاهُ؟

قلت في خاطري: يا رحمن يا رحيم، يا حيّ يا قيوم أصبحنا وأصبح الملك لله. ظللت أنتظر أن يقرع الباب، لكنه لم يفعل. سلّم الشيخ، وبادرني بالسؤال: كأنني سمعتُ صوتاً جاء من خارج الدار. قلت: نعم، هو منصور الدرويش يأتي كعادته على غير موعدٍ. ابتسم الشيخ وقال: سألتني البارحة عن صاحب التفاحة الثالثة، وها هو ذا صاحبها. تحركت نحو الباب وفتحته. ألفيت منصوراً الدرويش جالساً تحت شجرة الكستناء يلاعب قطة صغيرة بين يديه. دخلت إلى الدار وأخذت التفاحة ووضعتها في حجر الدرويش، نظر إليّ ملياً ثم قال:

إذا لم أزُرْ إلاَّ لآكل أكلةً فلا رَفَعَتْ كفِّي إليَّ طعامي
فما أكلةٌ إن نلتُها بغنيمةٍ ولا جوعةٌ إن جعتها بغرام

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

قلت: هذه هي المرة الثانية التي يلقمني فيها هذا الدرويش حجراً. اقترب الشيخ العارف مني دون أن أشعر به حتى وضع يده على كتفي، وقال:

الإثم يا عبد الله ما حاك في النفس. صمت قليلاً ثم التفت نحو الدرويش وأخذا يتبادلان النظرات هنيهة حتى خلت أنَّهما يتحدَّثان بلغة غير لغة البشر. ثم لم يلبث الشيخ أن التفت نحوي من جديد قائلاً:

أيها المتهوك.. طاش والله سهمك، ونضب نبعك. اعلم يا بني أنَّه (ربَّ أشعث أغبر ذي طمرين لو أقسم على الله لأبرّه) انطلق الدرويش يعدو وقد أنشب أسنانه في التفاحة حتى غاب عن الأنظار.

دخلنا مرة أخرى إلى الدار، وأخذت أقلب من جديد في كتبي لعلني أظفر على كتاب جديد أثير به حفيظة الشيخ وأشبع نهمي في السماع منه.

وقعت يداي على كتاب قديم مهترئ كان أهدانيه صديقنا أَبو علي الورّاق قبل بضعة أشهر، وهو لسلطان العلماء العز بن عبد السلام. جلس الشيخ إلى جانبي وقال: ما هذا الذي تحمله بيمينك؟ قلتُ: هذا كتاب (حل الرموز ومفاتيح الكنوز) قال: المنسوب لابن عبد السلام؟ قلت: كل ما أعرفه أنه له. قال: هذا كتاب نسبته لصاحبه ضعيفةٌ، وفيه ينساق مؤلفه مع الأحاديث الموضوعة، وهذا يتنافى مع ما عُرف عن العزّ من تثبت في الاستشهاد بالنصوص وعزم على محاربة البدع والخرافات. وكان رحمه الله ينكر على أَشياخ عصره انسياقهم وراء الغرائب والمنكرات، وقد شدّد على ابن الصلاح لتصحيحه صلاة الرغائب.

وكانت بينهما مناظرة، وهي مطبوعة، تريك علوّ كعب الشيخ في المناظرة والجدل والوقوف عند الحقّ فأطلبها يا عبد الله. قلت: وما يعيب هذا الكتاب بصرف النظر عن صحة نسبته إلى مؤلفه من عدمها؟ قال: هذا كتاب كنت قرأته في أول سنوات الطلب، وقد هالني أن يروج فيه صاحبه لأحاديث منكرة لا تصح عن المصطفى وقد نبّه عليها أهل الصنعة من المحدثين. مثل ذلك الحديث

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الموضوع الذي حدثتك عنه قبل قليل الذي يقول: «ما وسعني سمائي ولا أرضي، ووسعني قلب عبدي المؤمن» أخذت أقلب صفحات الكتاب في عجل علّني أهتدي إليه. نظر إليَّ الشيخ وقال: تجده في الصفحة الأولى يا عبد الله. اعتراني خجل شديد، فكأني بصنيعي هذا أشكك في كلام الشيخ عدت إلى الصفحة الأولى فوجدته كما قال. قلت للشيخ: وما تقول في حديث: «أنا جليس من ذكرني» قال: أذكر أن هذا مما ورد في (حل الرموز). قلت: صدقت. قال: حديث لا أصل له. قلت: وما معنى لا أصل له؟ قال: إذا قيل في الخبر إنه لا أصل له عُدَّ من الموضوعات غير أن الفرق بين ما قيل فيه إنه لا أصل له وما قيل فيه إنه موضوع، أن الأول لم يقف الحفاظ له على سند لا صحيح ولا ضعيف ولا موضوع. والموضوع ما كان في سنده كذّاب متهم بالوضع. قلت: ثمة أحاديث أخرى سيقت في هذا الكتاب. أأقرأها عليك؟ قال: نعم. قلت: حديث «تجدني عند المنكسرة قلوبهم من أجلي» قال: رواه الديلمي عن عائشة بلا سند مرفوعاً. وعند البيهقي في (شعب الإيمان) أنه من كلام موسى عليه السلام. قلت: وحديث: «ما صبّ الله في صدري إلاَّ صببته في صدر أبي بكر» قال: موضوع. قلت: وحديث «أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها». قال: تكلم فيه أهل العلم. وصفه بعضهم بأنَّه موضوع. وإن لم يكن موضوعاً فضعيف جداً.

قلت: وحديث: «لا تودعوا الحكمة غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم» قال: هذا ليس بحديث وإنما هو من كلام عيسى ابن مريم. ذكر ذلك من صنّف في الموضوعات. قلت: وحديث «إن من العلم كهيئة المخزون لا يعلمه إلاَّ أهل العلم بالله فإذا تكلموا به أنكره أهل العزّة بالله» قال: هذا من كلام المتصوفة، ولا تصح نسبته إلى الرسول الكريم. والعجيب أن مؤلِّف (حل الرموز ومفاتيح الكنوز) احتج به على من أنكر على البسطامي والحلاج شطحاتهم في قولهما: «أنا الله» وقولهما: «ما في الجبة إلاَّ الله» وقولهما: «سبحاني ما أعظم شأني» وقولهما: «أنا من أهوى ومن أهوى أنا»

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

وهذا من أفسد الأقوال ودعوى صريحة للقول بالحلول والاتحاد. وأنت لو قرأت يا عبد الله سيرة ابن عبد السلام لأنكرت أن يكون هذا الذي بين يديك من تأليفه.

قلت: أَعْلَمُ أن القول بوحدة الوجود والاتحاد والحلول من المقالات الفاسدة، ولكن كيف تورّط فيها أمثال ابن عربي والحلاج وابن الفارض والعفيف التلمساني وابن سبعين؟ قال: هذا ما لا تجد له جواباً إلاّ إذا تكلمت في هؤلاء وهو ما قد يجرّك إلى تكفيرهم، وذلك أخوف ما أخاف عليك منه. وحسبك أن تعلم أنها مقالات فاسدة فتجتنبها. واعلم أن القول بها معروف أيضاً عند النصارى واليهود وأصحاب الملل الأخرى من عباد الوثن. إن الإسلام يا عبد الله عقيدة صافية نقية بعيدة عن الألغاز والرموز.. ما كان القرآن يوماً طلاسم يحار المرء في فكها حتى يأتي في آخر الأزمان من يزعم أنه أوتي ما لم يؤت غيره فيسوق لنا رموزاً وإشارات أشبه ما تكون بتعاويذ السحرة والكهّان، حتى إذا أنكر عليه ظاهر لفظه قال هذه أسرار لها معانٍ خفية تدق عن فهم البليد. ولو تأملت لأدركت أن قدْراً من عباراتهم ليس إلاَّ رموزاً كهنوتية صريحة كذكرهم الأقنوم، والدير، والشماس، والصليب، والزنار، والهيكل. وهي عين ما نراه عند الرهبان النصارى حتى لكأنك تقرأ لقسيسين. ألم يقل أحدهم:

ألا أبلغ أحبائي بأني ركبت البحر وانكسر السفينة
ففي دين الصليب يكون موتي ولا البطحا أريد ولا المدينة

قلت في نفسي: سبحان الله! ألم يأتي في حديث المصطفى: «**إن المدينة لتنفي عنها الخبيث كما ينفي الكير خبث الحداد**». استطرد الشيخ فقال: ألم يقل أحدهم:

تأدب بباب الدير واخلع به النعلا وسلّم على الرهبان واحطط بهم رحْلا
وعظّم به القسيس إن شئت حظوةً وكبّر به الشماس إن شئت أن تعلى

ألم يقل صاحب التائية الكبرى:

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وما عقد الزنار حكماً سوى يدي ... وإن حلَّ بالإقرار بي فهي حَلّت
وإن بار بالتنزيل محراب مسجد ... فما بار بالإنجيل هيكل بيعة
وأسفار توراة الكليم لقومه ... يناجي بها الأحبار في كل ليلة
وإن خرّ للأحجار في البيد عاكف ... فلا وجه للإنكار بالعصبية
فقد عبد الدينار معنى منزّه ... عن العار بالإشراك بالوثنية
وما زاغت الأبصار في كل ملة ... وما راغت الأفكار في كل نحلة
فما قصدوا غيري وإن كان قصدهم ... سواي وإن لم يظهروا عقد نية

هل سمعت يا عبد الله من يسوّي بين عابد الصليب، ومن يسجد للأحجار والوثن، وبين من يفرد الله بالوحدانية وينزهه عن الشرك؟

إذا استوى التوحيد والشرك، والإيمان والكفر، وأنهما وجهان لشيء واحد كما يزعم بعضهم فما جدوى أن يرسل الله الرسل، ويبعث الأنبياء إذا كان كل من سجد لصنم فإنما يسجد لروح الله فيه؟ تعالى سبحان عما يقولون علوّاً كبيراً.

قلت: قد يعتذر بعضهم بأعذار عن ذلك. قال: مثل ماذا؟

قلت: عند عجز العبارة تكون الإشارة. قال: الهروب من ضيق اللغة إلى سعة الرمز يوقع صاحبه فيما يكره إذا لم يحسن استخدامه وتقديره. فهل ضاقت اللغة عن ألفاظ الإيمان واتسعت بألفاظ الكفر؟

وحسبك يا عبد الله أن صاحب (الفتوحات المكية) قد حشا (فصوصه) بكثير مما يستنكر من هذه المقالات الفاسدة. وحتى يدرأ عن نفسه اللوم جاء بعجيبة في أوله فقال: «أما بعد، فإني رأيت رسول الله في مبشِّرة أريتُها في العشر الأُخر من محرم سنة سبع وعشرين وستمائة بمحروسة دمشق وبيده ﷺ كتاب، فقال: هذا كتاب (فصوص الحكم) خذه واخرج به إلى الناس ينتفعون به. فقلت: السمع والطاعة لله ولرسوله... فحققت الأمنية وأخلصت النية وجردت

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

القصد والهمّة إلى إبراز هذا الكتاب كما حدّه لي رسول الله ﷺ من غير زيادة ولا نقصان. .».

قلت: يا الله. ما الفرق بين هذا وكلام المتنبئة!

قال: هذا كلام يا عبد الله فيه اتهام للنبي بالتقصير والتفريط فيما أمر أن يبلغه أمته. وهكذا شأن كثير من الجهلة يحتجون لأقوالهم الفاسدة بمنامات ورؤى كلما عجزوا عن الوقوف على ما يؤيد دعواهم من آيةٍ في كتاب الله أو سنة صحيحة.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

العَارِفُ النّيْسَابُورِيُّ يُحَدِّثُ عبد الله المحجوب عن بعضِ التآليف والمصنَّفاتِ

خرجتُ والشيخ العارف قاصدين السوقَ لعلنا نصيبُ فيه حظاً مما قَسَمه الله لنا هذا الصباح.. سرنا صامتين لا يكلّم أحدنا الآخر حتى بلغنا وَسَط السوقِ. كان أوّلَ ما أثار انتباهَنا غيبةُ نُوحِ الجامع وانفضاض مجلسه. التفتّ نحو الشيخ، فبادرني بالسؤال: هل انتهى الأجل الذي ضربناه للرجل حتى يجيب عن سؤالنا؟ قلت: ليس بعد. وإن غداً لناظره قريب. قال: ما أراه حاضراً غداً، قلت: إن فعل فقد أحسن لنفسه ولغيره. قال: لا تعجل يا عبد الله. وانظر ماذا ترى عند ذلك الركن. نظرت حيث أشار فإذا بمجلس جديد لقاصّ آخر. قلت: قطعت جهيزة قولَ كل خطيب. قال: إذا قطعنا عَلَماً بدا لنا عَلَمٌ.

تركنا وسط السوق وتوجهنا نحو دكان أَبي علي الورّاق، وقبل أن نبلغه تذكرت تلك الأبيات التي اختبرني بها، فسألته عنها. فقال: هات أسمعنيها. قلت:

ولـي خـالَـةٌ وأنـا خـالـهـا ... ولـي عـمـةٌ وأنـا عـمّـهـا

فَـأَمَّـا الـتـي أنـا عـمّ لـهـا ... فـإن أبـي أمّـه أمُّـهـا

أبـوهـا أخـي وأخـوهـا أبـي ... ولـي خـالـة هـكـذا حـكـمُـهـا

قال: الجواب عن هذا اللغز يكون على هذا النحو: تزوج رجلٍ امرأتين

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

لنقل إن إحداهما اسمها عائشة، والثانية اسمها فاطمة. فأولد عائشة بنتاً، وأولد فاطمة ابناً. ثم زوج بنته من أبي امرأته الثانية فاطمة فجاءت ببنت. فتلك البنت هي خالة ابنه، وهو خالها لأنه أخو أمها. وهذا جواب الصورة الأولى. وأما جواب الصورة الثانية فهي أن رجلاً له ولدٌ ولولده أخٌ من أمه فزوج أخاه من أمه أمَّ أبيه فجاءت ببنت. فتلك البنت هي عمته لأنها أخت أبيه. وهو عمها لأنه أخو أبيها.

قلت: هذا لغز محيّر لا ريب، فلا غرو أن يفوتني حله وأنا بعد في أول مراحل الطلب. قال: لا تثريب عليك يا عبد الله. فمعرفتك بمثل هذا الضروب من المسائل لا يدل على علم، وعجزك عنها لا يدل على جهل، وكان المتقدمون يسوقون هذا النوع من المشكلات من باب التعجيز حيناً ومن باب التندّر حيناً آخر، وفي كتب الأوائل قدر كبير من هذا. قلت: أين أجدها في كتب أولئك؟ قال: من مظانّها المقامات. ومنها مقامات الحريري. وهذه ملأى بالغريب والعجيب، وهي لا ريب من أعاجيب تصانيف العرب. وقد نسج على منوالها أحدُ أعلام زماننا من أساطين اللغة بديعتَه المسماة (مجمع البحرين) وذاك هو ناصيف اليازجي، فإذا فاتتك مقامات الحريري فلا يفوتنك (مجمع البحرين) فإنّ فيه تقويماً للسانك وتهذيباً لجنانك.

قلت: وهل هذا اللغز الذي أجبتني عنه الآن موجود في أحدهما؟ قال: كلاّ. قلت: فهل هو من صنائعك؟ قال: لا. ولكنك تجده عند ابن الأثير في كتابه (المثل السائر) في معرض حديثه عن الأحاجي، وهو كتاب عظيم القدر لا تمل مطالعته وإن شئت يا عبد الله أن تكون من أهل الأدب فلا يفوتنك النظر فيه. وإذا كان ابن خلدون قد ذكر في مقدمة تاريخه أنه سمع من أشياخه في مجالس التعليم أن أصول الأدب وأركانه أربعة دواوين، هي: أدب الكاتب لابن قتيبة، والكامل للمبرد، والبيان والتبيين للجاحظ، والنوادر لأبي علي القالي. وأن ما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها فإني أرى (المثل السائر) ديواناً خامساً لا يقل عن تلك الدواوين الأربعة شأواً بل إنه يتميز عنها بأنَّه مما ترتاح النفس لقراءته فلا تنفر منه ولا تضجر.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

قلت: أوليس هو صاحب (الكامل) في التاريخ؟ أجاب: كلا. وإنما صاحبنا هو أحد ثلاثة إخوة جميعهم أعلام في فنونهم، فصاحب (المثل السائر) هو ضياء الدين الكاتب، وصاحب (الكامل) هو عز الدين المؤرِّخ، وثالثهم هو مجد الدين المحدِّث صاحب (النهاية في غريب الحديث) و(جامع الأصول في أحاديث الرَّسول).

أخذني الشيخ من يدي وكأنه يريد أن يبعدني عن هذا القاص الجديد وسار بي خطوات ثم قال لي: ألا تحب أن تزور اليوم صاحبك الورّاق؟ قلت: أبا علي. بلى والله. قال: هيا بنا إليه إذن، وانس أمر هذا القاص. قلت: أحب أن أعرف شيئاً عن أخبار القصاص ونحن في طريقنا إلى دكّان أبي علي.

قال: لن تجد أفضل من كتاب (القصّاص والمذكّرين) لابن الجوزي وهو مطبوع. وقد لخّص كثيراً من فوائده الإمام السيوطي في كتابه (تحذير الخواص من أكاذيب القصّاص) كعادته في تلخيص كتب من سبقوه.

قلت: السيوطي إمام جليل وصاحب تصانيف كثيرة، أعلم أنَّه ما ترك علماً إلاَّ صنَّف فيه. ولكنني رأيت كلاماً لبعضهم في إمامته. لم أستطع أن أتحقَّق منه. فهل بلغك شيء من هذا؟ قال: اعلم يا عبد الله أن جلال الدين السيوطي عالم كبير القدرِ عالي الهمَّة، كاد يبلغ درجة الإمامة في كل فن صنَّف فيه. وما قيل فيه لا يعيبه وهو صحيح. فالرجل مكثار ومن كثرت آثاره لم يؤمن عثاره. وقد أحسن من قال: صاحب صنائع لا يحسن صنعة. فالرجل عدَّ نفسه مجدِّد قرنه وأنَّه على رأس المائة التي عاش فيها، وقد لمّح إلى ذلك في مقدمة كتابه (الجامع الصغير) وهو كتاب كبير النفع جمع فيه أحاديث المصطفى ورتَّبه على حروف المعجم تيسيراً على الباحثين غير أنَّه وقع فيما زعم أنَّه نزّه كتابه عنه وهو الضعيف والموضوع حيث قال: «وصنته عما تفرد به وضَّاع أَو كذاب» ولو لم يقل هذه العبارة لسلم من اللمز. فقد جاء كتابه مملوءاً بالموضوعات والأحاديث الضعيفة، وقد استدرك عليه ذلك شراحه كالمناوي في (فيض القدير)

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وقد رأيت مصنَّفاً جليلاً لأحد أفاضل عصرنا في بيان (ضعيف الجامع الصغير وزيادته) ويقع في ستة أجزاء.

والعجيب أن السيوطي يرمي بعض الأحاديث بالوضع أو الضعف في كتابه (الأحاديث الموضوعة) ثم يسوقها على أنَّها صحيحة في (جامعه الصغير).

وقد اعتذر له بعضهم بأن ذلك من آفات المكثرين، واعتذر آخرون بأن السيوطي كان يرمز للصحة والضعف بحرفي (ص)، (ض) فلا يستبعد أن يكون التصحيف من النساخ فيرمزون للصحيح بحرف (ض) فنظنه ضعيفاً عنده ويرمزون للضعيف بحرف (ص) فنظنّه صحيحاً. وهذا اعتذار جميل وإن لا يسلم في جميع الأحوال.

قلت: أهكذا جميع تصانيفه؟ قال: كلا. وإنما يقع له ذلك في بعض كتبه. قلت: مثل ماذا؟ قال: لا ريب أن السيوطي من أعلام الحديث وله فيها تصانيف ممتعة لا يستغني عنها طالب علم ككتابه (تدريب الراوي) وألفيَّته في علوم الحديث التي جعلها على غرار ألفيَّة العراقي. وهو مع ذلك تزل قدمه فيما قد ينجو منه المبتدئون. ولعل رسالته (الأزهار المتناثرة في الأخبار المتواترة) لم يراع فيها شروط تحقق التواتر كما اتفق عليها المحدثون، فترى أكثر الأحاديث التي يصفها بالتواتر هي أخبار آحاد، والعجيب أنَّه يقول في مطلع رسالته تلك إنه (أورد فيها ما رواه من الصحابة عشرة فصاعداً) وعدَّ ذلك شرطاً في التواتر وهذا لا يقول به أحد من العلماء، ولم يقله هو نفسه في (تدريب الراوي) لأن المتواتر عند أهل الحديث هو (الخبر يرويه جماعة من الناس عن مثلهم بحيث يستحيل تواطؤهم على الكذب وأن يكون منتهى الرواية الحسّ) ولذلك يا عبد الله قد يحدث التواتر في طبقة أو طبقتين من الرواة ومع ذلك لا ينعت بالتواتر حتى يتحقَّق ذلك في جميع الطبقات.

وقد وقع في مثل ما وقع فيه السيوطي مَنْ كَتَبَ بعده في الأحاديث المتواترة مثل محمَّد بن جعفر الكتاني في (نظم المتناثر من الحديث المتواتر)

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الذي لخصه أحد العلماء المغاربة وهو الشيخ المحدِّث عبد العزيز بن محمَّد بن الصديق الغماري في كتاب بعنوان: (إتحاف ذوي الفضائل المشتهرة بما وقع من الزيادة في نظم المتناثر على الأزهار المتناثرة). قلت: وما أحسن تصانيفه عندك؟ قال: أكثر تصانيفه ذات نفع، وأنفعها عندي كتابه (المزهر) في فقه اللغة، وكتابه (تدريب الراوي) وهو شرح كبير على تقريب النووي في علوم الحديث. ومن كتبه النافعة (الأشباه والنظائر) صنَّفه في قواعد وفروع فقه الشافعية، وقد ألحق بآخره منظومة لطيفة عدد فيها المسائل التي لا يعذر الجاهل بجهلها، فإذا ظفرت بهذا الكتاب فلا تنسَ أن تحفظها.

رحم الله السيوطي وأمثاله فما قصَّروا في خدمة هذا الدِّين وما توانوا. فما قام به السيوطي بمفرده ينوء به عددٌ كبير من الناس مجتمعين.

وكان كثيراً ما يتمثَّل بقول الشاعر:

لسنا وإن كُنّا ذوي حسبٍ ... يوماً على الأحساب نتَّكل

نبني كما كانت أوائلنا ... تبني ونفعل مثلما فعلوا

لم أشعر بمضي الوقت في رفقة الشيخ حتى وقفنا بباب صاحبنا أبي علي الورَّاق.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT
Est. 2012 CE

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

العَارِفُ النّيْسَابُورِيُّ
يَكْشِفُ عَن بَعْضِ الخُرَافاتِ

انبسطَتْ أساريرُ صاحِبنا أَبي عليّ الورَّاق لمّا وقفنا ببابه، وسلَّم على شيخِنا العارفِ موقِّراً ومعظِّماً فاستحسنتُ والله ذلك منه وليس بغريبٍ أن يصدرَ مثلُ ذلك عنه فقد كان مُذْ عرفتُه ذا خلقٍ رفيع وأدبٍ جمّ، وكيف لا يكون الأمرُ كذلك وهو يصبح ويُمْسي بين الكتب والأسفار.

اختار للشيخ خيرَ موضعٍ في دُكَّانه، واستأذَننا للخروج بعضَ الوقت فلم يأذن له الشيخ وكأنَّه عَلِمَ ما يدورُ في خَلَدِ صاحِبنا أو ما ينوي القيام به، فقال له: إن شئتَ إكرامَنا حقاً فخلّ بيننا وبين ما في دكانِك من كتب. قال أبو عليّ: الدكان وصاحبه.

قلتُ في نفسي: هذا أوْجَزُ جواب أسمَعُه اليومَ. سألت أبا عليّ: أحسب أني رأيتُ بعضَ تآليفِ ابن عربي هنا. قال: نعم عندي بعض رسائله تجدها هنالك عند يمينك. خرج أبو علي في صمت.. مددتُ يدي حيث أشار وشرعت أقرأ العناوينَ واحداً واحداً حتى وقفتُ على أول رسالةٍ لابن عربي هي: (منزل القطب) وضعتُها جانباً ومضيت أقلب الكتب حتى وقفت على رسالة ثانية لابن عربي هي (رسالة لا يعوّل عليه) ثم رسالة ثالثة بعث بها الشيخ الأكبر إلى الإمام فخر الدين الرازي. فرحتُ بالرسائل الثلاث وتحولت نحو الشيخ

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ووضعتها بين يديه. قال مبتسماً: أراك بلغت حاجتَك. قلت: هذه بعض آثار ابن عربي الشيخِ الأكبر والكبريتِ الأحمر لسانِ الحقائق وسلطانِ العارفين. قال: هذا كلام مُعْجَبٍ. قلت: والله لا أخفي عليك أنّي أميل إليه. قال: لا ضَيْرَ من ذلك. ولكن لا تنسَ أن (حُبّك الشيءَ يُعمي ويُصِم) كما جاء في الأثر. قلتُ: حَدّثْتَني عن بعضِ المقالاتِ الفاسدةِ لابن عربي كقوله بإيمان فرعون وقوله بوحدة الوجود التي طغت على تآليفه وأهمّها كتابه (فصوص الحكم) فهل يريد شيخُنا أن يقولَ إن جميعَ تآليفِه فيها مقال؟ أجاب الشيخ وهو يقلّب الرسائلَ الثلاث بين يديه: اعلم يا عبدَ الله أنني قرأتُ ابنَ عربي وأنا لم أزل حَدَثاً، فأَحْدَثَ في نفسي ما أَحْدَثَ في نفسك. كنت أقرأه يومئذ بقلبي لا بعقلي. فأحببتُ شعرَه حباً كبيراً حتى كان ديوانه (ترجمان الأشواق) يرافقني في حلّي وتَرْحَالي.

وكم كنت أتمثّل بشعره لصحبي وإخواني كقوله:

بَانَ العزاءُ وبان الصبرُ إذ بانوا ... بانوا وهم في سُويداءِ القَلبِ سُكّانُ

سألتُهم عَن مقيل الركب قيل لنا: ... مقيلهم حيث فاح الشيحُ والبانُ

فقلت للريح سيري والحقي بهم ... فإنّهم عند ظلِّ الأيْكِ قطانُ

وبلّغيهم سلاماً من أخي شجن ... في قلبه من فراقِ القومِ أشجانُ

وكم كان يروق لي بيانُه ولغتُه الساحرةُ التي قد لا نجد لها نظيراً إلاّ عند مقدّمي شعراء الغزل كقوله:

ألا يا حمامات الأراكة والبان ... ترفقن لا تُضعفنَ بالشجو أشجاني

تَرَفَّقْنَ لا تُظهرن بالنوح والبكا ... خفيَّ صباباتي ومكنونَ أحزاني

وكنت أتحيَّر في بعض شعره كقوله:

لقد صار قلبي قابلاً كلَّ صورةٍ ... فمرعى لغزلانٍ ودير لرهبانِ

وبيت لأوثان وكعبة طائفٍ ... وألواح توراة ومصحف قرآن

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أدين بدين الحب أنى توجّهت ركائبُه فالحبّ ديني وإيماني

حتى وقفتُ على شرح لطيف لديوانه (ترجمان الأشواق) عنوانه (ذخائر الأعلاق) صنّفه ابنُ عربي لكشف بعض أسرار الديوان موضحاً فيه ما جاء في شعره من إرشادات حسيّة وأنّها لا تعدو أن تكون إيماءاتٍ إلى الواردات الإلهية والتنزلات الروحانية والمناسبات العلوية، وقد دعا فيه لقارئه بالعصمة من سبق الخاطر إلى ما لا يليق بالنفوس الأبيّة والهمم العلية.

ومذ ذلك الوقت وأنا أهيم بقراءة أشعار المتصوفة وكان أكثرَهم قرباً إلى نفسي ابنُ الفارض، وكم كنت أطرَبُ لقوله:

قلبي يحدّثني بأنّك مُتلفي روحي فداك عرفت أم لم تعرف

لم أقض حقّ هواك إن كنت الذي لم أقض فيه أسًى ومثلي من يفي

فلئن رضيت بها فقد أسعفتني يا خيبةَ المسعى إذا لم تُسعفِ

فالوجدُ باقٍ والوصال مماطلي والصبرُ فانٍ واللقاءُ مُسَوّفي

أخفيت حبكم فأخفاني أسى حتى لعمري كدت عنّي أختفي

وكتمته عنّي فلو أبديته لوجدته أخفى من اللطف الخفي

دع عنك تعنيفي وذق طعم الهوى فإذا عشقتَ، فبعد ذلك عنّفِ

وكان لفرط حبّي لشعر ابن الفارض أن جلستُ أقرأ ديوانَه بشرح البوريني والنابلسي ففتحت عيني على عالمٍ جديدٍ. . عالمٍ كله أسرار وخفايا، فحفظت الميميَّة وهي أشهر قصيدةٍ لابن الفارض بعد تائيته الكبرى.

إن قراءتي لشعر المتصوفة لم تجاوز ظاهرَ ألفاظهم ولذلك كنت أتجاوز عن كثير من المعاني التي تتعارض مع ظاهر الشرع، إلاّ أن ذلك لم يَدُمْ طويلاً حيث بدأتُ أعيد النظر فيما قرأتُ فهالني ما رأيتُ. ثم انقطعت أَمَداً عن القراءة في كتب هؤلاء، وانشغلت عنهم بالفقه والتفسير واللغة. . ولما عاودت النظرَ في تصانيف القوم لم أقبل ما فيها.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

قلت: هذه الرسائلُ الثلاث التي بين يديك ما تقول فيها؟.

قال: تعالَ يا عبدَ الله ننظر فيها واحدةً واحدةً. ولكن ألا تحبّ أن تعرفَ قبل ذلك قولَ أهلِ العلمِ في ابنِ عربي؟ قلتْ: بلى. قال: هو رجلٌ كثيرُ التآليف وقد وقع له في بعض تضاعيف كتبه كلماتٌ كثيرةٌ أشكَلَتْ ظواهرُها وكانت سبباً لإعراض كثيرين عنه لم يُحْسِنوا الظنَّ به وقد اعتذرَ عنه مَنْ أحْسنَ الظّنّ فيه بأن العباراتِ الموهمة التي استشكل فَهْمُها على العامة وبعض الخاصَّة ليس المرادُ ظاهرها وإنما المرادُ أمورٌ اصطلحَ عليها أهلُ الطريق غيرةً عليها حتى لا يدّعيها غيرُ أهلها فاصطلحوا على الكناية عنها بتلك الألفاظ الموهِمَة. وقد لخّص المناوي اختلافَ الناسِ فيه بقوله: «وقد تفرَّق الناسُ في شأنه شِيَعاً، وسلكوا في أمره طرائقَ قِدداً، فذهبت طائفةٌ إلى أنَّه زنديق لا صدّيق، وقال قوم: إنه واسطةُ عقدِ الأولياء، ورئيسُ الأصفياء، وصار آخرون إلى اعتقاد ولايتِه وتحريم النظر في كتبه ومن هؤلاء السيوطي في كتابه (تنبيه الغبي بتبرئة ابن عربي) والقول الفصل في ابن عربي اعتقاد ولايته وتحريم النظرِ في كتبه، وقد نقل عنه هو أنه قال: نحن قومٌ يُحْرَمُ النظرُ في كتبِنا.

وليس أدلَّ على حَيْرة العلماء في الحكم عليه من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية فيه على ما عُرِفَ عليه من إنكارٍ على المتصوّفة وحمله على مقالاتهم ونعتها بالفساد تارة وبالكفر تارةً أخرى. فهو يقولُ عنه في مطلع المقالة الأولى من رسالته في بيان (حقيقة مذهب الاتحاديين أو وحدة الوجود) «فهو أقربهم ـ أي القائلين بوحدة الوجود ـ إلى الإسلام لما يوجد في كلامه من الكلام الجيد كثيراً ولأنه لا يثبت على الاتحاد ثباتَ غيره، بل هو كثيرُ الاضطراب فيه، وإنما هو قائم مع خياله الواسع الذي يتخيَّل فيه الحقَّ تارةً، والباطلَ أخرى، والله أعلمُ بما ماتَ عليه» انتهى كلام المناوي.

وسوف تجد يا عبدَ الله حقيقةَ ما ذكره شيخُ الإسلام ماثلةً في رسائله الثلاث التي وضعتها بين يديّ. ولكن قبل أن أمضيَ في الحديث معك أحبُّ أن

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أنبِّهك ـ كما قد نبهتُك من قبل ـ أني قد أنْكِرُ على ابن عربي بعضَ مقالاتهِ ولكني لا أتكلّم عنه في ذاته، لأن الأصلَ عندي حُسْنُ الظن بالناس، والتماسُ الأعذار لهم. قلت: هذا وايمُ الله أصلٌ لا يَرُدّه إلاَّ دَعِيّ ولا يخالف فيه إلاَّ مكابرٌ. قال: أمَّا وقد استبان كلّ ذلك، فَتعال ننظر في رسالتِه الأولى (منزل القطب). اعلم يا بنَيَّ أن فكرةَ القطب وهي فكرةٌ فاسدة لا ريب روّجَ لها المتصوفة تحت أسماء مختلفة كالإنسان الكامل وخَاتم الولاية وقد خُلِع على المسمَّيات أوصافٌ لا يتصف بها إلاَّ الله. فالقطبُ عند ابنِ عربي مركزُ الدائرة (أي دائرة الوجود) ومحيطُها ومرآةُ الحق، عليه مَدار العالم. له رقائق ممتدة إلى جميع قلوب الخلائق بالخير والشر على حدٍّ واحدٍ لا يترجح واحدٌ على صاحبه، وهو عنده لا خير ولا شر ولكن وجود.. وله من البلاد مكة ولو سكن حيث ما سكن بجسمه فإنه محلّه مكة ليس إلاَّ.

ولا بدّ لكل قطب عندما يلي مرتبة القطبية أن يبايعه كل سر وحيوان وجماد ما عدا الإنس والجان إلا القليل منهم.. ولهذا رأيت من رأى الحية العظيمة التي طوّق الله بها جبل قاف المحيط بالأرض، وقد اجتمع رأسها مع ذنبها فسلّم عليها فردّت عليه السَّلام ثم سألته عن الشيخ أبي مدين الكائن بجابية من بلاد المغرب. فقال لها: وأنَّى لك بمعرفة أبي مدين؟ فقالت (أي الحية): وهل على وجه الأرض أحدٌ لا يعرفه. إن الله تعالى منذ وَضَعَ اسمَه على الأرض ما بقي منا أحدٌ إلاَّ عرفه. هذا حال المحبوب فكيف حال القطب الذي هذا المحبوبُ حَسَنَةٌ من حسناته.

تأمل يا عبدَ الله! وقد جعل ابنُ عربي للقطب إمامين واحداً عن يسارِه وآخر عن يمينه. وإذا مات القطبُ انتقل السرّ إلى الذي على يَساره. ويخلف هذا الإمام الجديدَ إمامٌ غيره. اسمع يا عبد الله إلى هذا الهراء!

فعبدُ الإله هو القطبُ وليس عند أحدٍ البتّة. وهذا الإمامُ المسمى عبد الرب هو الإمام الأكمل وله معرفة سرّ الأسرار، وله التدبيرُ الإلهي وله في العدد أسرارٌ إلهية لا يعرفها غيره. وله خمسة أسرار. السر الأول: سر الثبات وبه يعلم

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

حقائق الأمور، وبه يدبّر ويفصّل، ويولّد ويزوّج، ويعبّر عن سر الرموزات وفكّ الطلسمات، وأصول الأشياء الظاهرة والباطنة، والحقيقية وغير الحقيقيّة، وله خَرْقُ السفينة، وله إقامة الجدار وليس له قتل الغلام من حاله وكشفه فإن قَتَله يوماً فعن أمر القطب. ألا ترى يا عبدَ الله أن صاحبَنا يحكي قصةَ الرجلِ الصالح مع موسى؟. والسر الثاني: فهو سر التمليك به يرحم الضعفاءَ وينجي الغرقى، ويكسب المعدومَ، ويقوّي الضعيفَ، ويحمل الكلّ، ويعين على نوائبِ الحقّ، وأما السرّ الثالث: فهو سرّ السيادة وبه يفتخر ويبدي حقيقتَه فيقول أنا سيدُ ولد آدم، وإني أنا الله لا إله إلاَّ أنا وسبحاني وما في الجبة إلاَّ الله. انظر عبد الله كيف يخْلِط صاحبُنا بين الحقائق والأوهام فيجعل قولَ المصطفى ﷺ: «**أنا سيدُ ولدِ آدمَ ولا فخر**» كقول الحلاج والبسطامي. والسرّ الرابع: سرّ الصلاح وهو السرّ الذي يحمل الخلقَ على المكاره التي فيها نجاتهُم. وبهذا السرّ يحول بين الولدِ ووالدتِه وبين المتعاشقين وإن تحابّا واجتمعا لله وفي الله ويسعى في تفريق الشمس بين المخلوقات فإن هذا السر يعطيه بحقيقته أن الأشياءَ القلبيةَ لم يُخْلق بعضُها لبعض ولا يغيّرها إلاَّ الله. والسرّ الخامس والأخير: فهو سرّ التعدية وبه ينزل المطر ويدرّ الضرع ويطيب الزرع ويُحدث الشهوات. فهذه خمسة أسرار يختص بها هذا الإمام واسمه عبد الرب. وفي هذا المقام عاش الشيخ أَبو مدين إلى أن قرب موته بساعة أو ساعتين خُلِعَت عليه خلعة القطبية ونزعت عنه خلعة الإمامة وصار اسمه عبد الإله وانتقلت خلعته باسم عبد الرب إلى رجل ببغداد اسمه عبد الوهاب.

ذلك هو منزل الإمام الأكمل الذي على يسار القطب، وأما الذي على يمينه فهو الإمام الروحاني وهو صاحبُ حال لا صاحب مقام، مشتغل بنفسه من جهة مالكِه واسمه عبد الملك وإضافته إلى الخلق إضافة غير محضة. متمكن القدم في الروحانية. له علم السماء وليس عنده من علم الأرض خبر. وإذا كان الأول ـ أي الذي على يسار القطب ـ حظه اللوح والقلم الأعلى، فحظ هذا الثاني ـ الذي على يمين القطب ـ الإلقاء بما يناسب العلوّ.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

فتأمّل يا عبدَ الله إلى هذا الخلط العجيب. فتارة يحدِّثك عن بشر متمكِّن في البشرية وتارة ينقلب حديثه إلى ملاكٍ متمكِّن في الملائكية، وحيناً آخر يحدِّثك عن صفات لا يتصف بها إلا الله. قد تعجب وَحُقَّ لك أن تعجَبَ. فكلُّ هذه الآفات مصدرُها قولُه بوحدة الوجود وهي أنّ كلَّ موجودٍ هو عينُ وجودِ الله. هذا الكلامُ محض خرافة تفضي إلى تجريد الله من ألوهيته وربوبيته وخلعها على وَهْم باطلٍ سُمّي في الفلسفة (العقل الأول) وفي المسيحية (الكلمة) وفي التصوف (القطب) وللمتصوفة كلام عجيب في القطب والقطبية ولو تأملت كلامَ بعضهم في هذا الشأن لطارَ صوابُك لهولِ ما تسمع. دخل أبو علي وهو يحمل إبريقاً فيه شاي فسررتُ بذلك فالنهار كان بارداً.. وانقطع الشيخُ عن الحديث ريثما ننتهي من احتسائه.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT
Est. 2012 CE

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

العَارِفُ النّيْسَابُورِيُّ يكْمِلُ حديثَه عن خَتْم الولايةِ والإنسانِ الكاملِ والحقيقةِ المحمديَّةِ

التفتُّ نحو الشيخ وقلتُ له: هل غير ابن عربي يقول مثلَ مقالته في القطب والقطبية؟ أجاب: قول المتصوفة في القطب ومكانته يكاد يكون واحداً وإن اختلفت عباراتهم، وقد يسميه بعضهم الإنسانَ الكاملَ كما عند عبد الكريم جيلي أو خاتم الولاية كما عند الحكيم الترمذي. قلت: الترمذي؟ أليس هو صاحب السنن؟ قال: كلا. فصاحب السنن هو الإمام الحافظ محمَّد بن عيسى ابن سورة بن موسى بن الضحاك الترمذي الضرير، تلميذ الإمام البخاري، وقد توفي سنة تسع وسبعين ومائتين. وأما صاحب كتاب (خاتم الولاية) فهو محمَّد ابن علي بن الحسن بن بشر توفي في النصف الأول من القرن الرابع الهجري وهو صاحب كتاب (نوادر الأول في أحاديث الرسول). والقول بخاتم الولاية انتقل من الترمذي إلى ابن عربي في فصوص الحكم. وإن شئتَ يا عبدَ الله أن ترى ذلك جلياً فانظر (فصّ حكمة نفثية في كلمة شيْئية). فابن عربي يجعل خاتم الأولياء أعلى مرتبة من الأنبياء حيث يقول في ذاك الفصّ: «فالمرسلون لا يرون ما ذكرناه إلاَّ من مشكاة خاتم الأولياء. فكيف من دونهم من الأولياء؟».

ولابن قضيب البان في كتابه (المواقف الإلهية) كلام عن القطب.

قلت: يرحمك الله من ابن قضيب البان هذا؟ قال: هو عبد القادر بن

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

محمَّد أبو الفيض الحموي. وُلد في حماه سنة إحدى وسبعين وتسعمائة وتوفي بحلب سنة أربعين وألف من هجرة المصطفى.

وله كتاب (الفتوحات المدنية) ألَّفه على غرار (الفتوحات المكية) لابن عربي وكتابه (المواقف الإلهيَّة) نحا في نحو عبد الجبار النفري في مواقفه. فاسمع ما يقول في موقف القطبية:

«أوقفني الحقّ على بساط القطبية، وقال لي: الإنسان الكامل قطب الشأن الإلهي، وغوث الآن الزماني. أول ما أسلم له التصريف في قطر نفسه حتى يبلغ الأشد. ثم أسلم له ما وافقه من أقطار الأقاليم، ثم أسلم له الأرض، ثم يسلم له الملك، ثم يجمع له الملك والملكوت، وهذا هو النائب الرحماني». . فهل سمعت يا عبد الله هراءً أكبر من هذا. فماذا أبقى للباري الذي وصف نفسه بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ [آل عمران: الآية 26] وبقوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [يس: الآية 83] وبقوله: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: الآية 88] وبقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [الإسراء: الآية 111] اعلم يا عبد الله أن مثل هذه المقالات العجيبة ليست جديدة فلها ما يناظرها في عقائد الآخرين كاليهود والنصارى، وأشد ما تراها غلواً عند القرامطة والباطنية. ومن عجيب ما وقفت عليه خطبة تسمى خطبة البيان تنسب للإمام علي بن أبي طالب وليس فيها أثر من بلاغة أبي تراب. ومن قرأ نهج البلاغة لم يخالطه شك في فساد نسبة هذه الخطبة إليه. استمع يا عبد الله لبعض ما جاء في هذه الخطبة المنحولة، وقارن بين ما جاء فيها وما جاء في كلام المتصوفة عن منزلة القطب. جاء في الخطبة:

. . . ولمّا خطب الإمام رضي الله عنه خطبته الأولى، وكان حاضراً سويد ابن نوفل الهلالي، فقام إليه وقال له: يا أمير المؤمنين. أنت حاضر ما ذكرت وعالم به وبتأويل ما أخبرتَ؟ فالتفت إليه أميرُ المؤمنين ورمقه بعين الغضب، ثم قال له: ثكلتك الثواكل، ونزلت بك النوازل يا بن الجبان الخبائث والمكذِّب الناكث! سيقصر بك الطول، ويغلبك الغَول. أنا سر الأسرار، أنا شجرة

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الأنوار، أنا دليل السماوات، أنا خليل جبرائيل، أنا صفي ميكائيل، أنا قائد الأملاك، أنا حفيظ الألواح، أنا قطب الديجور، أنا البيت المعمور، أنا زاجر القواصف، أنا محرّك العواصف.. أنا إمام العفو، أنا سبب الأسباب، أنا أمين السحاب، أنا مسدِّد الخلائق، أنا محقِّق الحقائق، أنا الأول والآخر، أنا الباطن والظاهر» اقشعر بدني من هول ما سمعت فقاطعت الشيخ قائلاً: يا سبحان الله. هذا ادّعاء ألوهية صريح، ألم يقل الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: الآية 3]؟ قال: بلى ولكن لا تعجل واسمع البقية: جاء في الخطبة أيضاً: «أنا أم الكتاب، أنا فصل الخطاب، أنا منجد البررة، أنا سورة البقرة، أنا نخلة الخليل، أنا مبعوث بني إسرائيل، أنا ولي الأولياء، أنا ورثة الأنبياء، أنا ثبير الترك، أنا شملاص الشرك، أنا برستم الروس، أنا لولش الشدوس، أنا سلمة المكا، أنا دودين الخكا، أنا بدر البروج، أنا شنشا الكروج، أنا أوربا الزبور، أنا حجاب العقور، أنا إمام المحشر، أنا ساقي الكوثر، أنا يعسوب الدين، أنا إمام المتقين، أنا حافظ الكلمات، أنا مخاطب الأموات، أنا وارث العلوم، أنا هيولي النجوم، أنا شيث البراهمة، أنا بطرس الروم، أنا كنز أسرار النبوة..» هل سمعت يا عبد الله مثل هذا الهذيان قبل اليوم؟ أتدري ما حلّ بالسائل سويد بن نوفل؟ لقد صاح صيحة عظيمة، وخرّ ميتاً. ولأبي المعالي محمّد بن إسحاق صدر الدين القونوي المتوفى سنة إحدى وسبعين وستمائة كلام عن الإنسان الكامل لا يخرج عما سمعت ولا يبعد عنه أودعه في المرتبة الأربعين من كتابه (مراتب الوجود) والقونوي هو أشهر تلاميذ ابن عربي وقد تربى في حجره حيث تزوج ابن عربي من أمه. فاسمع قوله في الإنسان الكامل:

«... فالإنسان ـ الكامل ـ هو الحقّ، وهو الذات، وهو الصفات، وهو العشر، وهو الكرسي،. وهو اللوح، وهو القلم، وهو الملك، وهو الجن، وهو السماوات وكواكبها، وهو الأرضون وما فيها.. وهو الوجود وما حواه، وهو الحق، وهو الخلق، وهو القديم، وهو الحادث..» وهذا الكلام مع فساده ينسجم مع قول ابن عربي وتلميذه القونوي بوحدة الوجود، فصفات الألوهة التي

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تخلع على الإنسان هي تعبير عن اتحاد الخالق بالمخلوق، ومن هنا يتبين لك يا عبد الله مبلغ فساد دعاوى هؤلاء الناس. قلت: لكنني أرى لهم أصلاً يحتجون به. قال: وما ذاك؟ قلت: أحاديث يسوقونها عن الأبدال والأقطاب. ابتسم الشيخ وقال: ذكر ابن القيم في المنار المنيف أن أحاديث الأبدال والأقطاب والأغواث، والنقباء، والنجباء، والأوتاد كلها باطلة.

ويقول أيضاً: وأقرب ما فيها: «لا تسبوا أهل الشام، فإن فيهم البدلاء كلما مات رجلٌ منهم أبدل الله مكانه رجلاً آخر» إلاَّ أنه ضعيف لا يصح وقد أخرجه أحمد في مسنده ونصه: «ذكر أهل الشام عند علي بن أبي طالب وهو بالعراق. قالوا: العنهم يا أمير المؤمنين. قال: لا. إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: الأبدال يكونون بالشام، وهم أربعون رجلاً، كلما مات رجلٌ أبدل الله مكانه رجلاً، يُسقى بهم الغيث، ويُنتصر بهم على الأعداء، ويُصرف عن أهل الشام بهم العذاب» وعلته الانقطاع إذ لم يدرك راويه شريح بن عبيد الحمصي علياً. ويقول السخاوي في (المقاصد الحسنة): حديث الأبدال له طُرق عن أنس رضي الله عنه مرفوعة بألفاظ مختلفة كلها ضعيفة. وقد صحَّح السيوطي خبر الأبدال وألَّف في ذلك رسالة بعنوان: (الخبر الدال على وجود النجباء والأوتاد والأبدال) ذهب فيها إلى تواتر الحديث وهذا من غرائبه، ولعلي أحدثك عنها في مرة قادمة وإن أحببت النظر فيها فعليك بكتابه (الحاوي للفتاوى).

وإن شئت معرفة المزيد من هذه المضحكات فأصغ إلى ما يقوله الجيلي في كتابه الإنسان الكامل عن إبليس: «وهذا الجواب ـ أي قول إبليس لربّ العزة: أنا خير منه لما أمره الله بالسجود لآدم ـ يدل على أن إبليس من أعلم الخلق بالحضرة الإلهية وأعرفهم بالسؤال وما يقتضيه من الجواب..» ولا عجب أن يذهب الجيلي هذا المذهب فهو من القائلين بوحدة الوجود ووحدة الأديان حتى إنه يقول في تفسير كلمة التوحيد (لا إله إلاَّ الله) قولاً منكراً. فاسمع ما يقول عن لا إله إلا الله: «.. يعني الإلهية المعبودة ليست إلاَّ أنا، فأنا الظاهر في تلك الأوثان، والأفلاك والطبائع، وفي كل ما يعبده أهل كل ملة ونحلة، فما

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تلك الآلهة كلها إلاَّ أنا؛ ولهذا أثبت لهم لفظ الآلهة وتسميته لهم بهذا اللفظ من جهة ما هم عليه في الحقيقة تسمية حقيقية لا مجازية.. إنه أراد ـ أي الله ـ أن يبين لهم أن تلك الآلهة مظاهر، وأن حكم الألوهية فيهم حقيقة وأنهم ما عبدوا في جميع ذلك إلاَّ هو.. وكل ما أطلقوا عليه اسم الإله فهو أنا..» هل سمعت يا عبد الله قولاً أقبح من هذا القول! صمت الشيخ فلاح في خاطري أن أسأله عن الحقيقة المحمدية فقلت له: يا سيدي أحسب أنني قرأت في موضع ما أن الإنسان الكامل هو محمّد بن عبد الله النبي المصطفى المختار وهذا حسن إذ لا أرى من هو أكمل منه ولا أصفى ولا أنقى. قال: اعلم يا عبد الله أن القوم يقولون إن محمَّداً هو الإنسان الكامل ولا أرى مخالفاً لهم في هذا لو وقفوا عند ذلك، لكن الإنسان الكامل عندهم ليس محمّداً الذي نعرف ونحبّ. بل هو شيء آخر يسمونه الحقيقة المحمدية وهي كلام لا معنى له.. فلسفة لا طائل من ورائها، فهي عندهم: «الذات مع التعين الأول، ولها الأسماء الحسنى، وهي اسم الله الأعظم» فمن الواضح أن محمَّد الصوفية ليس بشراً، ولا رسولاً، وإنما هو الذات الإلهية. وأين ذلك من صريح قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: الآية 110] إذا أردت أن تعرف من محمَّد ﷺ فألق نظرة على ما ألف في شمائله وخلقه وطباعه وهي كثيرة، ولعل كتاب (الشمائل المحمدية) للترمذي صاحب السنن أقربها إليك، فإني رأيته ملقّى هناك عند ذلك الركن. تحرّكتُ حيث أشار فإذا الكتاب الذي ذكر. قال: اقرأ باب ما جاء في تواضع رسول الله ﷺ. فتحت الباب المذكور وقرأت أول حديث فيه: عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم إنما أنا عبد الله. فقولوا: عبد الله ورسوله**» قال الشيخ: هذا الحديث أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب (الأنبياء) وكذا الدارمي في سننه وأحمد في مسنده. اقرأ يا عبد الله حديثاً آخر. قرأت: «كان رسول الله ﷺ يعود المريض، ويشهد الجنائز، ويركب الحمار، ويجيب دعوة العبد، وكان يوم بني قريظة على حمار مخطوم بحبل من ليف». قال: هذا أخرجه الشيخان في

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

صحيحيهما وكذا ابن ماجه والترمذي في سننهما. قرأت أيضاً: «عن أنس بن مالك قال: حجَّ رسول الله ﷺ على رحل رثّ، وعليه قطيفة لا تساوي أربعة دراهم. فقال: اللهم اجعله حجّاً لا رياء فيه ولا سمعة» قال: أخرجه البخاري في كتاب الحجّ وكذا ابن ماجه في المناسك. قرأت: عن عائشة رضي الله عنها، قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ بيده شيئاً قط إلاَّ أن يجاهد في سبيل الله، ولا ضرب خادماً ولا امرأة» قال: أخرجه مسلم في الفضائل وكذا ابن ماجه في النكاح. قرأت: قال الحسين بن علي رضي الله عنهما: سألت أَبي عن سيرة رسول الله في جلسائه، فقال: كان رسول الله ﷺ دائم البشر، سهل الخلق، ليِّن الجانب ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب ولا فحاش، ولا عياب ولا مشاح ـ أي شحيح ـ» قال: هذا بعض من خبر طويل أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الأدب. هو ذا محمَّد المصطفى المختار. قلت للشيخ: ثمة أمور أخرى أريدك أن تحدّثني عنها. قال: انهض قد طال بنا المجلس وسلني عنها في الطريق. خرجنا بعد أن ودعنا أبا علي، وسرنا حتى ابتلعتنا زحمة السوق. اعترضنا فقير فأنشد:

ما الخير صوم يذوب الصائمون له ... ولا صلاة ولا صوف على الجسدِ

وإنما هو ترك الشر مطَّرحاً ... ونفضك الصدرَ من غلّ ومن حسدِ

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

العَارِفُ النّيْسَابُورِيُّ يستعرض بعض كتب التصوف النافعة ويستحثّ عبد الله المحجوب على قراءتها..

في وسط النهار يزدحم بالناسِ سوقُ سمرقند الكبير، فتراهم بين رائح وغاد، الكل يطلبِ سؤله، ويسعى إِلى رزقه غير مكترثين بما يدور حولهم إِلاَّ إذا رأوا غريباً مقبلاً نحوهم فإنَّهم يبتدرونه بوجوههم وتشخص إليه أبصارهم يعرضون عليه ما يتّجرون فيه.

كان التجار وكذا طلبةُ العلم يَفِدُون إِلى سمرقند من كل حدب وصوب، فمن الشمال يأتيها أهل طشقند ومن الغرب يقبل نحوها أهل بخارى ومن الجنوب يأتيها الأفغان من مزار شريف وهراة ومن الجنوب الغربي يأتيها أهل مشهد ونيسابور. كانت سمرقند في أيامنا تفتح ذراعيها لكل وافدٍ غريب، وكان أهلها لا يضيقون ذرعاً بأحد ولا يتبرَّمون من وجوده. كانت كقبة نجران تُشْبع الجائع وتؤمّن الخائف وتجير المستجير. هي ذي سمرقند التي جمعتني بشيخنا العارف، هو من نيسابور وأنا من طوس، على غير ميعاد.

جُلْتُ مع الشيخ قليلاً في وسط السوق حتى بلغنا البوابة الشرقية فخرجنا منها تاركين السوق وما فيه لأهله. وابتعدنا شيئاً فشيئاً عن الزحام والضوضاء، وبينا نحن نسير إذا بأناس يجرون وبعضهم يصيح: أَقْبَلَ، أَقْبَلَ. سألني الشيخُ: من تراه هذا الذي أقبل؟ قلت: لست أدري. استوقفت أحدَهم وسألتُه: ما بال

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الناس يجرون هكذا؟ رمقني الرجل بنظرة شزراء وكأنه استغرب سؤالي ومضى في طريقه يعدو شأن الآخرين دون أن أحصل منه على جواب. استمرّ الناس يجرون وكأنّهم حمرٌ مستنفرَة. كنت أحب أن أجري في إثرهم ولكن رفقة الشيخ حالت دون ذلك. تعمدت السير في الاتجاه الذي سار فيه الناس لعلي أدرك حقيقة ما يجري. أحسّ الشيخ بما أدبِّر فقال لي: الفضول مقتلة. ابتسمت للشيخ، ومضيت وكأنني لم أسمع شيئاً. سألني الشيخ العارف: ألا تحب أن نكمل حديثنا يا عبد الله من حيث وقفنا؟ قلت: بلى. وأحب أن أسمع رأيك في تينك الرسالتين اللتين لابن عربي. قال رسالة (لا يعول عليه) والرسالة التي بعث بها إلى الإمام الفخر الرازي. أليس كذلك؟ قلت: بلى. قال: الرسالة الأولى لا تخلو من اللطائف والفوائد، كما لا تخلو من الاضطراب. فتارة تسمع قولاً تستحسنه وتارة أخرى تسمع قولاً تنفر منه. فهو يقول مثلاً: كل علم من طريق الكشف واللقاء أَو اللقاء والكناية بحقيقة تخالف شريعة متواترة لا يعول عليه. وهذا كلام حسن لا ريب. وابن عربي يذهب في ذلك مذهب المتقدمين من المتصوفة الذين يقولون: كل حقيقة تخالفُ الشريعة باطلة، مع أن كلام ابن عربي هنا يتناقض مع أقواله في مواطن أخرى من كتبه، وأدلّ شيء على ذلك رسالته للفخر الرازي التي كانت بين يديك قبل ساعة حيث يعيب عليه فيها اشتغاله بالشريعة وتركه علوم الكشف والإلهام محتجاً عليه بتلك المقالة الفاسدة المنسوبة لأَبي يزيد البسطامي التي يقول فيها: «أخذتم علمكم عن الرسوم ميْتاً عن مَيت وأخذنا علمنا عن الحيّ الذي لا يموت».

ولكن لِمَ نمضي بعيداً، وهذه العبارة التي سقتها إليك من رسالة لا يعَوّل عليه فيها ما يدل على ما قلت. اسمع ما يعلل به كلامه وكيف أنه يأتي على أصل ما ذهب إليه بالهدم يقول: «.. ويكون ذلك الإلقاء أَو اللقاء أَو الكناية معلولاً غير صحيح، إلاَّ الكشف الصدري فإنَّه صحيح..» فالكشف إذا خالف شريعة متواترة لا يعول عليه إلاَّ الكشف الصدري. وهذا هو الاضطراب بعينه. إذ لا فرق هنا بين ما يسميه الكشف الصدري وضروب الكشف الأخرى كالكشف

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

البصري فكلاهما يحدث من خارجه فإذا تطرق لهذا الشك فلا يمنع أن يتطرق لذلك أيضاً، ولذا لا معنى للاستثناء هنا. ومن كلامه الحسن أيضاً في رسالة (لا يعوّل عليه) قوله: «كلّ علم حقيقة لا حكم للشريعة فيها بالرد فهو صحيح وإلاّ فلا يعول عليه» وأنت ترى ابن عربي هنا يجعل الشريعة حاكمة وأصلاً، وهذا صواب. ومنه قوله: «خرق العوائد والمزيد من الفوائد مع استحصاب المخالفات لا يعول عليه» وهذا أصل يتفق فيه مع المتصوفة المعتدلين الذين يقولون: «إذا رأيت الرجل يطير في الهواء أَو يمشي على الماء فلا تصدِّقه حتى تعرض أقواله وأفعاله على كتاب الله». وإذا وجدتها على خلاف ذلك فاعلم أنَّه استدراج من الشيطان عافاني الله وإياك من تلبيسه ووساوسه غير أن ابن عربي يبعد النجعة ويشتط في غرائبه فيقول: «التوحيد المدرك بالدليل العقلي لا يعول عليه» وهذا يتنافى مع دعوة القرآن الصريحة إلى التفكّر والتعقّل. والإقرار بواحدانيته لا يكون هنا إلاّ من جهة العقل، والعقل مناط التكليف، ولذا رفع القلم عن المجنون حتى يفيق والنائم حتى يستيقظ والناسي حتى يتذكَّر. تأمَّل في قوله تعالى: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: الآية 67] والمعنى أنه لو كنتم من أهل العقل لما كفرتم وأشركتم بالله ولأخلصتم له الربوبية والألوهية وهذا هو التوحيد.

قلت للشيخ العارف: ما الكتب التي تنصح بقراءتها لمن شاء أن يمشي في طريق السالكين؟ قال: عليك بمدارج السالكين لابن القيم وهو شرح لمنازل السائرين لشيخ الإسلام الهروي ويقع في ثلاثة مجلدات لا يستغني عنه طالب علم وقد جرَّده من أوهام الخرافيين المنتسبين إلى أهل الطريقة. وإن شئت كتاباً آخر أيسر على الفهم وأبعد عن رموز الطرقيين وجدل المتكلمين فعليك بكتاب (منهاج العابدين) وهو من أجلّ الكتب في موضوعه. قلت: ومن صاحبه؟ قال: ظننت أنك تعرفه لشهرته وانتشاره بين طلبه العلم. إنه للإمام أَبي حامد الغزالي وقد عدد فيه سبع عقبات تقف دون بلوغ العبادة الصحيحة، وجعل أولاها عقبة العلم والمعرفة. فلا عبادة بلا علم، وهذا أبلغ ردّ من رجل يعترف له بالإمامة

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

في فنون كثيرة كالفقه وأصوله، والمنطق، والتصوف على من يزعم أن العبادة لا تكون بعلم، فاستخفّ بعلوم الشريعة من فقه وتفسير وحديث تاركاً أمر العبادة لهواه يصرّفها كما يحلو له، وفاته أن عبادةَ الله لا تكون إلاَّ بدليل شرعي من آيةٍ محكمةٍ أَو سُنّة ثابتة، ولذا لا يُقْبل عملُ المرء، والعبادة عمل، حتى يكون خالصاً وصواباً. وإخلاصه أن يكون لله فلا يشرك معه أحداً فيه، وصوابه أن يكون على منهج الله ورسوله قلت: وهل ثمة كتب أخرى تنصح بقراءتها في هذا الشأن غير ما ذكرت؟ قال: نعم. هناك كتاب (قواعد التصوف) لأبي العباس أَحمد زروق وهو كتابٌ جليل كثير النفع، وقد جعله صاحبه في سبع عشرة ومائتي قاعدة صيغت في عبارات دقيقة موجزة سهلة الفهم بعيدة عن الغموض.

قلت: هل يحفظ شيخنا بعضاً من هذه القواعد فيطلعني عليها؟ قال: أحفظ بعضها. فاسمع: يقول صاحبنا في القاعدة الرابعة: «صدق التوجه مشروط بكونه من حيث يرضاه الحق تعالى وبما يرضاه، ولا يصح مشروط بدون شرطه فلا تصوف إلاَّ بفقه إذ لا تعرف أحكام الله الظاهرة إلاَّ منه. ولا فقه إلاَّ بتصوف إذ لا عمل إلاَّ بصدق وتوجّه. ولا هما إلاَّ بإيمان. إذ لا يصح واحدٌ منهما دونه، فلزم الجميع لتلازمهما في الحكم كتلازم الأرواح للأجساد» ويقول في القاعدة السادسة والعشرين: «حكم الفقه عام في العموم، لأن مقصده رسم الدين ورفع مناره، وإظهار كلمته. وحكم التصوف خاص في الخصوص، لأنه معاملة بين العبد وربه من غير زائد على ذلك. فمن ثم صح إنكار الفقيه على الصوفي، ولا يصح إنكار الصوفي الفقيه، ولزم الرجوع من التصوف إلى الفقه. والاكتفاء به دونه، ولم يكف التصوف عن الفقه، بل لا يصح دونه ولا يجوز الرجوع منه إليه إلاَّ به، وإن كان أعلى منه مرتبة، فهو أسلم وأعمّ منه مصلحة. ولذلك قيل: كن فقيهاً صوفياً ولا تكن صوفياً فقيهاً».

قلت: هل أطمع في المزيد؟ أجاب منشداً:

فيم اقتحامك لجّ البحر تركبه ... وأنت تكفيك منه مصّةُ الوشَل

أدركت ما يرمي إليه الشيخ فآثرت الصمت، ولفرط ما استغرقنا من حديث

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لم أشعر أننا قطعنا كل هذه المسافة.. وعند أول منعرج بدا لي عن بعد جمهرة من الناس اجتمعوا في حشد كبير عند شجرة بلوط عظيمة يطلق عليها أهل سمرقند اسم شجرة المساكين، وكلما اقتربنا من الحشد ارتفعت الأصوات وكانت خليطاًمن أصوات مبهمة يتخلَّلها أصوات المزامير وقرع الدفوف. أدركت الآن سرَّ الذين صادفناهم في الطريق يجرون. دنَوْنَا أكثر فإذا الناس في حالة جذب وقد التفوا بشيخ ذي لحية كثّة، غائر العينين، في وجهه شحوب، يرتدي ثوباً مرقعاً طويلاً. سألنا أحدهم عن هذا الرجل، فأجاب: ويحك هذا سيدي أَبو البركات ذو المرقعة، يأتي إِلى هنا عند مطلع الهلال في كل شهر قمري فيجتمع إليه الناس يلتمسون بركته.

ارتفعت أصوات الناس، وانقلبت الأصوات إِلى صخب وضجيج.. تسللنا داخل الجموع حتى أصبحنا في قبالة أَبي البركات الذي كان يدور حول نفسه وهو يصيح: حيّ، حيّ. ثم لم يلبث أن سقط مغشياً عليه، وتساقط معه خلق كثير. أحضر أحدهم ذنوباً من الماء وأهرقه على وجه أَبي البركات فأفاق من غشيته، ثم خلع ثوبه الطويل المرقع وشرع يمزقه ويلقي بمِزَقِه على الحاضرين الذين تدافعوا للحصول عليها رجاء البركة.

تراجعتُ مع الشيخ إلى الوراء مخافةَ أن تدوسنا الأقدام خاصة أن كلينا ليس ممن يطمع في الحصول على رقعة من تلك الرقع... ابتعدنا شيئاً فشيئاً عن الجمهور في صمت مطبق حتى غاب جمعهم عن أنظارنا. نظر الشيخ نحوي وأنشد:

الكونُ بالمزعجات الكُثْر ممتلئ　　والجسم من ضعفه لم يستطع هَرَبا
أعيش جنب هوام بالثرى التصقت　　والقلب يبغي له في الجوّ مضطربا

رفع الشيخ رأسه إلى السماء وكأنه يناجي ربه، وسمعته يتمتم:

إلهي لقد أعطيتني الحسَّ وافراً　　وصيرت عيشي مفعماً بالصواعقِ
فمن يصدم الوهم الدقيق فؤاده　　أيحمل يا ربي صخورَ الحقائقِ

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT
Est. 2012 CE

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الجَمَالُ والجَلالُ والفِرَارُ إلى اللهِ

سألني الشيّخ العارفُ: هل جَرَّبْتَ يا عبدَ الله أن تخرجَ يوماً إلى الخلاء لغير غايةٍ ولا مقصدٍ إلاَّ أن تعفّرَ قدميكَ قليلاً في التراب؟

قلتُ: ما خَطَر في بالي شيءٌ كهذا قط. قال: تعالَ إذن نَضْرِب في الأرضِ على غيرِ هُدًى، وسوف تكتشفُ شيئاً جديداً لم تختبِرْه من قَبْل.

قلتُ: وما ذاك؟ قال: إحساسٌ بالنَّشوَة يخالطها شيءٌ من الترقّب والخَوف.

كالملاّح يَمْخُر عُبَابَ المحيطِ وقد أضاعَ طريقَه، وانكَسَر سُكّان سفينتِه وهو يترقّبُ جزائرَ النجاةِ.

سَكَتَ الشَّيخُ قليلاً واضعاً يدَه على جبهتِه كأنَّه تذكّر شيئاً، ثم قال: أتدري يا عبدَ الله ما الفرق بين الجَمَالِ والجَلال؟ قلتُ: وهل ثَمّة فرقٌ بينهما؟ قال: الجمالُ رؤيةٌ من الخارج، والجَلالُ معاينَةٌ من الداخل. قلتُ: لم أفهم. قال: الجَلالُ يا عبدَ الله جَمَالٌ مصحوبٌ برهبةٍ. قلتُ: زِدْني إيضاحاً. قال: تَأمّل لو وَقَفْتَ أمام الشاطئ فأبصرْتَ سفينةً تتهادى في عرْض البحر كالنّمل، فَأَعْجَبَتْكَ وَأَغْرَتْك بُركُوبها فذلك هو الجَمَالُ.

حتى إذا وَجَدْتَ نفسَكَ على ظهرِها هَاجَتْ عَناصرُ البَحْرِ الغَضوبِ فَتَقَاذَفَتِ السَّفينةَ الأمواجُ فما بَقِيَ للجمالِ في نفسِك مَكانٌ، مع أن السّفينةَ هي

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

السفينةُ والبَحْرَ هو البَحْرُ، وكلُّ ما زَادَ عليكَ هو الرّهبةُ والخَوْفُ وذلك هو الجلالُ. وأنتَ على البرِّ تُبْصِرُ الجَمَالَ فَتُحسّ بالأنس، وأنتَ في البحرِ تُعايِنُ الجَمَالَ فَتَحُفكَ الرَّهْبةُ. وهذا هو الفَرْقُ بين الجمالِ والجلالِ.

قلتُ: هذا والله حَسَن. لكنّني لم أهتدِ بَعْدُ إلى صِلَةِ هذا الكلام بما كُنّا فيه من حديث. قال: الخروجُ إلى البريَّةِ هو أوّل عَتَباتُ الدّخولِ إلى الجَلال، ولذلك كان الأنبياءُ يتَحنّثُون في الجبالِ والأوديةِ والمفاوز بعيداً عن الناس قَبْلَ البعثةِ طلباً للجلال. وقد يحتاجُ المرءُ من حينٍ إلى آخرَ أن يَخْرُجَ إلى البريَّةِ بعيداً عن الناسِ حتى يخلوَ بنفسِه ويُلْقِي مِن على عاتِقِه ما أثقلَه من أعباء، نابذاً وراء ظهره ما تنازَعَ فيه البَشَرُ. . هي سويعاتٌ يا عبدَ الله يفرّج فيها العبدُ عن نفسِه فيقذفُ بكلّ ما يضطرمُ في جَوْفه من ثورةٍ وما يَحتَبِس في صَدرْه من غليانٍ. سَكَت الشيخُ ثم أنشد:

وأخْرُج من بين البيوتِ لَعلَّني ... أحدِّثُ عنك النفسَ بالسرِّ خاليا

قال: يا عبدَ الله أتدري معنى قولِه تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [الذرايات: الآية 50]؟ لم ينتظر جَواباً مِنّي وكأنَّه أحسَّ بِعَجْزي عن الجواب، وقال: الفِرارُ إلى الله سِرُّ الأسرار، لو وَضَعْتَ يَدَك عليه لهانَ أمامك كلُّ خَطْبٍ وأوّلُ مراتبِ الفرار إلى اللهِ، الهروبُ من أكدارِ، النّفْس، وهُمُومِ الرّوحِ.

وثانيهما: الهُروبُ من الذّنوبِ بطَلاقِ المعاصي، **وثالثُهما**: أن يَسْتَيْقِنَ العبدُ أن لا ملْجأَ منه إلاَّ إليه، **ورابعُها**: صِحَّةُ النّيَّةِ وصِدْقُ التّوجّهِ.

وآخِرُها: الفِرارُ من النّاسِ إلى رَبِّ النّاسِ. وعَلامَةُ هذه المرتَبَة الزّهدُ فيما في أَيْدي الخلائقِ. وإذا تَنازَعَ سَوادُ الخَلْقِ على شيءٍ فذلك دليلٌ على خِسَّته، وإذا اجتمَع الأخْيارُ على شيءٍ فتلك علامةٌ على نَفَاسَتِه.

قلتُ: هذا يذكّرني بشعرٍ حَسَنٍ يُنْسَبُ إلى الإمامِ الشافعيِّ في ذمّ الدنيا.

قال: هاتِ أسمَعنيه. قلتُ:

مَنْ يَذُقِ الدّنيا فإني طَعِمْتُها ... وسِيق إلينا عَذْبُها وَعَذابُها

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وما هِي إلاَّ جثةٌ مستحيلةٌ عليها كلابٌ هَمّهُنَّ اجتذابُها
فإن تَجْتَنِبْها كنتَ سَلْماً لأهلها وإن تَجْتَذِبْها نازَعَتْك كِلابُها

قال: صَدَقَ وَالله. لقد اجتَمَعوا على خسيسٍ وافْتَرقُوا على خَسِيس. هلمَّ عبدَ الله نَفِرّ إلى اللهِ ساعةً من زمان.

سِرْنا حتى انتهينَا إلى بَطْنِ وادٍ يَنْحَدِرُ فيه الماءُ من قننِ الجبالِ التي تُحِيطُ به إحاطة السّوارِ بالمعْصَم. نظر الشيخُ يمنةً ويسرةً ثم قال: هذا مكانٌ ينفعُ لما جِئنا من أجلِه. فهل تَرْغَبُ حَقّاً يا عبدَ الله أن تخوضَ غمارَ هذه التّجْرِبة؟ قلتُ: نعم. قال: انفَرِد بنفسِك وَصُمْ عن الكَلام ولا تخاطِبْني بشيء حتى أحدِّثك. قلتُ له: الصَّومْ عن الكلامِ أوَّلُ الطّريقِ إلى التأمّل ومحاسَبَةِ الذّات. قال: صَدَقتَ. وهذا معنى قوله تعالى لمريم البَتُول: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: الآية 26] قلت: وقوله تعالى مجيباً زكريا لَمّا سألَه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: الآية 41] قلت: ولكن يا سيدي هذا شَرْعُ مَنْ قَبلَنا، وهو لَيس بشرعٍ لنا. قال: صَدَقتَ. وإن كان في المسألة خلافٌ مبسُوطٌ في كتب الأصول. ولكنّ صَوْمَنا عن الكلام هُنا لا نَقصدُ به عبادةً، ولا نَذْراً، وإنما نستعينُ به على مُجَانَبَةِ السّوى ومُخَالفَةِ الأغيارِ. قلت: أهو تدبيرُ المتوحِّدِ كما يراه أَبو بكر بنُ الصائغ؟ قال: لا. فتدبيرُ المتوحِّدِ لابن الصائغ والمعروفُ عندنا بابنِ باجةَ أمرٌ آخر. سَلْني عنه حين نعود فآتيك مِنه بخبرٍ. هيا انتح جانباً وافتح مغاليقَ نفسِك وانفُث ما فيها ولا تَتَحرَّج. ابتعد الشيخُ العارفُ قليلاً ثم وَقَفَ. انحنى مَادّاً يدَه إلى الأرض وَقَبَضَ قَبْضَةً من الترابِ ثمّ رَماها في الهواء. التفتَ إليَّ وقال: أتدري عبدَ الله؟ هذه قبْضَةٌ من ثَرًى فيها كُلُّ عَناصِرِ الأرضِ، وهي مع ذلك أضْعَفُ ما في الأرض تَذْروها الرّياحُ حَيْثُ تَشَاء.. قلتُ: ولكنّها لا تَلْبَثُ أن تعودَ إلى رَحِمِ أمِّها. قال: أحسنتَ. قَبَضَ الشيخُ قبضةً ثانيةً من طينِ الوادي وعَجَنها بالماء وَجَعَلَ منها شيئاً يُشْبِه جِسْمَ البَشر، ثم أَخَذَ حُزْمَةً من الأعوادِ اليابسة وأضْرم فيها النارَ وجعل

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

فوقَها ذلك الشّيءَ الذي صَنَعَ. انتظر الشيخُ نَحْوَ ساعةٍ، وأنا أرقبُه في صمْتٍ. ثم دَنَا من الرَّماد وأخْرَجَ ذلك الشيءَ فإذا هو صَلْصَال كالفَخّار.

اقتربَ مِنّي ووضَعه على صَخْرةٍ كانَت على يميني ثم هَوَى عَليه بعَصَاه فتناثَرَ قِطعاً كأن لم يَكُن. زَفَر الشّيخُ زَفْرةً كأنَّها نَفْثةُ مَصْدورٍ، ثم رَفَع رأسَه إلى السَّماء وصاحَ: يا رَبّ. تردّد صَدَى الصَّيْحَةِ في جَنَبَاتِ الوادي، واعْتَرَتْني قُشَعْرِيرَةٌ لم أعْرِفها قَبْل اليوم. مَضَى الشيخُ نحو المشْرِقِ وجلس فوقَ صَخْرةٍ كبيرةٍ يبدو أنَّها هَوَتْ من الجَبَلِ فَتَدَحْرَجَت حتى بَلَغَتْ مَدْخَل الوادي. وراحَ الشّيْخُ في صَمْتٍ عميقٍ مَادّاً وجْهَه صَوْبَ القِبْلَةِ.. وأدركْتُ أنّ الشيخَ قد غَابَ عن نفسِه ومَنْ حَوْله لمّا رأيتُ الطيورَ تَحُطُّ حَوله في هدوءٍ، ولفَرْطِ سكينةِ الشّيخِ حَطّ طائرٌ على رأسِه، وكأنَّه يَحُطُّ على غُصْنِ شَجَرَةٍ... والشيخُ غير آبِهٍ لما يَدُور حَوْله. كانَ هذا المنْظرُ الفريدُ أجْملَ ما وقعت عليه عيناي:

ابتسمْتُ، وتذكّرتُ قولَ الإمامِ الغزاليّ:

عِـلْـمُ الـمَـحَـجَّـةِ واضِـحٌ لـمـريـدِه ... وأرى القلوبَ عن المحَجَّةِ في عَمَى

ولـقـد عَـجِـبْـتُ لـهـالـكٍ ونَـجَـاتُـه ... مَـوجـودةٌ ولـقـد عَـجـبْـتُ لـمـن نَـجَـا

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

عَنِ الغَفْلَة واكْتِشَاف الذّات

مضى الوقت سريعاً، وآذنت الشمس بالمغيب.. تزاحمت الأفكار في رأسي يدفع بعضها بعضاً. لم أكن أتصوّر أن هذا القدر من خاطرات النَّفس يمكن أن يلمع فجأة في عقلي الكليل. أدركت أن الغفلة حجاب، وأن الحجاب حرمان والحرمان شقاء. تذكرت قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: الآية 22] انحدرت دمعة من عيني.. غالبتها فغلبتني، فطفرت أخرى، فأخرى حتى ابتَلَّ طرف ثوبي وأنا أمسح به ما ترقرق من عيني. استحييت أن تنقلب عبراتي إلى نشيج فيسمعني الشيخ العارف.. كنت وقتها أرى دمع الرجال منقصةً. وطالما تمثَّلت عند حدوث الملمات بقول أَبي فراس:

أراك عصيّ الدمع شيمتك الصبر ... أما للهوى نهي عليك ولا أمر

نعم أنا مشتاق وعندي لوعة ... ولكن مثلي لا يُذاع له سرّ

كيف لا أبكي والانتباه من الغفلة يورث شيئاً من الخوف.. الخوف من التفريط، التفريط في جنب الله.. والتفريط في حقّ النفس.. والتفريط في حقوق العباد وما أكثرها. فلا ضير إذن أن تفلت دمعة أو دمعتان. تذكرت قول الشريف الرضيّ:

الذنب لي أني جزعت وعنونت ... عني دموع العين وهي سواكب

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تجمع في خاطري دفعة واحدة كلّ ما أحفظه من آيات تحذِّر من الوقوع في براثن الغفلة. ويح نفسي كم هي ثقالٌ حُجُبُ الغفلة، ما هتكْتَ حجاباً حتى نَسَجتْ حولك حجاباً غيره. ألم يقل الله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: الآية 1] أوليس هو القائل جلّ علاه ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ [مريم: الآية 39] وهل يكفي المرء الاعتذار بالغفلة، وقد لجّ في عتوٍّ ونفور؟ الاعتذار في الآخرة بالغفلة كالاعتذار بالجهل في الأولى، وإن كانت الغفلة أشد وطأة من الجهل، إذ يستوي فيها العالم والجاهل، ولربما كانت غفلة العالم أشد نكيراً من غفلة الجاهل، ولذلك وصف البارئ أهل الغفلة بأنَّهم كالأنعام، قال: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: الآية 179] والغفلة ظلم، والغافل ظالم لنفسه وهذا معنى قوله تعالى: ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: الآية 97]. انحدرت الشمس وراء الجبل، وانتشرت حمرة الشفق في الأفق. اتجهت صوب القبلة ورفعت صوتي بالأذان: الله أكبر. انتفض الشيخ العارف وعاد إلى وعيه. نزل من على الصخرة، واقترب من مجرى الوادي وشرع يتوضأ. صلينا المغرب.. ثم أعقبناه بركعتي نفل. نهض الشيخ ونهضت معه، ثم أخذنا طريقنا إلى البيت. سرنا نحو ساعة لا يكلم أحدنا الآخر. قلت في نفسي: الشيخ لن يتكلَّم ما لم أبدأه بالكلام، وذلك ما عوَّدنيه. أخذ الشيخ العارف يمد خطاه.. أدركت أنه يريدنا أن نبلغ الدار قبل أن يحل الظلام. تسارعت خطواته وأوشك أن يبتعد عني لولا أني طفقت أهرول. عجبت للشيخ كيف يسير على هذا النحو، وكأنه فتى في ميعة الشباب، وأنا ابن العشرين لا أقوى على مجاراته في ذلك...! لم تنقض ساعة أخرى حتى وجدنا أنفسنا بباب الدار، جلس الشيخ حيث انتهت به قدماه.. دسست يدي في جيبي وأخرجت المفتاح، لكن الباب لم يكن مرتجاً فقد انفتح ولما يلج المفتاح القفل... ساورتني شكوك أن زائراً زار الدار في غيبتنا. ضحك الشيخ وكأنَّه قرأ ما في رأسي من هواجس، وقال: هوِّن عليك عبد الله فما في دارك لا يجذب الزوار، وبضاعتك لا سوق لها في هذا الزمان فاطمئن.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

دخلت الدار أتحسس المصباح حتى وقعت عليه، فأشعلته. كان ضوؤه شحيحاً. جلس الشيخ وجلست إلى يمينه.. كان مهيباً مجللاً بالوقار متواضعاً، لين الجانب.. ملؤه العطف والرحمة، بادرني قائلاً: إيه عبد الله حدِّثني ماذا وجدت في الخلاء. قلت متعالماً: وجدت نفسي. قال: وأين أضعتها؟ فاجأني بسؤاله، فقلت: في دنيا الناس. قال: وماذا أيضاً؟ قلت: شعور خالجني وقد استبد السكون بالوادي أن هذه العوالم محكومة بنواميس، وأن كلّ ما يجري ويدور في هذا الكون الفسيح إنما يجري لغاية دبرها من يصرِّف الوجود ويرعاه، قال: أحسنت يا بني.. لقد وضعت قدمك على أول الطريق. سكت الشيخ قليلاً ثم سمعته ينشد:

وغيرك يعمى عن معانٍ مضيئةٍ كما تقبض اللحظ البروق اللوامع

يا عبد الله، إذا وقفت بالباب فلا يمنعنّك كبر أَو حياء أن تطرقه، وإلاّ رجعت خائباً كما جئت، وحذار أن يتسلل اليأس أَو القنوط إلى نفسك إن لم تسمع جواباً. سكت مرَّة أخرى ثم أنشد:

لا تيأسن وإن طالت مطالبة إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا

أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

قال: الإيمان الإيمان. قلت: وما علامته؟ قال: لا تسل عن علامته، وسل عن السبيل إليه. قلت: وما السبيل إليه بربك؟ قال: تقوى الله والتسليم بقضائه، والتصديق بخبره. قلت: أليس هذا هو معنى حديث جبريل الذي رواه أصحاب السنن في حدّ الإسلام، والإيمان، والإحسان؟ قال: بلى. والإيمان يا عبد الله، منحة إلهية، وعطاء رباني يفوز به المخلصون، اسمع يا بني:

لعمرك ما الإيمان بغية تاجر ولكنه فيض من الحق والسّنا

يشعُّ على من شف كالدر قلبه ويرتد عن قلب من الصخر كوِّنا

قنعت بإيماني من الله بغية فهذا غنى النفس وهذا هو الغنى

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ولم أر كالإيمان للمرء لذة إذا ذاق يوماً طعمها احتقر الدُّنى
هنيئاً لكل المؤمنين يقينهم فأشقى جميع الخلق من ليس مؤمنا

قلت: بالله عليك لمن هذا الكلام الحسن. قال: هو من شعر الصافي. قلت: والله لا يقوله غيره. قال: هل قرأت شعره، قلت: بل أنا مفتون به، وأحفظ له في الإيمان أبياتاً حسنة. قال: هات أنشدنيها. قلت:

راح يقوى على المدى إيماني فبربي قد امتلى وجداني
قيل لي هل عرفته بدليل أَو بحسّ شهدته أَو عيان
قلت: كلا إيمان قلبيَ أقوى من دواعي الحواس والبرهان
واضح لي وضوح روحي وعقلي ماثل في مداركي ككياني
هو رمز الوجود سرّ التجلي هو روح الأكوان معنى المعاني
كلما عفتهُ رجعت إليه كرجوع الأفياء للأغصان
فاعتقادي بالله روح وجودي وجحودي له انتحار ثان
ممسك بي وإن تخليت عنه حافظ لي وإن تركت عناني
فهو شرحي لدى انقطاع بياني وهو نطقي يوم انعقاد لساني
كل جسمي زوائد وفضول أبعدتني عن مبدع سوّاني
وسيفنى جسمي غداً وسأبقى وهو باق وكل شيء فانِ

قال: خذ من شعره أيضاً:

الكون سجن زجاج يشف عما وراه
نبغي الخروج ولكن يصدنا منتهاه
كالنحل لما رماه بين الزجاج شقاه
فيصدم الجنح ظنّاً أن الزجاج فضاه

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

حتى تحطم جهلاً ... من سعيه جانحاه
وعانق الموت يأساً ... حتى هوت أشلاه
وطار بالروح حرّاً ... سعياً إلى مبتغاه
فلم يعقه زجاج ... قد عاق قدْماً مناه
ما عاقنا غير جسم ... بلاؤنا من بلاه
نطير حيث أرادت ... نفوسنا، لولاه

أطرق الشيخ ساهماً.. وشردت بي الأفكار، فأطلقت لها العنان لعلي أصيب شيئاً من عالم الخيال ما عجزت عن نواله من واقع الحال.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT
Est. 2012 CE

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

عن مراتبِ اليقينِ

وقفت إلى يمين الشيخ العارف بين يدي ربّ العزة لأداء صلاة العشاء مستحضراً عظمة البارئ ولطفه. قرأ الشيخ في الأولى فاتحة الكتاب وقوله تعالى من سورة الأنعام: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنعام: الآية 43] إلى قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام: الآية 59] وقرأ في الثانية بعد الفاتحة سورة التكاثر ولما بلغ قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: الآيات 5 ـ 7] زفر زفرة كادت تفيض معها روحه، بدا لي أن كل موضع في بدنه يرتعد فرقاً وأحسست بحرارة تنبعث منه كالوهج، وقد بعث ذلك في نفسي شيئاً من الخوف، لم يكد الشيخ يسلِّم حتى أمَلْتُ بصري نحوه فهالني أن رأيت وجهه يتفصد عرقاً. سمعته يتمتم بأشياء لم أتبينها وأغلب الظن أنَّها أدعية مأثورة وأذكار اعتاد الشيخ أن يرطب بها لسانه دبر كل صلاة. صليت ركعتي نفل ثم أوترت بثلاث، نهض الشيخ واقفاً بعد أن تنفل بركعتين خفيفتين دون أن يوتر. عرفت من أحوال الشيخ أنه لا يوتر إلاَّ قبيل الفجر لأنه اعتاد أن يقوم ثلث الليل الأخير متهجداً. اتجه صوب النافذة وألقى ببصره نحو السماء المعتمة وقد رأيته يفعل ذلك مراراً وكأنه يناجي سكان السماء، أو يترقب هاتفاً يأتيه من بين السدف. اقتربت منه ورحت أحاكيه فيما يصنع وظللت أحدق في السماء. لم أتمالك نفسي لجلال الموقف، فقلت: ما

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أضيع الإنسان في هذا الكون الفسيح! التفت الشيخ نحوي وكأن كلامي قد أعاد إليه وعيه، وقال:

دواؤك منك وما تشعر ... وداؤك فيك وما تبصر

وتحسب أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر

قلت: صدقت. كانت هذه والله الساعة التي أنتظر لأكمل مع الشيخ ما بدأته من حديث. تذكرت سورة التكاثر التي قرأها في الركعة الثانية والآيات التي وقفت عندها فاضطربت روحه، فقلت له: ما الفرق بين علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين؟ قال: تلك مراتب اليقين يا عبد الله أدناها علم اليقين وأعلاها حقّ اليقين.

وإذا أحببت أن تدرك ذلك فاعلم أولاً أن العلم علمان: علم نظر وعلم ضرورة، والأول طريقة الاستدلال، والثاني ما لازم النفس لزوماً لا ينفك عنها كالخبر المتواتر الذي يرويه الكافة عن الكافة، وهم الجماعة من الناس، بحيث يستحيل تواطؤهم على الكذب، وأن يكون منتهى الرواية الحسّ، وكالعلم بالبديهيات والمسلَّمات أَو أوليات العقل على رأي أكثر الحكماء كالقول بأن الجزء أصغر من الكلّ، وأن الاثنين أكثر من الواحد وأن المحدود ينتهي وأن ما كان له أول فلا بدّ أن يكون له آخر، وبدائه العقول هذه تفضي إلى العلم الضروري. والعلم النظري يفيد الظن، وقد يبلغ أحياناً درجة الظن الراجح إذا احتفّت به القرائن، والعلم الضروري يفيد اليقين والقطع. وهذا اليقين هو الذي تسأل عنه، فإذا تبينت ذلك يا عبد الله فاعلم أن الفرق بين علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين كمن أخبرك أن عنده عسلاً وأنت لا تشك في صدقه فهذا علم اليقين، ثم أراك إياه فازددت يقيناً وذاك هو عين اليقين، ثم أذاقك منه فذلك حق اليقين. وهذا المثال من لطيف أجوبة ابن القيم في «مدارج السالكين» وزاد على ذلك فقال في المدارج أيضاً: «فعلمنا بالجنَّة والنَّار علم يقين لأن طريقه الخبر الصادق ـ ويريد بالخبر الصادق هنا ما جاء في التنزيل ـ فإذا عرضت الجنَّة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين فذلك عين اليقين لأنها مشاهدة ـ وليس الخبر كالعيان ـ وإذا دخل أهل الجنَّة الجنَّة، وأهل النَّار النار فذلك حقّ اليقين».

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وللهجويري في كتابه «كشف المحجوب» كلام حسن في بيان الفرق بين مراتب اليقين الثلاث نقلاً عن بعض أشياخ الطريقة، إن أحببت أسمعتك إياه، قلت: إني والله لأحب ذلك، قال: «علم اليقين عند طائفة هو العلم بمعاملات الدنيا وأحكام الأوامر، وعين اليقين هو العلم بحال النزع وقت الرحيل عن الدنيا» ولعل ذلك يا عبد الله معنى قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ * وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ [القيامة: الآيات 26 ـ 30] ومرادهم من حق اليقين ـ والكلام للهجويري ـ: «هو العلم بكشف الرؤية في الجنَّة وكيفية أحوالها بالمعاينة، فعلم اليقين هو درجة العلماء بحكم استقامتهم على أحكام الأمور، وعين اليقين هو مقام العارفين بحكم استعدادهم للموت، وحق اليقين هو محل فناء الأحبة بحكم إعراضهم عن كل الموجودات. فعلم اليقين بالمجاهدة، وعين اليقين بالمؤانسة، وحقّ اليقين بالمشاهدة.

«والأول: عام، والثاني: خاص، والثالث: خاص الخاص» والفرق عندي بين هذه المراتب أن علم اليقين يكون بالكسب، وعين اليقين بالمشاهدة، وحقّ اليقين بالكشف.

قلت: فما تفسير السورة في هذا السياق؟ قال: قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: الآيتان 1 و2] معناه والله أعلم: شغلكم التباهي بالكثرة في المال والولد عن طاعة الله والتفكّر في ملكوته حتى أدرككم الموت فأصحبتم من سكّان القبور، وقوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: الآيتان 3 و4] تكرار للتأكيد «وكلا» حرف ردع وزجر وتكون بمعنى «حقاً» أي يقيناً، والعطف بثم يراد به الترتيب ولكن على التراخي، والمعنى أنّكم أيها الغافلون ستتيقنون من حقيقة الموت وأنتم في النزع الأخير، ومن هنا كان الموت حقيقة لا يجادل فيها أحد، وهو بوابة الآخرة، ثم يزداد يقينكم بعد ذلك عندما تعاينون حقيقة الحشر.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: الآية 3] الأولى يناظرها قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: الآية 5] وقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: الآية 4] الثانية يناظرها قوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: الآية 7] واليقين بمعنى التقين صفة لمحذوف أَو صفة للعلم من باب إضافة الصفة للموصوف، وحذف جواب «لو» ليطلبه العقل من الشرط وما سبقه. ونظير ذلك قولك متحسراً أَو متلهفاً: «آه يا فلان لو تقابلني غداً» والجواب: «أفعل بك كذا وكذا» وهو محذوف يعرف من السياق، وقوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ [التكاثر: الآية 6] جواب قسم مضمر أكّد به الوعيد وشدد به التهديد.

قلت: وهل يطمع السالك أن يظفر بأعلى مراتب اليقين؟ قال: حبّ الله مفتاح كل موصود. ولو أحببت الله حقاً كما ينبغي لجلال مقامه وعظيم سلطانه لكشف لك من آلائه ما ينوء بحمله العصبة أولو العزم، قلت: أليس ذلك معنى قول رابعة:

أحبك حبين: حب الهوى ... وحب لأنك أهل لذاك

فأما الذي هو حب الهوى ... فشغلي بذكرك عمن سواك

وأما الذي أنت أهل له ... فكشفك لي الحجب حتى أراك

قال: إذا كان مرادها رضي الله عنها رؤية الله في الدنيا فتلك مستحيلة، لقوله تعالى على لسان موسى: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: 143]. وإذا كان مرادها رؤيته في الآخر فذلك جائز خلافاً للمعتزلة الذين يقولون باستحالة ذلك في الدنيا وفي الآخرة سواء.. وهذه العقيدة جعلت كبيراً من كبرائهم وهو الزمخشري يقول إن «لن» في قوله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: الآية 143] تفيد التأبيد مخالفاً في ذلك النحاة لأن قولك: فلان لن يأتي نفي لمجيئه الآن أَو نفي لمجيئه في المستقبل القريب مع احتمال مجيئه في المستقبل البعيد، ومن هنا قيل في لن التأبيدية لن الزمخشرية نسبة لصاحب الكشاف.

استطرد الشيخ قائلاً: المحبة التي أعنيها يا عبد الله هي أن يتملك حبُّ الله

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كلَّ جوانبك فترى ذلك في حركاتك وسكناتك حتى ليخيل إليك أنَّه لا شيء يعتمل في نفسك إلاَّ حب الله، اقترب الشيخ مرة أخرى من النافذة وراح يرسل بصره في ذلك الفضاء المترامي الذي تجلله ظلمة الليل القاتمة وأخذ ينشد في صوت خافت:

والله ما طلعت شمس ولا غربت ... إلاَّ وحبك مقرون بأنفاسي
ولا خلوت إلى قوم أحدثهم ... إلاَّ وأنت حديثي بين جلاَّسي
ولا ذكرتك محزوناً ولا فرحاً ... إلاَّ وأنت بقلبي بين وسواسي
ولا هممت بشرب الماء من عطشٍ ... إلاَّ رأيت خيالاً منك في الكاسِ
ولو قدرت على الإتيان جئتكمو ... سعياً على الوجه أَو مشياً على الراسِ
ويا فتى الحيّ إن غنيت لي طرباً ... فغنني وا أسفاً من قلبك القاسي

قلت في نفسي: آه من قلبي القاسي هذه والله أبيات أعرفها وإذا لم تخني ذاكرتي فإنها للحسين بن منصور.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT
Est. 2012 CE

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

عَن المعرِفَةِ وَمَقَامِ العارفينَ

لم يبرح الشيخ العارف النافذة بعد، ولم يزل بصره معلقاً بالسماء كأنما يفتش عن شيء ضاع منه، قلت في خاطري: سبحان القائل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: الآية 37] كم مرة نظرت في السماء وما طاف في نفسي أن أعمل فيها فكري، فأتدبَّر ما فيها من بديع خلق وإحكام صنعة.

اقتربت من الشيخ وقلت في همس: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: الآية 57] انتبه الشيخ وقال: صدق الله العظيم.

سكت قليلاً ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [الإسراء: الآية 12] سكت مرة أخرى، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: الآية 179]. لم أتمالك نفسي فقلت: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: الآية 46] ابتسم الشيخ مستحسناً ما قلت. شجعني ذلك على المضيّ في الحديث، فقرأت قوله تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

[الحشر: الآية 2]. ابتسم الشيخ ثانية وقرأ قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود. الآية 114]، ثم طفق يقول: ما قولك يا عبد الله في ليلة تبيت بها وقد ساورتك الهموم وسامرتك النجوم؟ قلت: هذه والله ليلة ليس لها سحر. وما أحب أن ينبلج فجرها أَو يتنفس صبحها على غير ذكر أَو معرفة، قال: وفيم تحب أن نشغل هذا الليل الطويل؟ قلت: حدثني عن العلم والمعرفة ومرتبتهما. قال: لقد ذهب الناس في بيان حدّ المعرفة مذاهب شتَّى. فرحم الله ذا النون المصري حيث يقول: «حقيقة المعرفة اطلاع الخلق على الأسرار بمواصلة لطائف الأنوار» ورحم الله الشبلي حيث قال: «المعرفة دوام الحيرة» وهو معنى قد يخفى على كثيرين، ولذا قال الهجويري في شرح عبارة الشبلي: «والحيرة على نوعين: أحدهما في الماهية والثاني في الكيفية، والحيرة في الماهية شرك وكفر، وفي الكيفية معرفة، لأنه ليس للعارف شك في وجوده تعالى، ولا مجال للعقل في كيفيته، ويبقى هنا يقين في وجود الحقّ، وحيرة في كيفيته، ولهذا السبب قال الشبلي: يا دليل المتحيرين زدني تحيراً. فأثبت أولاً معرفة وجوده، وكمال أوصافه وعرف أنه مقصود الخلق ومجيب دعواتهم، وأنه لا حيرة للمتحيرين في سواه، وعندئذ طلب زيادة الحيرة».

قلت: فما الفرق بين العلم والمعرفة؟ قال: اعلم يا عبدَ الله أن الفرق بين العلم والمعرفة يكون في اللفظ كما يكون في المعنى. أما اللفظ: ففعل المعرفة يقع على مفعول واحد كقولك: عرفت الدار وعرفت زيداً. قال تعالى: ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [يوسف: الآية 58] وفعل (العلم) يقتضي مفعولين، كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾ [الممتحنة: الآية 10] وإذا وقع فعل (العلم) على مفعول واحد كان بمعنى المعرفة كقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: الآية 60].

والفرق بين العلم والمعرفة من جهة المعنى فإن (المعرفة) تتعلَّق بذات الشيء و(العلم) يتعلق بأحواله. فتقول: عرفت أباك، وعلمته صالحاً عالماً. ولذلك جاء الأمر في القرآن بالعلم دون المعرفة، كقوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: الآية 19] وقوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: الآية 98] فالمعرفة يا عبد الله: حضور صورة الشيء ومثاله العلمي في النفس، والعلم: حضور أحواله وصفاته ونسبتها إليه. فالمعرفة تشبه التصور، والعلم يشبه التصديق عند المناطقة، والفرق الثاني: أن (المعرفة) تكون في الغالب لما غاب عن القلب بعد إدراكه فإذا أدركه قيل: عرفه. وهذا نظير قول عنترة في مطلع معلقته:

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم

أَو تكون لما وصف له بصفات قامت في نفسه، فإذا رآه وعلم أنَّه الموصوف بها قيل: عرفه. قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: الآية 45] وقال تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [يوسف: الآية 58] وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: الآية 146] لمن كانت صفاته معلومة عندهم فإذا رأوه عرفوه بتلك الصفات، فالمعرفة هنا تشبه الذكر للشيء، وهو حضور ما كان غائباً عن الذكر، ولهذا كان ضد المعرفة الإنكار، وضد العلم الجهل، يقول تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: الآية 83] ويقال: عرف الحق فأقرّ به، وعرفه فأنكره. وهذه فائدة لطيفة فلا تضيّعها.

والفرق الثالث: أن المعرفة تفيد تمييز المعروف عن غيره، والعلم يفيد تمييز ما يوصف به غيره، وهذا الفرق غير الأول، فإن ذلك يرجع إلى إدراك الذات وإدراك صفاتها وهذا يرجع إلى تمييز الذات أي تخليصها من غيرها، وتخليص صفاتها من صفات غيرها.

والفرق الرابع يا عبد الله: هو أنَّك إذا قلت: علمت زيداً. لم يفد المخاطب شيئاً لأنَّه ينتظر أن تخبره على أي حال علمته؟ فإذا قلت: كريماً أَو شجاعاً حصلت له الفائدة. وإذا قلت: عرفت زيداً، استفاد المخاطب أنك أثبته وميزته عن غيره، فلا ينتظر منك المزيد، والفرق الخامس لأَبي الحسين

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

العسكري في (الفروق) وهو أن (المعرفة علم بعين الشيء مفصلاً عما سواه، بخلاف العلم فإنَّه قد يتعلَّق بالشيء مجملاً، وهو يشبه فرق ـ الإمام الهروي صاحب (منازل السائرين) فإنَّه قال: «المعرفة إحاطة بعين الشيء كما هو» وعلى هذا الحدّ يقول ابن القيِّم في مدارجه: «فلا يتصور أن يعرف الله البتة، ويستحيل عليه ـ أي العارف ـ هذا الباب بالكلية، فإن الله سبحانه وتعالى لا يحاط به علماً ولا معرفة ولا رؤية فهو أكبر من ذلك وأجل وأعظم. قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: الآية 110] بل حقيقة هذا الحد: انتفاء تعلق المعرفة بأكبر المخلوقات حتى بأظهرها، وهو الشمس والقمر، بل لا يصح أن يعرف أحد نفسه وذاته البتة».

واعلم يا عبد الله أنَّه لا يوصف عند أهل الطريقة بالمعرفة إلاَّ من كان عالماً بالله وبالطريق الموصلة إليه، فيطلقون عليه صفة «العارف بالله» قلت: وما علامات المعرفة يرحمك الله؟ قال: أن يبدو لك الشاهد وتفنى الشواهد وتنحل العلائق وتنقطع العوائق، وتجلس بين يدي الله تعالى، وتقوم وتضطجع على التأهب للقائه كما يجلس الذي شَدَّ أحماله وأزمع السفر على التأهب له.

ولذا قال بعض العارفين: المعرفة تأتي من عين الوجود وبذل المجهود، وقد سُئل ذو النون المصري عن العارف فقال: كان ها هنا فذهب. وهذا مما استشكل على الكثيرين فهمه. وقد سُئل الجنيد عما أراد ذو النون بكلامه ذلك، فقال: لا يحصره حال عن حال، ولا يحجبه منزل عن التنقل في المنازل، فهو مع كل أهل منزل بمثل الذي هم فيه يجد مثل الذي يجدون وينطق بمعالمها لينتفعوا» والمعنى عندي يا عبد الله: أنه لا يستقر على حال ولا يثبت في مقام ومن هنا سمي الحال حالاً لكثرة التحوّل منه أَو إليه والمقام مقاماً لاستقراره وثبوته.

قلت: فما علامات العارف إذن؟ قال: من علاماته كما يقول أحدهم إنه لا يأسف على ما فات، ولا يفرح بآت، ولذا قال الجنيد رضي الله عنه: «لا يكون العارف عارفاً حتى يكون كالأرض يطؤها البرّ والفاجر، وكالسحاب يظل

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كل شيء، وكالمطر يسقي ما يحب وما لا يحب» وقال يحيى بن معاذ: «يخرج العارف من الدنيا ولم يقض وطره من شيئين: بكاء على نفسه وثناء على ربه، وقد قيل لذي النون كيف عرفت ربك؟ قال: عرفت ربي بربي ولولا ربي ما عرفت ربي. فها أنت تراه أوكل معرفته به إليه، وهي معرفة يبسطها الله للعارف على قدره وإذا تبين لك يا عبد الله ذلك فاعلم أن مجالسة العارف تدعوك من ست إلى ست: من الشك إلى اليقين، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الرغبة في الدنيا إلى الرغبة في الآخرة، ولمن الكبر إلى التواضع، ومن سوء الطوية إلى النصيحة.

قلت: بربك هل العارفون كثر في زماننا هذا؟ سكت الشيخ وقد بدا على وجهه شيء من الأسى، ثم شرع ينشد:

وكل يدعون وصال ليلى ... وليلى لا تقر لهم بذاك

إذا اشتبكت دموع في خدود ... تبيّن من بكى ممن تباكى

المعرفة يا عبد الله حياة القلب، والعارف: النائم اليقظان.. وإذا وجدت من يزعم المعرفة وهو مفرط في حق الله فلا تُسَمِّه عارفاً وإن سمَّاه الناس ذلك إذ الأولى أن يطلق عليه اسم المنكر أو الغافل.

نهارك يا مغرور سهو وغفلة ... وليلك نوم والردى لك لازمُ

وتكدح فيما سوف تنكر غِبّه ... كذلك في الدنيا تعيش البهائمُ

تسر بما يفنى وتفرح بالمنى ... كما غر باللذات في النون حالمُ

سكت الشيخ، ثم شرع يصلي الوتر فقد أدركه ثلث الليل الأخير. لم أجد نفسي إلاَّ وأنا أترنم في همس بهذين البيتين:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله ... وأجسامهم قبل القبور قبور

وأرواحهم في وحشة من جسومهم ... فليس لهم حتى النشور نشور

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT
Est. 2012 CE

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

العَارِفُ النّيْسَابُورِيُّ يشرع في تفسير قولِه تعالى:

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: الآية 282]

نفختُ القنديلَ فأظلمَت الدارُ، دَسَسْتُ نفسي في فِراشي وأخلدتُ للنوم وكذا فَعَل شيخُنا العارفُ. لم يمضِ وَقتٌ طويلٌ أَو هكذا خِلْتُه حتى تسلّل إلى جَفني ضوءٌ خافتٌ مرتعشٌ. فتحتُ عيني فإذا بشيخِنا العارفِ يتهجّد كعادتِه، وما أظنه نامَ ولا أخَذَتْه سِنة. كان ذلك الضوءُ الراهنُ المرتعشُ ينبعث من شمعةٍ أوقدَها الشيخُ. ويزداد ارتعاشُها كلّما لامَسَ أنفاسَها الهواءُ المتسلّلُ من تحتِ بابِ الدارِ فترسم أشكالاً وصُوراً على الحائط فتبدو كأنَّها أشباحُ تتراقص أَو خيالاتٌ تتهادى. تذكّرت وصفاً لأَبي بكر الأرجاني في الشمعةِ يقول فيه:

نَمّت بأسرارِ ليلٍ كان يُخْفيها ... وأطلعت قلبَها للناس مِن فِيها

غريقةٌ في دموعٍ وهي تحرقها ... أنفاسها بدوامٍ من تلظّيها

تنفّست نَفَسَ المهجور إذ ذَكَرت ... عَهْدَ الخليط فبات الوجْد يُذْكيها

يُخشى عليها الردى مهما ألمّ بها ... نسيمُ ريحٍ إذا وافى يحييها

قد أثْمَرَت وردةً حمراءَ طالعةً ... تجني على الكفّ إن أهويت تجنيها

وردٌ تُشَاك به الأيدي إذا قطفت ... وما على غصنِها شوكٌ يوقّيها

صُفْرٌ غلائلها حمرٌ عمائمها ... سُود ذوائبها بيضٌ لياليها

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

سمعتُ الشيخَ يقرأ في صوت متهدِّج سورةَ البقرة حتى إذا بلغ قولَه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: الآية 282]. صار يكررها مرةً تِلو الأخرى، وفي كل مرَّة يَخْفُتُ صوتُه حتى غابَ عن مسمعي. نهضتُ واقفاً، واقتربتُ من الشيخ فسمعته يقول وكأنَّه يحدّثني أَو هكذا بدا لي:

شَكَا إليك ما وَجَد ... من خانه فيك الجلَد

حيران لو شئت اهتدى ... ظمآن لو شئت وَرد

اقتربتُ من الباب وفتحتُه فلامَس وجهي نسيمٌ باردٌ، أطار من عَينيّ ما بقي فيهما من نوم. أخَذَت أنفاسُ الفجر تتصاعد وكأنَّها تَشِي بمقدم صبحٍ أوشك أن يسفرَ.. وبدأ الوجودُ ينتشي بعبير الزهور، وعطرِ الكافور، وروائح الصّندل. لم أملك نفسي فوجدتُني أنشد أبياتاً للسري الكندي يصف الفجرَ فيها فيقول:

وركائبٌ يخرُجْن من غَلَس الدّجى ... مثل السهام مَرَقن منه مُروقا

والفَجْرُ مصقول الرداء كأنَّه ... جَلْبابُ خودٍ أشربته خلوقا

سرتُ خطواتٍ حتى وقفتُ بصحنِ الدار.. كنت متلفعاً بعباءتي مخافةَ البردِ.. سمعتُ الشيخَ يقول: يا عبدَ الله. كيف يَسْرح في رياضِ العِرفان من أوثق الحرمانُ أغلالَه، فأسماعهُ لا تلتذ بخطابِه، وقلبه لا ينزع لعتابِه.

دخلتُ إلى الدار فوجدتُ الشيخَ يطوف بين أركانِها وهو ينشد:

حدِّث فقد ناب سمعي اليوم عَن بصري ... قنعتُ في الحبّ بعد العينِ بالأثرِ

بالله قل لي أحاديثَ الذين مَضَوا ... إن كنتَ مطّلعاً منهم على خَبَرِ

ارتفع أذانُ الفجر.. توضأ كلانا، وصلينا منفردَيْن سُنَّةَ الفجر.. وجلس الشيخُ بعدها يدعو ويبتهلُ.. أقمت الصلاةَ ووقفت مأموماً إلى يمين الشيخِ، وصلى بنا الصبحَ. سلّم الشيخُ ثم سمعته ينشد:

ببابِك ربي أنخْتُ ركائبي ... وما لي من أرجوه يا خيرَ واهبِ

فإذا جُدْتَ بالفضلِ الذي أنت أهلهُ ... فيا نُجْح آمالي بنَيْلِ رغائبي

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وإن أبعَدتني عن حِماكَ خطيئتي ... فيا خيبةَ المسعى وضيعةَ جانبِي
حرامٌ على قلبي وإن شَقَّهُ الضَّنى ... يميلُ إلى خِلٍّ سواكَ وصاحِبِ
إذا لم أَمُت شوقاً إليك وحسرةً ... عليكَ فما بلغتُ مِنك مآربي

هاجني قولُه، فتذكرت أبياتاً فأنشدتها:

إذا ارتحل الوفودُ إليك يوماً ... ولجّوا في الضَّراعة والسؤال
فإن رحالنا حطّت رجاء ... لفضلك عن حلول وارتحال
أَنَخْنَا عند بابِك يا إلهي ... إليك مفوضين بلا اعتلالِ
فَسُسْنَا كيف شئت ولا تِكلْنا ... إلى تدبيرِنا يا ذا الجلالِ

التفتَ الشيخُ نحوي، وأنشد:

أيا من أعرضوا عنّا ... بلا جُرْمٍ ولا مَعْنَى
وإن عادوا لنا عُدنا ... وإن خانُوا فما خُنّا
وإن كانوا قد استَغْنَوا ... فإنا عنهمو أَغْنى
أساؤوا ظنّهم جهلاً ... فهلا أحْسَنوا الظنّا

نهضتُ، وأخذتُ قدحاً وصببتُ فيه لبناً وقدمتُه للشيخِ. فردّه في لطفٍ، فعلمتُ أنَّه اليوم صائمٌ.

سَرَى ضوءُ النَّهارِ في أرجاءِ الدار، وإن لَم يكن ساطعاً كعادته. فتحتُ البابَ، فإذا الضبابُ قد جَثَمَ على الأفقِ.. كادت السماءُ تظلم لولا بعضُ الضّوءِ الذي كان يمزّق أستارَ الضبابِ.. وقد أثارت فضولي أسرابٌ من الطيورِ تعلو وتهبط، فتحلّق تارةً في صفوفٍ وأخرى في دوائرَ.. تقتربُ من بعضها حيناً وتبتعدُ حيناً آخرَ ثم لا تلبث أن تخترقَ الضّبابَ فتغيبُ فيه فلا يبقى إلاَّ أن أسمَع أغاريدَها وصفيرَها وهو ما يُشْعِرُني بأنَّها لم تبتعد كثيراً. دَنَوْتُ من الشيخِ ثانيةً، فسمعته يُنْشِد من جديد:

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

فيا ويحَ قلبٍ رُمي بالجَفَا ... فبات على مِثْل جَمْر الغَضَا
وأصبح يَنْدب رسماً عفا ... ويبكي على فَقْدِ عَيْشٍ مَضَى
وليلُ الصدودِ أتى مقْبِلاً ... وولّى نهارُ الرِّضا مُعْرِضا
فَسَيْلُ الدموع وشقّ الجيوبِ ... حقيقٌ على فَوْتِ وَقْتِ الرّضا

ثم قال: وقد وضع يدَه على صدري:

يا عبدَ الله، يا بنيّ، لا تركن إلى نفسِك طَرْفةَ عين، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: الآية 101] سكت قليلاً ثم قال: أي بنيَّ لا تنسَ قولَ المصطفى المختار:

(مَثَلُ ما بعثني الله به من الهُدى والعلم كَمَثَل الغَيْثِ الكثيرِ أصاب أرضاً فكانت طائفةٌ منها قَبلتْ الماءَ فأنبتت الكلأَ والعشْبَ الكثيرَ، وكانت منها طائفةٌ أخاذات أمسكت الماءَ فنفع الله تعالى بها النَّاسَ، فشربوا وسقوا، وزرعوا، وكانت منها طائفةٌ أخرى قيعان لا تمسك ماءً، ولا تنبت كلأً. فذلك مثل من فَقِه في دين الله وَنَفعه ما بعثني الله به، فَعلمَ وعلَّمَ. ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هُدَى الله الذي أُرْسِلتُ به).

قلتُ: هاتِ حدِّثني عن معنى قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: 282] وقد سمعتُك الليلةَ تقرأها أكثر من مرّة عند وقوفك بها.

قال: اعلم يا بني أن هذه الآية مما ذهل عن فهمها المتصوفة وكذلك بعضُ المفسِّرين فذهبوا إلى أن التقوى سببٌ للعلم وبَنَوْا على ذلك أن مجاهدةَ النفسِ بتلاوةِ بعضِ الأوراد والإتيانِ ببعضِ الرياضاتِ تُثْمِرُ علوماً إلهيةً من غير تعلّم، وهذا القولُ فتح البابَ على مصراعيه أمام الجهّالِ الذين يلبسونَ لباسَ الصّلاح ويدّعون العلمَ بالله وفهمَ القرآن والحديثَ ومعرفةَ أسرارِ الشريعةِ من غير تعلّم مستدلين على ذلك بهذه الآيةِ الكريمةِ، وهو استدلالٌ تكذِّبه اللغةُ ويردّه العقلُ. فأما اللغةُ فإنَّ قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: الآية 282] معطوفٌ على

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ﴾ [البقرة: الآية 282] وهو عطفٌ يفيد المغايرةَ ولو قال: (يعلِمْكم الله) بجزمِ المضارع وحَذْف الواو لصح ما زعموا وكان العلمُ جزاءً للتقوى. وكذلك لو كان العطفُ بالفاء أَو اتّصل بالفعلِ لامُ التعليل، ولكن هذا لم يكن. و(الواو) في ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: الآية 282] استئنافية، ولا مكانَ لجعلها حاليةً كما قرَّر الجلالُ وتابعهُ كثيرون من المفسرينَ لأن المضارعَ المثْبَت لا تباشِرُه واوُ الحال. وفي ذلك يقول العُكبريُّ في إعرابِ القرآن: (ويعلمك الله مستأنَفٌ لا موضعَ له. وقيل: موضِعُه حالٌ من الفاعِل في اتّقوا، وتقديرُه: واتقوا الله مضموناً التعليم والهداية ويجوز أن يكونَ حالاً مقدّرة) وهذا ذهول منه نبّه إليه أَبو حيان في البحر المحيط بقوله: (ويعلّمكم الله جملةٌ مستأنفةٌ لا موضعَ لها من الإعراب. وقيل هي في موضع نَصْبٍ على الحالِ من الفاعِل في (واتقوا) تقديرُه (واتقوا الله مضموناً لكم التعليم والهداية) وقال أبو البقاء (يعْني العُكبريّ): ويجوز أن يكونَ حالاً مقدَّرة. وهذا القولُ أعني الحال ضعيفٌ جداً لأن المضارعَ الواقعَ حالاً لا يدخل عليه واوُ الحال إلاَّ فيما شَذّ ولا ينبغي أن يُحْمَل القرآنُ على الشذوذ) وقد وَقَع في هذا الذهول القرطبيُّ وكذا ابنُ كثير. فيقول القرطبيُّ في تفسير قولهِ تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: الآية 282]: (وَعدٌ من الله تعالى بأن من اتقاه عَلّمه، أي: أن يَجْعلَ في قلبه نوراً يفهَمُ به ما يُلقَى إليه، وقد يجعل الله في قلبه ابتداءً فرقاناً، أي فَيْصَلاً، يَفْصِلُ به بين الحقِّ والباطل، ومنه قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: الآية 29] وعلى مثل هذا النحو سار ابنُ كثير.

هذا يا عبدَ الله من جهةِ اللغةِ، وأمّا من جِهة العَقْلِ فاستدلالُهم فاسِدٌ لأنه من المعروفِ عقلاً أن العلمَ هو الذي يُثْمِرُ التقوى، فلا تقوى بلا علم، فالعلمُ هو الأصلُ الأول، لأنّ تقوى الله تكون بالائتمار بأوامِره والانتهاءِ عن نواهيه ولا يكون ذلك بغيرِ علم، ولأن العلمَ يؤثِّر في الإرادةِ فيوجِّهُها إلى العمل الصالحِ ويَصْرِفُها عن القبيحِ، وكم من قبيحٍ يَحْسُن في النفسِ فتميل إليه وكم من جميل يقبحُ فيها فتعرضُ عنه إذا تُرِكَت وهواها. وجَعْلُهم قولَه تعالى: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: الآية 29] تفسيراً لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: الآية 282] لا يستقيمُ لأن الجملةَ في الأولى شرطيةٌ يتوقف جوابُها على وقوع فعلِها، والجملةُ في الثانية غير ذلك.. والفرقانُ هو الفَيْصَل، وقيل المخرَجُ والنَّجاةُ. واعلم يا عبدَ الله أن التقوى قد يتفرّع عنها عِلْمٌ، وليس هو العلمُ الذي قامت به، فذلك أصلٌ.. وإنما هو زيادةٌ يتفاوَتُ بها الناسُ فالأكثرُ تَقوى أكثرُ عِلماً بافتراضِ أن كليهما عالِمٌ.

قلت: أليس المرادُ هنا الإشارة إلى عِلم وهبيٍّ يهبه الله لعبادِه الصالحين من غيرِ كَسْبٍ؟ قال: وما دليلُ ذلك؟ قلتُ: ألم يأتِ في الحديثِ: من عَمِل بما عَلِم أورثَه الله عِلْمَ ما لَمْ يَعْلَم؟ قال: هذا حديثٌ لا يصحّ بل قيل إنه موضوعٌ. وقد أخرجَه أبو نعيم في الحِلْية. ولم نَقِف عليه في غيره. (وحِلْيَة الأولياءِ) كتابٌ في أخبارِ الزهّادِ والصالحين وليس من مَظانِّ الحديث فانتبه، ولو كانَ الحديثُ صحيحاً أو حَسَناً لوجدناه في كتبِ السنن. والأرجَحُ أنه من كلامِ عيسى عليه السَّلام رواه بعضُ التابعين عن أهلِ الكتابِ. قلتُ: هذا يجرّنا إلى الكلامِ عن عِلم الظاهرِ والباطنِ، والشريعةِ والحقيقةِ، وهو ما أُحِبُّ أن أسمعَ منك عنه، قال: سأحدِّثك عن ذلك إن شاءَ الله.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

العَارِفُ النّيْسَابُورِيُّ يَعْرِضُ لأدلَّةٍ واهيةٍ يحتجُّ بها مَنْ يميلُ إلى تفسيرِ القرآنِ وأحكَامِ الشريعةِ على نَهْجِ أهْلِ الباطِنِ

نظر إليّ الشيخ العارف وقال: ما الذي تريد أن تعلمه عن الحقيقة والشريعة والظاهر والباطن؟ سل واقتصد. قلت: كنت اجتمعت فيما مضى بنفر من طلبة العلم ممن كان يتعهدهم بعض الصالحين بالتربية، فجرى بيننا حديث لا يزال أثره عالقاً بنفسي. قال: وما ذاك؟ قلت: زعموا أن للقرآن ظاهراً وباطناً، فجعلوا الوقوف عند ظاهره لأهل الشريعة، وإدراك باطنه لأهل الحقيقة، وما قوا لذلك أدلّة أحب أولاً أن أعرف مبلغ حجيتها في الاستدلال. قال: هاه أسمعنيها. قلت: جملة من الأحاديث أولها ذلك الحديث الذي ذكرته لك بل قليل وهو (من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم) وقد بيَّنتَ أنه موضوع فلا حاجة بي إلى ذكره مرة أخرى، وحديث آخر هو (علم الباطن سرٌّ من أسرار الله عزّ وجل، وحكم من حكم الله يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده) قال: هذا من كلام علي بن أَبي طالب وقد ذكر ابن عراق في تنزيه الشريعة نقلاً عن الذهبي في تلخيصه أن هذا الحديث: باطل، كما نقل عن ابن الجوزي قوله في هذا الحديث إنه: لا يصح. وعامة رواته لا يعرفون. قلت: وثمة حديث آخر هو أن الحسن سأله حذيفة عن علم الباطن ما هو؟ فقال: (سألت النبي ﷺ عن علم الباطن ما هو؟ فقال: سألت جبريل عن علم الباطن ما هو؟ فقال: سألت الله عز

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وجل عن علم الباطن ما هو؟ فقال: يا جبريل هو سر بيني وبين أحبابي وأوليائي وأصفيائي أودعه في قلوبهم لا يطلع عليه ملك مقرَّب ولا نبي مرسل).

أجاب الشيخ العارف: أخرجه الديلمي في مسند الفردوس. قال ابن حجر: موضوع. والحسن هو البصري لم يدرك حذيفة.

قلت: وهنالك حديث آخر يحتجون به على وجود علم الباطن وربما هو عمدة أدلتهم، قال: وما هو؟ قلت: ما يروونه أنه ﷺ قال: «للقرآن باطن وللباطن باطن، إلى سبعة أبطن» قال: هذا من الأحاديث المختلقة التي لم يروها أحدٌ من أهل العلم ولا يوجد في شيء من كتب الحديث كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالته (علم الظاهر والباطن) وهي رسالة جليلة عظيمة النفع فاطلبها. قلت: أمطبوعة هي؟ قال: نعم، وتجدها ضمن مجموع الرسائل المنيرية. ويقول شيخ الإسلام في هذا الحديث: (ولكن يروى عن الحسن البصري موقوفاً أو مرسلاً: أن لكل آية ظهراً وبطناً، وحداً ومطلعاً). وقد وقفت على كلام لأبي حفص شهاب الدين عمر بن محمَّد السهروردي في كتابه (عوارف المعارف) ساق فيه حديث الحسن بسنده مرفوعاً إلى النبي ﷺ وقال عقبة: «قال أَبو عبيد ـ أي القاسم بن سلام ـ وهو أحد رواة حديث الحسن أحسب أن قول الحسن هذا إنما ذهب إلى قول ابن مسعود، قال أَبو عبيد: حدَّثني حجاج عن شعبة عن عمرو بن مرة عن مرة عن عبد الله بن مسعود قال: ما من حرف أو آية إلاَّ وقد عمل بها قوم، أَو لها قوم سيعملون بها».

فإذا صحّ رفع حديث الحسن إلى النبي ﷺ فذلك مرسل والمرسل ضعيف وإذا كان موقوفاً على عبد الله بن مسعود وهو الأرجح، فالموقوف ليس بحجّة ما لم يكن في حكم المرفوع على النحو الذي بينه نقاد الحديث وقد احتج الإمام الغزالي بحديث ابن مسعود: (إن للقرآن ظاهراً وباطناً وحداً ومطلعاً) في كتابه (الإحياء)، وقد قال الإمام زين الدين العراقي في تخريجه: (أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث ابن مسعود بنحوه. وقد وقفت عليه في (موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان) للحافظ نور الدين الهيثمي وهو غير ابن حجر الهيتمي صاحب

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

(الزواجر عن اقتراف الكبائر) و(الإعلام بقواطع الإسلام) و(الفتاوى الحديثية)، وقد قام نور الدين الهيثمي في موارده بترتيب صحيح ابن حبان على أبواب الفقه حتى يسهل البحث فيه بعد أن أفرد زوائده عما أخرجه الشيخان ونص حديث ابن مسعود هذا هو: (أنزل القرآن على سبعة أحرف، لكل آية منها ظهر وبطن).

وفي سنده ومتنه مقال. أما سنده فهو عن محمَّد بن عجلان عن أَبي إسحاق الهمذاني عن أَبي الأحوص عن عبدالله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: كذا (وفيه أبو إسحاق إبراهيم بن مسلم العبدي الهجري يقول فيه ابن حجر في تقريب التهذيب: لين الحديث. رفع موقوفات. وقال فيه الذهبي في (ميزان الاعتدال): ضعفه ابن معين: والنسائي، وقال أَبو حاتم: ليس بقوي).

وأما متنه فمنكر لأن حديث (نزل القرآن على سبعة أحرف) رواه عدد كبير من الصحابة وبعض رواته في الصحيحين، وليس في أية رواية منها زيادة ابن مسعود (لكل آية منها ظهر وبطن) وهي زيادة منكرة إذ لم تأت إلاَّ من طريق الهجري وهو ضعيف عن أَبي الأحوص، والمنكر في اصطلاح أهل الحديث هو (الفرد الذي لا يعرف متنه عن غير راويه، وبمعنى أدق هو الفرد الذي ليس في رواته من الثقة والإتقان ما يحتمل معه تفرده) وحديث ابن مسعود بهذه الزيادة أخرجه البزار والطبراني في الأوسط وكذلك ابن جرير الطبري في أول تفسيره وجميعها من طريق إبراهيم الهجري. قلت: يستدلون على وجود علم الباطن بما يروونه عن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنَّه قال: «كان النبي ﷺ وأَبو بكر يتحدَّثان وكنت كالزنجي بينهما» ويريدون أنَّهما يتكلمان بكلام غامض لم يفهمه عمر.

قال: هذا خبر باطل ولا أصل له، ولن تجد له أثراً في كتب أهل العلم المعتبرة.

قلت: وما تقولون في حديث أَبي هريرة وهو في الصحيح وفيه يقول: «حفظت من رسول الله جرابين فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته لقطعتم هذا البلعوم» قال: ذهب السواد الأعظم من شراح الحديث إلى أن الجراب الثاني

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الذي لم ينشره أَبو هريرة ليس فيه من الباطن ما يخالف الظاهر، ولس فيه من حقائق الدين شيء، ولو كان كذلك لدخل أَبو هريرة تحت وعيد من كتم علماً ألجمه الله يوم القيامة بلجام من النار، وليس في الجراب إلاَّ خبر ما سيكون من الملاحم والفتن، والملاحم هي الحروب التي بين المسلمين والكفار، والفتن ما يكون بين المسلمين، ولهذا قال عبد الله بن عمر: لو أخبركم أَبو هريرة أنكم تقتلون خليفتكم وتفعلون كذا وكذا لقلتم كذب أَبو هريرة، وإظهار مثل هذا مما تكرهه الملوك وأعوانهم لما فيه من الأخبار بتغير دولهم. وذلك معنى قول ابن مسعود الذي رواه مسلم: «ما أنت محدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلاَّ كان لبعضهم فتنة» ويقول الألوسي في (روح المعاني) في شرحه لحديث أَبي هريرة: «يحتمل أن يكون أراد بالجراب الآخر الذي لو بثه لقتل علم الفتن وما وقع من بني أمية، وذم النبي ﷺ لأناس معينين منهم، ولا شك أن بث ذلك في تلك الأعصار يجر إلى القتل، وعلى تسليم أنه أراد به العلم الباطن المسمى بعلم الحقيقة لم أن قطع البلعوم منه على بثه لمخالفته للعلم الظاهر في نفس الأمر بل لتوهم من بيده الحل والعقد والأمر والنهي من أمراء ذلك الزمان المخالفة فافهم».

قلت: وماذا تقول عن حذيفة صاحب السر وخبره في الصحيح؟ قال: جاء في صحيح البخاري (باب مناقب عمار وحذيفة) أن علقمة ذهب إلى الشام فلمّا دخل المسجد قال: اللهم يسِّر لي جليساً صالحاً، فجلس إلى أَبي الدرداء فقال أَبو الدرداء: ممن أنت؟ قال: من أهل الكوفة، قال: أليس فيكم صاحب السر الذي لا يعلمه غيره؟ يعني حذيفة. قال: قلت: بلى... «والسر الذي لا يعلمه غيره ليس علوماً دينية خفية بل هو أخبار المنافقين وأحاديث الفتن والشر إذ كان كثير السؤال لرسول الله ﷺ عنها. وجاء في الصحيحين عنه أنَّه قال: كان الناس يسألون رسول الله عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني» وتفصيل خبر حذيفة بن اليمان تجده يا عبد الله في صحيح مسلم (كتاب الفتن، باب إخبار رسول الله ﷺ عن ما يكون إلى قيام الساعة) وليس في خبره أنَّه انفرد

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

عن غيره بحقائق أَو فهم لآيات على غير ظاهرها إِلاَّ أخبار الفتن وهذه بلا ريب ليست مراد من ظن أنّه أوتي من العلم ما لم يؤته غيره. وقد زعم بعضهم أن رسول الله ﷺ خصّ بعضاً من أهله بعلوم لا يعرفها غيرهم، وهو زعم باطل، وقد ورد في صحيح البخاري وسنن النسائي وأَبي داود وابن ماجه أن الإمام علي ابن أَبي طالب سئل: هل عهد إليك رسول الله شيئاً لم يعهده إِلى الناس عامة؟ قال: لا. إلاّ ما في كتابي هذا. فأخرج كتاباً من قراب سيفه، فإذا فيه: المؤمنون تكافأ دماؤهم، وهم يدٌ على من سواهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، ولا يقتل مؤمن بكافر..» وفي لفظ للبخاري وغيره: «والذي فلق الحبَّ وبرأ النسمة ما عندنا إِلاَّ ما في القرآن، وإِلاَّ فهماً يعطى رجل في كتابه..» والفهم الذي يعطاه الرجل هو الوقوف على معنى ربما غاب عن الأنظار إما في تفسير آية أو إدراك حكم شرعي، ومن هنا سمي الفقه فقهاً وهو الفهم والحذق، ونجد نظائر ذلك كثيرة في أصحاب رسول الله ﷺ، كعمر بن الخطاب، الذي قال فيه المصطفى: «إنه كان في الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن في هذه الأمة فعمر بن الخطاب» وكعبد الله بن عباس الذي دعا له رسول الله ﷺ كما في الحديث الصحيح بقوله: «اللهم فقِّهه في الدين وعلمه التأويل».

قلت: هل أفهم أنَّك لا تؤمن بوجود علم اسمه (علم الباطن) أَو (العلم اللدني) أَو (علم الحقيقة)؟ قال: ليس الأمر على النحو الذي فهمت ولكنني أكره أن يجري (الباطن) على خلاف (الظاهر) وكأنهما ضرتان لا تجتمعان وأن يجري (الباطن) على غير قواعد ولا أصول حتى بين أهله والناطقين به وذلك ينطوي يا عبد الله على خطر جسيم حيث ترى من العامة ممن لا يحسن أن يكتب اسمه يتكلم في أمور يجهلها حتى إذا جاء من ينكر عليه أجاب بأن ذلك مما أشرق في قلبه من فهم. ولذا لا تعجب إن وجدت من هؤلاء من يقول: «حدَّثني قلبي عن ربي» فيجري على لسانه من الغرائب والخيالات ما ينكره الشرع ويستهجنه العرف. إن الكلام في مثل هذا الموضوع يحتاج إِلى تفصيل قد أوقفك عليه فيما بعد، ولكن قبل ذلك أريد أن أسمعك مقالات بعضهم في العلم الباطن. قال ذو

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

النون «العلم اللدني هو الذي يحكم على الخلق بمواقع التوفيق والخذلان» وقال الجنيد شيخ الطائفة: «هو الاطلاع على الأسرار من غير ظنّ فيه ولا خلاف واقع لكنه مكاشفات الأنوار عن مكنون المغيبات ويحصل للعبد إذا حفظ جوارحه عن جميع المخالفات، وأفنى حركاته عن كل الإرادات وكان شبحاً بين يدي الحقّ بلا تمنّ ولا مراد».

سكت الشيخ بعض الوقت. ثم قال: ألا ترغب في الخروج هذا الصباح؟ أدركت أن الشيخ قد ملّ الحديث. قلت: بلى وأنت؟ قال: وأنا كذلك، فإن بي شوقاً لأطوف بأرجاء سمرقند هذا الصباح ولكن ليس قبل أن أصلي صلاة الضحى.. بدأ الضباب ينقشع، وأخذت الشمس تنشر أشعتها الذهبية وهي تغازل عيوننا المشتاقة.

صلى الشيخ ركعتين خفيفتين، ثم رفع يديه داعياً:

اللهم اجعلني من الذين سرحت أرواحهم في دار العلى، وحطّت همم قلوبهم في غاية التقى حتى أناخوا برياض النعيم، وجنوا من ثمار رياض التسنيم وخاضو لجّة السرور، وشربوا بكأس الرحيق المختوم، واستظلوا تحت ظل الكرامة الظليل. ثم أخذ ينشد:

لو شِئْتَ داويْتَ قلباً أنتَ مُسْقمُه ... ففي يديك من البَلوى سلامَتُه

القَلْبُ في وَلهٍ والطرْف منتظر ... من كان مثلي فقد قامت قيامَتُه

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

العَارِفُ النَيْسَابُورِيُّ يَجْتمعُ بصَاحِبِهِ القديمِ الشيخِ أَبي الحَسَنات علاءِ الدِّين الحائكِ فقيهِ سَمَرْقَندَ.. ومُحَدِّثِها..

انطلقتُ والشيخَ نحو سوق سمرقند الكبير.. وقبل أن نبلغَ بوابةَ السوق ظهر لنا منصورٌ الدرويش وهو يجري، يتعقَّبه صبية وهم يُحصِّبُونه من كل جانب ويصرخون: خِرفْت.. خِرِفْت (وتعني بالفارسية: أبله أحمق). أقبل المسكين نحونا والتَصَق بالشيخ كالطفل الوديع.

لم يجرؤ الصبية على الاقتراب، ولما يئسوا من النيل منه انصرفوا. بقي المسكين ملتصقاً بالشيخ مخافة أن يعاوده الصبيان.. ظلّ الشيخ العارف يمسح على رأسه حتى سكنت نفسه وذهب خوفه. نظر الدرويشُ إلى الشيخ، وقال: مصاحبت ياران صادق ودوستان موافق، نعمتي است كه قدر آن ندانند (ومعناه بالفارسية: صحبة الأحبة الصادقين، والأصدقاء الموافقين نعمة لا تقدر) ابتسم الشيخُ وقال: زه.. زه. (ومعناه بالفارسية: أحسنتَ.. أحسنتَ) مال الشيخ نحو أحد باعةِ الفاكهة عند مدخل السوق.. أخذ الدرويشُ يقفز طرباً وهو يصيح مشيراً بيده إلى الكرز: گيلاس، گيلاس. قلت في صوت خافت: ديوانه دَرْويش نظر منصورٌ الدرويشُ نحوي وقال: خود بين (أي: مغرور متكبّر). ضحك الشيخ العارف وقال: هل يكفيك ذلك يا عبدَ الله؟ اشترى الشيخُ بعضَ الكرز للدرويش، ثم انطلق هذا الأخيرُ يجري لا يلوي على شيء.

في داخل السوق وعند الرِّواق الغربي التقينا بشيخي وأستاذي شهاب الدين

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

القاضي وكان برفقة صاحبه الشيخ أَبي الحسنات علاء الدين الحائك فقيه سمرقند وشيخ مدرسة الحديث فيها، وكنت قد تلقيتُ عليه ألفيةَ العراقي في المصطلح بشرح السخاوي المسمى (فتح المغيث)، وكذلك (الكفاية في علوم الرواية) للخطيب البغدادي، والنصفَ الأول من (تدريب الراوي) للسيوطي. كان الشيخُ أَبو الحسنات قد أشرَفَ على السبعين، سلخ أكثرَ من نصفها في التدريس ولم يكن يتلقَّى مقابلاً نظيرَ عمله في مدرسة الحديث، ولم يقبل في حياتِه أعطيةً من أحد قطّ، وكان يعيش مما يجنيه من حياكة الثياب، وهي الصنعة التي ورثها عن أبيه، ولذلك عُرِفَ عند العامّة بالشيخ الحائك، وكان كثيراً ما يردّد على مسامعنا قولتَه الشهيرةَ: «إذا امتدَّت يدُ العالم سقَطتْ مهابته» ولفرط عفّةِ نفسِه واعتداده بها، وزهده فيما في أيدي الناس، وغلبة جدّه على هزله ظُنَّ به الظنون، ولذلك كان كثيراً ما يتمثَّل بشعرِ علي بن عبد العزيز الجرجاني، ويحضّنا على حفظِه، وفيه:

يقولونَ لي فيك انقباضٌ وإنما ... رأوا رجلاً عن موقفِ الذلِّ أحْجَما
أرى الناسَ من داناهم هانَ عندهم ... ومن أكرمتهُ عزةُ النَّفسِ أُكْرما
ولم أقضِ حَقَّ العلم إن كان كلما ... بدا طمعٌ صيَّرْتُه لي سلَّما
وَمَا كلُّ برقٍ لاح لي يستفزني ... ولا كلّ من لاقيت أرضاه مُنْعِمَا
إذا قيل هذا منهلٌ قلت قد أرى ... ولكنَّ نفسَ الحرِّ تحتمل الظَّمَا
أَنَهْنِهُها عن بعض ما لا يشينها ... مخافةَ أقوالِ العِدَا فيمَ أو لما
ولم أبتذل في خدمةِ العلم مهجتي ... لأخدمَ مَن لاقيتُ لكن لأُخدَما
أأشْقَى به غَرْساً وأجنيه ذلةً ... إذن فاتّباع الجهلِ قد كان أحْزَما
ولو أنّ أهلَ العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه في النفوس لعظّما
ولكِن أهانوه فهانَ ودنّسوا ... محيّاه بالأطماعِ حَتّى تَجَهَّما

ابتسم الشيخُ أَبو الحسنات، وأسرع الخُطى نحو شيخنا العارف وهو يقول

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

متعجباً: يا الله. هذا والله صاحبُنا النيسابوريّ. تعانق الرجلان عناقاً طويلاً اختلطت فيه الفرحةُ بالبكاء. وقفتُ متحيّراً حتى إذا هدأت النفوسُ وعادت إلى سابق عهدها التفت إليّ الشيخُ العارفُ، وقال: لا تَعْجَبْ يا عبدَ الله. هذا صاحبي أبو الحسنات كنتُ اجتمعتُ به قبل أكثرَ من ربع قرن في سُهْرَوَرْد، كان يومها قادماً من سَمَرقند، وكنت قادماً من نيسابور. مكثنا معاً، ورَحَلْنا إلىٰ أكثر من بلدٍ. سَقى الله أيام سُهْرَورد وسَقى لياليها، ثم طفق الشيخُ ينشِد:

أبـداً تَـحِـنُّ إلـيـكُـمُ الأرْواحُ ... ووصـالـكـم ريـحـانُـهـا والـرّاحُ

وقـلـوبُ أهـلِ وِدادكـم تـشـتـاقـكـم ... وإلـى لـذيـذ لـقـائِـكـم تـرتـاحُ

وَارَحْـمَـتـا لـلـعـاشـقـيـن تـكـلّـفـوا ... سَـتْـرَ الـمـحـبـةِ والـهـوى فَـضّـاحُ

بـالـسـرِّ إن بـاحـوا تُـبـاح دمـاؤهـم ... وكـذا دمـاءُ الـعـاشـقـيـنَ تُـبَـاحُ

قلتُ في نفسي: إنّه والله لَمِنْ سرعةِ الخاطر أن يتمثَّل شيخُنا العارفُ في هذا المقام عند ذكر سُهْرَوَرد بأبياتٍ لحكيمِها شهابِ الدين السّهروردي المقتول.

انطلق الشيخ أَبو الحسنات يُكْمِلُ ما بدأه صاحبُه من إنشادٍ وكأنَّهما يضربان على وتر واحد:

يا صاحِ ليس على المحبِّ ملامَة ... إن لاحَ في أفق الوِصَالِ صَبَاحُ

لا ذنبَ للعشّاق إن غلب الهوى ... كتمانهم فنما الغرامُ فَبَاحُوا

وَدَعاهُمُ داعي الحقائق دعوةً ... فغدَوْا بها مستأنسينَ وراحُوا

رَكِبوا على سَنَنِ الوَفا ودموعُهم ... بَحرٌ وحادي شوقهم مَلَّاحُ

هاجَتْ لواعجُ الشيخِ شهابِ الدين القاضي مما رأى وسَمع، فطفق ينشد متمماً:

والله ما طَلَبوا الوقوفَ ببَابه ... حتى دُعُوا وأتاهُمُ المفتَاحُ

لا يطربونَ لغير ذكْر حبيبِهم ... أبداً فكلّ زمَانِهم أفْرَاحُ

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

نظرَ إليّ وأكملَ:

فتشبّهوا إن لَم تكُونوا مثلَهم إن التشبّهَ بالكرامِ فَلاحُ

قلتُ للشيخ شهاب الدين: هوذا العارفُ النيسابوريُّ الذي حدثتُك عنه، تصافح الرجلان، وتعانقا وكأن بينهما عهداً وودّاً لم ينقطع وَهُما لم يلتقيا إلاَّ هذه السّاعة. صدقَ والله الحبيبُ المصطفى إذ قال: «**الأرواح جنودٌ مجنَّدةٌ. ما تعارف منها ائتلف، وما تناكرَ منها اختلف**» يا سُبحانَ الله. هو ذا الحبُّ في الله ومن الله.

قلتِ في خاطري: هذا والله مَعْنى حديث المصْطَفى ﷺ الذي أخرجه أَبو داود في سُننه: «**إنّ من عبادِ الله لأناساً ما هُم بأنبياءَ ولا شهداءَ، يغبِطُهم الأنبياءُ والشهداءُ يومَ القيامةِ بمكانهم** مِنَ الله»، قالوا: يا رسولَ الله تُخبِرُنا مَنْ هُم؟ قال: «**هم قومٌ تحابّوا بروح الله، على غيرِ أرحام بينهم، ولا أموالٍ يَتعاطوْنَها، فوالله إنَّ وجوهَهُم لنورٌ، وإنهم لعلى نورٍ، لا يخافُونَ إذا خافَ الناسُ، ولا يحزنونَ إذا حَزِنَ الناسُ. وقرأ قولَهُ تعالى:** ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: الآية 62].

قال شيخُنا أَبو الحَسَنات مخاطباً الشيخَ العارفَ: والله لو كنتُ أعلمُ أنَّك هنا في سَمَرْقند لأتيتُك ولَوْ حَبْواً. تنزِلُ إن شاءَ الله في ضيافتي.

أجاب الشيخُ العارفُ، إنّي أحبُّ ذلك ولكنّني أكرهُ أن أفارقَ عبدَ الله فإنني أحسّ بأنني مشدودٌ إليه بوثاقٍ لا أراني قادراً على الفَكاك منه.

أثلجَ قولُه صدري، وأحببتُ أن أُفصِحَ له عن مبلغ حبِّي له لولا انعقادُ لساني، فهذه أولُ مرة أجد نفسي وقد خانني بياني.. ربما كان ذلك لعظيم مقامِ هؤلاء الثلاثة في نفسي. ناب شيخُنا شهاب الدين عَنِّي، فقال: طوبَىٰ لكم هذه المحبة، وصدقَ قرّةُ عيني ﷺ إذ يقول في حديثه الذي أخرجَه مسلم: «**إن الله إذا أحبّ عبداً دعا جبريلَ فقال: إني أحبّ فلاناً فأحبّه. قال: فيحبّه جبريلُ، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحبُّ فلاناً فأحبّوه، فيحبّه أهلُ السماء، ثم**

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

يوضَعُ له القَبُولُ في الأرض» قال الشيخُ العارفُ: صدقتَ. وقد جاء في الحديث الصّحيح الذي أخرجه الشيخان عن ابن مسعود قال: جاء رجلٌ إلى النبيّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله. كيف تقول في رجل أحبَّ قوماً ولم يلحَق بهم؟ فقال: **«المرءُ مع من أحبّ»**.

قال الشيخُ أَبو الحَسَنات: إذا كان الأمرُ على النَّحْو الذي ذكرتَ فلا بأسَ عليكما، ولكن لا ينسى ابنُنا عبدُ الله أنّ لنا في الشيخ العارف نصيباً. قلتُ: وما أنا مَنْ يمنعكم ذلك. قال: لنَمْضِ جميعاً الآن إلى داري لتناول الغداء عندي. قلتُ: ولكنَّ الشيخَ صائمٌ هذا النهار. قال الشيخُ أَبو الحسنات: صوّامٌ قوّام كعهدِنا به. تأتي بصاحِبك قبلَ الغروبِ وستجدُني إن شاءَ الله والشيخَ شهابَ الدين في انتظاركما.

ودّعنا الرجلانِ وانصرفا.

سرْنا مرة أخرى حتى بلَغْنا منتصفَ الرِّواق حيثُ يشتدّ الزّحام بفعلِ تجمّع الغرباء فيه، وكان أحْرى أن يُسمّى (رواق الغرباء).. وفي هذا الرواق يلتقي الوافدونَ على سَمَرقند على اختلافِ مشاربهم، ففيهم من يتّجر في بضاعةٍ له، وفيهم من يبحثُ عن عملٍ يقتاتُ منه، وفيهم من جاءَ يطلب العلمَ، وفيهم من يجلسُ كل يوم يترقّب قادماً من بلدِه لعله يَسمَعُ خبراً عن أهلِه. ومن لطائف هذا الرِّواق جَمْعُه بين الغرائب، وأكْثرُ من يدور فيه من المتسولينَ. وبينما نحن نتجوَّل قادتنا أقدامُنا إلى رجلٍ غريبٍ جلس متربعاً على أكياس الحِنْطة، وجلس قبالته غريب آخر، وكان أحدُهما ينشِد شِعْراً ويردّ عليه صاحبُه، وكأنَّهما يتناجيان، قال الأولُ:

يا مَنْ تجنَّب صبري من تَجَنُّبه ... هَبْ لي من الدمع ما أبكي عليك بهِ

حَتى مَتى زفراتي في تصعّدها ... إلى المماتِ فدمعي في تصوّبهِ

لي فؤادٌ إذا لجّ الغرامُ به ... هام اشتياقاً إلى لُقْيا مُعَذِّبهِ

فَرَدَّ الثاني:

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

إنَّ شَـفـيـعـي إلـيـكَ مِـنّـي دمـوع عـيـنـي وحُـسْـنُ ظـنّـي
فـبـالـذي قـادنـي دلـيـلاً إلـيـك إلاَّ عـفـوْتَ عَـنِّـي

قلتُ في نفسي: غريبانِ برَّحَ بهما الشَّوقُ، وأمضّتْهُما الغربةُ، وأضناهما الانتظارُ. وبينما أنا على هذه الحال، سمعتُ شيخنا العارفَ يقول: يا حاضراً كغائبٍ، إذا رأيتَ التائبينَ تأهّبوا للرحيل عن ديارِ الهَوى فابكِ على تخلفكَ. ويْحَك فاضَ النهرُ فاعبرْ قبلَ الغرق، أتدري ما الذي أزعجَ هذا التائبَ، وأيّ كتاب أقْدَمَ هذا الغائبَ، وأيّ عتابٍ أجْرى دمْعَه الساكبَ، لقد تذكر عَهْدَ ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: الآية 172] فحنّ وتفكّر في بعدِه عن الحبيبِ، ثم طفقَ الشيخُ ينشدُ:

سَرَى نسيمُ الصَّبَا من حاجر قَصَبا وبات يشكو إلى أنفاسِه الوَصَبا
ذو صبوةٍ لم يشم برق الشآم ولا دعا ابنَ ورقاءَ إلاَّ صاحَ واحَرَبا
ما يبرحُ البارق النجديّ يذكره نَجْداً ويطربه وَجْداً إذا التَهَبا
يَوَدُّ لو أنَّ أيّامَ الحِمى رجَعتْ وكيف يرجعُ عيشٌ بعْدَما ذَهَبا

قلتُ: لقد فهمَ الشيخُ من قول هذين ما لَمْ أفْهَمْ. فسبحانَ من أودعَ في قلوبِ عبادِه من نورِ الهداية ما يفيضُ على ألسنتِهم بكشفِ الأسرارِ، وهتكِ الأستارِ.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

عَن العِلْمِ اللَّدُنِّيِّ وَعلْمِ البَاطِنِ والتَّفْسِيرِ الإِشَارِيِّ

في منتصف الرواق الغربي من السوق ثمة خان صغير يفد إليه الغرباء ويقصده السماسرة. كانت به استراحة صغيرة يجلس فيها من أصابه من المشي الإعياء لعلّه يصيب قسطاً من الرَّاحة. اقترحت على الشيخ أن نجلس قليلاً، فوافق. قلت للشيخ العارف بعد أن اتخذنا مكاناً جلسنا فيه: هل يضيرك أن نكمل حديثنا عن الظاهر والباطن فلم أسمع منك بعدُ القول الفصل فيه؟ قال: لا ضير. ولكن اعلم يا بني أن الزعم بفصل المقال في مثل هذا الموضوع دعوى لا أدعيها، وحسبك أن تسمع مني ما اطمأنت إليه نفسي وترجح عندي صوابه، وقد ذهب إلى مثله أكثر أهل العلم ممن عرفوا بين أقرانهم بمجانبة الابتداع، ومجافاة الغلوّ، وعدم الانسياق مع عواطف العامة. قلت: هي والله فلتة لسانٍ منّي، وهي بعض أثر خلّفته في عقلي كتابات أَبي الوليد الحفيد. قال رحم الله ابن رشد لو استبدل لفظة (تهذيب) بلفظة (فصل) من عنوان رسالته (فصل المقال في ما بين الحكمة والشريعة من اتصال) لكان أقرب إلى الإنصاف وأبعد عن الاعتساف.

قلت: وقفنا عند عرض أدلة القائلين بوجود ما يطلق عليه اسم (علم الباطن) وهي أدلة واهية من جهة النقل، وهي من جهة النظر تحتمل أكثر من معنى. قال: نعم وجرياً على قاعدة (ما طرقه الاحتمال سقط به الاستدلال) لا تقوم بها حجة على الخصم.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

قلت: وماذا بقي بعد؟ قال: بقيت آيات قرآنية يحتجّون بها في هذا الموطن، وأظنه فاتك ذكرها. وأرى من الإنصاف أن نعرض لها. قلت: لعلّك تعني حكاية موسى والرجل الصالح كما جاءت في سورة الكهف؟ قال: نعم، وهي أقوى الأدلة على وجود العلم الباطن الذي يسمونه أحياناً العلم اللدني، وهي تسمية لا أراها صحيحة. فالعلم الباطن كما أفهم تنبعث أسراره من الشيء أَو الحدث المراد فهمه أَو تأويله، بينما العلم اللدني تأتي أسرار كشفه من خارجه. وإذا قصر عقلك عن فهم ما رميتُ إليه فها أنذا أبسط لك الموضوع على النحو الذي تحب. اعلم يا عبد الله أن الأقوال والأفعال قد تخفي في باطنها أسراراً تفصح عن حقيقتها ولا تعلن عن نفسها في الظاهر، ولا يتم الاهتداء إليها إلاَّ بالوقوف على مفاتيحها. وهذه المفاتيح يهبها الله لمن يشاء بسبب وبلا سبب وهو على كل شيء قدير، فتنكشف له أسرارها وذلك هو العلم اللدني أي العلم الموهوب من لدن الله.

وقد يهتدي الناظر إلى تلك المفاتيح بكشف القوانين التي تحكمها من الداخل وهذا طريقه العلم والنظر وكثرة التأمّل، ودليله أن يسلِّم له الظاهر ويوافقه عليه وهذا هو العلم الباطن أَو علم الباطن، والباطن في الأول صفة للعلم أي العلم الموصوف بأنَّه باطن غير ظاهر للعيان، وفي الثاني مضاف إلى العلم أي العلم المستخلص من الباطن لا من الظاهر، والثاني هو الذي يدور حوله الحديث.

والعلم اللدني يا بني علم صحيح، إلاّ أنه لا يزعم أحدٌ أنه أوتيه من غير الأنبياء والرسل، ومن زعم ذلك فعليه نصب الدليل على دعواه وهذا ما لا سبيل إليه. وأما علم الباطن ففيه الصحيح والفاسد، والصحيح منه كما علمت ما وافقه الظاهر أو شهد له، وهذا معنى قول العارفين: (كل حقيقة لا تشهد لها شريعة فهي باطل). وإذا تبين لك ذلك فاعلم يا عبد الله أن حكاية موسى عليه السَّلام مع الرجل الصالح تدور حول العلم اللدني، وهذا ما لا ينكر وهو علم يهبه الله لأنبيائه، والرجل الصالح نبي مثلما موسى نبي. ودعوى أن الرجل الصالح وليٌّ من أولياء الله دعوى عارية عن الدليل ولم يذهب إليها إلاَّ جماعة من الصوفية

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

منهم القشيري في رسالته. وقد ساق ابن حجر العسقلاني الأدلة على كونه نبياً في رسالته (الزهر النضر في نبأ الخضر) التي ذكرتها لك فيما مضى عند حديثنا عن حياة الخضر وموته. ومن زعم أن الخضر وليٌّ فهو يريد أن يفتح الباب أمام كل من يدعي الولاية أنه يتلقى مباشرة عن الله وهذا معنى قول أحدهم: (أخذتم علمكم ميتاً عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت)، ثم إن موسى عليه السلام لم يكن أقل علماً من الخضر، ولكن كل واحد منهما انفرد بعلم لم يعلمه صاحبه وقد ورد ذلك في حديث المصطفى الذي رواه البخاري في صحيحه في (كتاب التفسير) عند التعرّض لحكاية موسى والرجل الصالح كما وردت في سورة الكهف، حيث جاء على لسان الخضر قوله: (يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمك الله لا أعلمه) لهذا ليس لغير نبي أن يزعم مثله إذ لا يؤمن على دعواه وساوس النفس وهواجسها، ولا يكون غيره حينئذٍ ملزماً بتصديقه، ولا جناح على منكر دعواه إن أعرض عنه، ولا تثريب على من أنكر على بعضهم قوله: (حدَّثني قلبي عن ربي) ولو ترك هذا الباب يا عبد الله مفتوحاً ما عدم والجاً، ولكثرت الدعاوى والادعاءات ولاضطربت بذلك الأفهام.

قلت: وما تقول في قوله تعالى من سورة الأنبياء: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ [الأنبياء: الآية 79] قال: هذه كتلك. ومن يزعم أنه كسليمان عليه السلام فليقم الدليل على دعواه.

إن الاضطراب في الفهم إنما جاء من التسوية بين العلم اللدني وعلم الباطن، فالله يوفق عبده من غير الأنبياء إلى فهم بنور يشرق في قلبه يهديه إلى الحق وإذا أصابه العبد المؤمن قال: (هذا ما وفَّقني الله إلى فهمه، فإذا كان صواباً فمن الله، وإن كان خطأ فمني) وهذا من علامات التأدّب مع الله والتواضع مع الخلق.

قلت: وماذا عن التفسير الباطني للقرآن، وهذه التفاسير الإشارية التي راجت بين أيدي المتصوفة؟ قال: اعلم أن التفسير الباطني للقرآن هو تأويل

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الآيات تأويلاً لا يقوم على أصل، وذلك بصرف الألفاظ عن ظاهر معناها بلا قرينة أو بقرينة فاسدة يتمحلها المؤول على غير مقتضى اللغة والعرف. والفرق بين التفسير الباطني والتفسير الإشاري على ما قرَّره أهل العلم هو أن الأول يبنى على مقدمات تنقدح في ذهن المؤول أولاً ثم ينزل القرآن عليها بعد ذلك، والثاني ينبني على رياضة روحية ومجاهدات يأخذ بها المؤول نفسه حتى يصل إلى درجة تنكشف له فيها معانٍ مستورة يسوقها في إشارات عابرة والأول يرى صاحبه أن ما ذهب إليه هو الحقّ ولا حق غيره وأن الآية لا تحتمل غير ما ذهب إليه، والثاني يرى صاحبه أن ما وقف عليه من معان هو بعض معاني الآية وليس كلها.

والفرق واضح بين من يزعم أن فهمه للآية هو الفهم الوحيد ومن يزعم أن فهمه هو بعض من معانيها.

قلت: متى يكون الباطن هو المراد من الخطاب؟ قال: لقد أجاب عن سؤالك هذا أَبو إسحاق الشاطبي في كتابه (الموافقات) وهو من أشهر المصنَّفات في أصول الفقه. قلت: ماذا قال؟ وفي أي موضع من كتابه. قال: ذكر ذلك في الجزء الثالث منه عند تعرضه للأدلة الشرعية، وتجد ذلك في المسألة الثامنة والتاسعة والعاشرة من الطرف الثاني في الأدلة التفصيليَّة، وفيه يقول: (وكون الباطن هو المراد من الخطاب يشترط فيه شرطان: أحدهما: أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر في لسان العرب ويجري على مقاصد العربية. والثاني أن يكون له شاهد نصاً أو ظاهراً في محل آخر يشهد لصحته من غير معارض..) وقد فسَّر رحمه الله هذين الشرطين بقوله: (فأما الأول فظاهر من قاعدة كون القرآن عربياً، فإنه لو كان له فهم لا يقتضيه كلام العرب لم يوصف بكونه عربياً بإطلاق، ولأنه مفهوم يلصق بالقرآن ليس في ألفاظه ولا في معانيه ما يدل عليه، وما كان كذلك فلا يصح أن ينسب إليه أصلاً.. وأما الثاني: فلأنه إن لم يكن له شاهد في محل آخر أو كان له معارض صار من جملة الدعاوى التي تدعى على القرآن، والدعوى المجردة غير مقبولة باتفاق العلماء..) ولذلك، فمن قال إن

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

المراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً﴾ [البَقَرَة: الآية 67] هي عائشة. فقد جاء بالبهتان. فلم يرد البتة أن البقرة تعني في لغة العرب المرأة فضلاً عن عائشة رضي الله عنها، لا حقيقة ولا مجازاً.

ومن هذا الضرب قول بعض الباطنية إن المراد بـ(الغسل): تجديد العهد، و(الصيام): الإمساك عن كشف السرّ، و(الكعبة: النبي) و(الباب): عليٌّ و(الصفا): النبي، و(المروة): علي، والطواف سبعاً: هو الطواف بمحمَّد ﷺ إلى تمام الأئمة السبعة و(نار إبراهيم): هي غضب نمرود لا النار الحقيقية. قلت: أذكر أنني وقفت على شيء من هذا في تفسير لابن عربي وهو تفسير يطفح بالمجازفات والتأويلات الفاسدة. قال: التفسير الذي أشرت إليه ليس لابن عربي وإنما يُنسب إليه، وإن كان ابن عربي يذهب إلى مثل هذه التأويلات في بعض كتبه لا سيما (الفتوحات المكية) و(فصوص الحكم) قلت: إذا لم يكن التفسير لابن عربي فلمن هو؟ قال: الأصح أنه لأحد تلاميذه وهو عبد الرزاق القاشاني. وقد وردت فيه عبارة في تفسير سورة القصص جاء فيها: (. . . وقد سمعت شيخنا نور الدين عبد الصمد قدّس روحه العزيز في شهود الوحدة والفناء. .) ونور الدين هذا توفي في أواخر القرن السابع الهجري، وإذا علمنا أن ابن عربي توفي سنة ثمان وثلاثين وستمائة فلا يصح أن يكون شيخاً له. وثمة دليل آخر على عدم صحة نسبة هذا التفسير للشيخ محيي الدين بن عربي وقف عليه بعض المتأخرين من أهل العلم وهو أن صاحب (كشف الظنون) ذكر أن للقاشاني تفسيراً باسم (التأويلات)، وقد ساق أول مقدمته، وهي عينها مقدمة هذا التفسير المنسوب لابن عربي.

وثمة دليل ثالث على عدم صحة هذه النسبة وهو أن الأسلوب الذي كتب به هذا التفسير لا يشبه أسلوب ابن عربي الأكثر غموضاً، ويمكن الوقوف على ذلك عند تفسيره لبعض الآيات في كتابه (فصوص الحكم) و(الفتوحات المكية).

قلت: هل التفسير الإشاري كله على شاكلة واحدة؟ قال: كلا. فهناك من

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كتب التفسير الإشاري ما لا يبعد في التأويل عن المعاني الظاهرة للآيات الكريمة، وهي تفاسير حسنة إلاَّ أن أكثرها لا يستوعب القرآن كلّه. ومن أحسنها تفسير القشيري المعروف بـ(لطائف الإشارات)، ومن كتب التفسير التي تجري هذا المجرى عند المتأخرين تفسير (روح المعاني) للسيد محمود شهاب الدين الآلوسي الذي أفرد باباً للمعاني الإِشارية عند نهاية كل مجموعة من الآيات القرآنية.

قلت: ولم خصت الإشارة لنعت هذا الضرب من التفسير الصوفي؟

قال: يرجع هذا لقولهم بأن للآية ظاهراً وباطناً. وهذا الباطن لفرط غموضه تنوء بالإفصاح عنه العبارة، وعند عجز العبارة تكون الإِشارة، وهذا ما نجده في كلام مقدميهم وكبرائهم، ومن ذلك قول الكلاباذي في (التعرف): (وإنما قيل علم الإشارة لأن مشاهدات القلوب ومكاشفات الأسرار لا يمكن العبارة عنها على التحقيق بل تعلم بالمنازلات والمواجيد ولا يعرفها إلاَّ من نازل تلك الأحوال وحل تلك المقامات) ومنه ما أنشده أَبو العباس بن العطاء:

إذا أهل العبارة ساءلونا ... أجبناهم بأعلام الإشارة
نشير بها فنجعلها غموضاً ... تقصر عنه ترجمة العبارة

ومن ذلك أيضاً قول محمَّد بن عبد الجبار النفري في كتابه (المواقف): (كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة) وقوله: (الحرف حجاب).

نهض الشيخ، ونهضت في إثره، وسمعته ينشد:

رأيت خيال الظل أكبر عبرة ... لمن هو في علم الحقيقة راق
شخوص وأشباح تمر وتنقضي ... جميعاً وتفنى والمحرك باق

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

العَارِفُ النّيْسَابُورِيُّ والمرَابِي...

بينما نحن نخترقُ الزِّحامَ في الرّواقِ الغربيِّ تعالت أصواتٌ وغمغماتُ حشدٍ من الناس تجمّعوا حول رجلين كان أحدُهما يشدّ بخناقِ الآخر. دفَعَنا الفُضولُ إِلى الاقترابِ لنتبيَّن جلية الأمرِ. كان شاؤول اليهوديُّ المرابي قد أمسكَ بتلابيبِ رجلٍ مدينٍ له. لم يستطع الرّجلُ المسكينُ أن يُسدّدَ ما عليه من ديْنٍ في الأَجَلِ المضروبِ. تعاظم دَيْنُه لأن ذلك اليهوديَّ كان يقرِض برِبا، فكلما حانَ أَجَلُ السَّدادِ وعجزَ المسكينُ عن الوَفَاءِ بديْنِه أنْسَأهُ ذلك الخبيثُ إِلى أجلٍ جديدٍ مع زيادةٍ عليه. كان المرابي يشدُّ الرجُلَ نحوه، والناسُ يشدّونه نحوَهم حتى تمزّقت ثِيابُه. كان منظراً مُريعاً يُثيرُكَ فيه ما تَرَاه من هَوَانٍ وفجورٍ، وكيف ينتفِخُ فيه القويُّ الفاجرُ على الضّعيفِ المخذولِ. قلتُ في خاطِري: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ ولولا أن الناسَ قد استَمْرأوا أكْلَ الحَرَامِ لَمَا تَطَاولَ باطِلٌ على حَقّ. اقتربنا أكثرَ حَتّى لم يَبْقَ بيننا وبينَ الرَّجلين أكْثَرُ مِن ذِراعين. سَأل الشيخُ العارفُ: ما الأمرُ؟ أجابَ شاؤولُ المرابي في ابتسامةٍ صفراءَ ماكرةٍ: عجيبٌ أمرُ هؤلاء القوم يتضرّعون عند الاستدانةِ وينكصُون عند السَّداد. اندفعتُ قائلاً: ولكنَّ هذا رِباً. و﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البَقَرَة: الآية 276].

ضَحِكَ الخبيثُ وقال: هَذا في مِلَّتِكم، قلتُ: ولكِنْ أنت في دارِ المسلمينَ وتَجْري عليك أحكامُ الإسلام. قال: وما لزَّه إلى ذلك، وهو يعلمُ أنَّ

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الإسلامَ حَرَّمَ الرِّبا. أَأُلام إن عَمِلْتُ بِأَصْلِ ملّتي ويُعْذَر لتَرْكِ أحكَام ملّتِه؟ هذا عجيبٌ والله! قال الشيخُ العارف: أَما مِن سبيلٍ لتَسويةِ هَذا الأَمْر؟ قال المرابي: لا سبيلَ إلاَّ أَنْ يسدِّد الرّجلُ ما عليه أَو أَسوقَه إلى السِّجنِ. قال الشيخُ: أَما مِن سبيلٍ غَير هذِه؟ قال: نَعم. أَنْ يعْملَ عندي سَبْعَ سنينَ متواصِلة نظيرَ ما عليه من دَيْنٍ. قلتُ: هذا ظلمٌ. والظلمُ ظلماتٌ يومَ القيامةِ.

اقتربَ الشيخُ من المرَابي ووَضَع يَدَه على كَتِفِه، وقالَ له: اسمَعْ يا هذا. أراكَ رَجلاً ذكياً ولا تنقُصُك الحكمةُ، وأنت تَعلَمُ أنّهُ لا سبيلَ إلى ما تَبغي وما أراكَ مُدْرِكاً حاجَتَك إن أُودِعَ الرّجلُ السّجنَ. هذا إنْ سَلّم لك القاضِي بدَعْوَاكَ. قال منتفضاً: كيفَ لا يسلّم بذلك وعندي ما يُؤيّدها؟ قال الشيخُ: نَعَم. ولكن إنْ حَكَم لك القاضِي فسيحكُمُ لك بأَصلِ مَالِك بلا زيادةٍ عليه. قال المرابي: إجلالاً لمقامِك أيها الشيخُ سأثبت لك أنني أكْرَمُ مما يَظُنُّ هؤلاء الناس، وسَأَعْرِضُ حَلاًّ ثالثاً إما أن يكونَ فيه خَلاصُ الرّجلِ أَوُ أُدْرِكَ بعض حقّي. قال الشيخُ: هاتِ أسمِعْنا. مدّ اليهوديُّ يدَه نحو كيسٍ من الخيشِ مملوءٍ بالقَشّ كان مُلقًى عند بابِ أحَدِ الدّكاكين، وقالَ: سَأُلْقِي في هذا الكيسِ بحَصاتين، واحِدَة سَوْدَاءَ وأُخْرَى بَيْضَاءَ، ولك أنتَ أيها الشيخُ أن تُخْرِجَ واحِدَةً منهما. فإذا خَرَجَتْ البيضاءُ تَرَكْتُ الرّجلَ ودَيْنَه وأَبْرأتُه مما عَليه، وإذا خَرَجَتْ السّوداءُ فعليه أن يَعْمَل عِندي سَبْعَ سنواتٍ متواصِلة بِلا أجرٍ، وما أرانِي إلاَّ أنصَفْتُ. لم يَملكِ الرّجُلُ المسكينُ إلاَّ أن يرفعَ يديه مستغيثاً داعِياً: «اللّهمَّ إني أعوذُ بك من غَلَبَةِ الدَّيْنِ وقَهْرِ الرِّجَال» اقترب منه الشيخُ العارفُ مبتسِماً. وقال: هوِّن عليك، فلعلَّ في ذلك فَرَجاً.

التفتَ الشيخُ نحو شاؤول اليهوديّ، وقال: قَبِلَ الرَّجُلُ وقَبِلْتُ.

انحنَى المرابي إلىٰ الأرضِ، ومَدَّ يَدَه والتقطَ حَصَاتينِ بسرعةٍ دون أن يفطنَ أحدٌ إلى أنّهما كانتا سَوْدَاوين، وألقَى بهما في جوفِ الكيسِ ظاناً أنّ أحداً لم ينتَبِه إلى ما صَنَعَ، ولكنَّ الشيخَ العارفَ بفطنته المعتادَة لم تَنْطَلِ عليه حيلَةُ ذلك اللعينُ، ولم يَعترض عَلَى ما فَعَل. قَرَّبَ المرابي الكيسَ من الشيخِ وهو

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

مطمئنٌّ إلىٰ أنّ الحَصَاة التي سيخرِجُها الشيخُ لن تكونَ إلاَّ سوداءَ فيقع المستدِينُ في حبائِلِه من جديدٍ، وهذه المرّة بحُكْمِ ارتضاه الناسُ. أدخل الشيخ يدَه، وأخرجَ في قبضته حصاةً، ثم تظاهرَ بأنه تعثّر فسَقطتُ الحصاةُ من يدِه. تأسَّف المرابي والناسُ جميعُهم لأنهم لم يَعْرِفوا لوْنَها.

لكنّ الشيخَ بادَرهم بقولِه: لا بأسَ، سنَنْظر في الحَصَاة الأُخرَى المتبقيَةِ في الكيس فَلَوْنُها بلا ريبٍ غير لوْنِ التي سَقَطَتْ، امتُقِعَ وَجْهُ المرابي وأدركَ أنه سُقِطَ في يَده. أدخَلَ الشيخُ يدَه في الكيسِ من جديد وأخرَجَ الحَصَاةَ الثانيةَ وكانت سَوداءَ. قال الشيخُ: التي سَقَطَتْ إذن بَيْضَاءُ. صاحَ الناسُ: الله أكبرُ. لقد نَجَا الرجلُ، وَسَقَطَ دَيْنُ المرابي. ارتفَعَتِ الأصواتُ وسارَ الناسُ بالرجلِ المسكين بعيداً، وانفضَّ الجمعُ ولم يبقَ إلاَّ المرابي والشيخُ وأنا. مال الشيخُ نَحْوَه، وقال: عَلَى نفسِها جَنَتْ بَراقشُ. ثم قَرَأَ قولَه تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البَقَرَة: الآية 275] أشاح الشيخُ بوجهِهِ، ثم انطلقَ لِشَأنِهِ وَسِرْتُ وراءَه، ولم نبتعِد كثيراً حتى سَمِعْنا هَرجاً شديداً يرتفعُ من جديدٍ، نَظَرْنا وراءَنا. فإذا بِصِبْيةِ السُّوقِ يتقدَّمُهم منصورٌ الدرويشُ يَجْرونَ وراء المرابي وهم يَضرِبُونَه بِنعالِهم. ويُنْشِدونَ:

مُـــرَابـــي مُـــرَابـــي سَـــلـــيـــلُ الـــذِّئـــابِ

بِـــهِ فـــأنْـــزِلـــوا شَـــديـــدَ الـــعـــقـــابِ

ضَحِكَ الشيخُ، وضَحِكْتُ، وقلتُ الحمدُ لله باتَ مَنْصُورٌ الدرويش آمِناً في سِرْبِه. عند إحْدَى بَوّاباتِ السّوقِ ارتفعَ آذانُ الظهرِ، وهُرِعْنا نحوَ الجامعِ الكبيرِ بِسَمَرْقندَ. دَخَلنا إلىٰ المسْجدِ، وَصَلَّيْنا ركعتين خفيفتين تحية المسْجدِ.

تقدّم رَجلٌ في منتَصَفِ العُمْرِ، وجلس على مقعدٍ مصنوعٍ من خَشَب الأبَنُوس على يَمين المِحْرابِ، وَطَفقَ يُنْشِد أذكاراً وأشْعاراً في حُبِّ المصطفى وآله. كان المُنْشِدُ يرفَعُ صوتَه الرّخيمَ حيناً ويخفِضُه، فتتَعالى أصواتُ الحاضِرينَ بالتهليلِ والتكبيرِ. كان مِزْماراً من مَزَاميرِ دَاودَ ما وَقَعَتْ ترنيمةٌ مِن ترانيمِه في مَسْمَعِ أحَدٍ إلاَّ اضطَرَبَتْ جَوانِحُه وفاضتْ عيناهُ بالدّمعِ. وكان مِمّا أنشدَه:

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أَحَجَبتهم أم يا تُرَى حَجَبُوني ... أَنَا لا أَزالُ أراكَ مِلءَ عُيُوني
زَعَمُوا بأَنَّك هاجِري مَا حِيلَتي ... فِيمَا افْتَرَوْا لَو أَنَّهم ظَلَموني
إِنِّي لأَحْسَبُني لديكَ مُدَلَّلاً ... مِنْ أجلِ ذَلِكَ سَيِّدي حَسَدوني
مَا لي أُسَرُّ بَعَذْلهم وكأنني ... كَلِفٌ به كَي أستزيدَ شُجُونِي

لا ينقضي صدى صوت المنشد الأول حتى يرتفع صوت منشد آخر جلس على مقعد في مؤخرة المسجد:

أَسْعَى لرَوْضِكَ أَهْدِي الرّوضَ أنغَامي ... فَفِي رياضِكَ آمَالِي وَآلامِي
مَا شَفَّني الوَجْدُ إِلاَّ جِئْتُ ساحَتَكم ... أبغِي مُدامِي وألحَانِي وإلهَامِي
زَلَّتْ عَلَى الأَرْضِ رُوحِي وَهْيَ طَاهِرَةٌ ... وَاحَيْرَةَ الرُّوحِ في مُرْبَدِّ آثَامي
الأرضُ في ثَوْبِها الزاهي وَفِتْنَتُها ... تَبدو وإبليسُ يَسْقِي غَرْسَهَا النَّامِي
سَقَى المطامِعَ حتى اخضَلّ مُجْدِبُها ... ومُورِقُ النَّبْتِ يُغْرِي كُلَّ ظَلَّامِ
وَاخْتارَ ربُّك من بينِ الورى مَلأً ... أهدَى لهم قَبَساً مِنْ نُورِه السَّامِي
النُّورُ أنتَ رَسُولَ الله جَوْهَرُه ... وأنتَ وَحْدَك مُنْجِي العَالَمِ الدَّامِي

انقطَعَ الإِنْشَادُ ونَزَلَ المنْشِدُ الأوّلُ مِنْ عَلى مَقْعَدِه وَنَهَضَ شيخٌ جليلٌ لم أَعْرِفْه وجَلَسَ عَلَى المقْعَدِ ثم شَرَع يَعِظُ:

أَيّها الأغرَارُ، هل أثقلتكُمُ الأوزَارُ؟ التّوبَةَ التّوْبَة، ولكلِّ حَوْبةٍ أَوْبة، واعلَمُوا أنَّ الله غَنيٌّ عن العِبادِ وَهُمُ الفقراءُ إليه. فمتَى تؤوبُ إلى مولاكَ أيّها العبْدُ الآبقُ، أغرّكَ طولُ الأمدِ أم اتّخذتَ عند الرَّحْمٰن عَهْداً.

﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسرَاء: الآية 72].

تَفُوزُ بِنَا المَنُونُ وَتَسْتَبِدُّ ... وَيأخُذُنا الزَّمَانُ ولا يَردُّ
وأنظُر ماضِياً في إثرِ ماضٍ ... لقد أيقنتُ أنَّ الأمْرَ جِدُّ
رُويداً بالفرَارِ من المَنَايا ... فليس يفوتُها السّاري المُجِدُّ

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

فأيْنَ ملوكُنا الماضُونَ قِدْماً ... أعَدّوا للنوائِبِ واستَعَدّوا
أعارَهُم الزَّمَانُ نعيمَ عيْشٍ ... فيا سُرْعانَ ما استلبُوا ورُدُّوا
هم فَرَطٌ لنا في كلِّ يوم ... نمدّهم وإنْ لَمْ يَسْتَمِدُّوا

أيّها الغافِلُ هل أَصَبْتَ وَطَرَك؟ أم أَصَابَك؟ فنعيمُ دنياكَ عَذابُك. يُنْبِئُك إن كُنْتَ تَجْهَلُ أُصَيْحَابُك. يا خَيبةَ المسْعَى، وعمرُكَ يَسْعَى، وقد أثقَلَتْكَ أَوْصَابُك. فَمَا زَهَا في عُيونِك، مِن فُنونِك، وقد تَحَامتك اليومَ أزلامُك وأنْصَابُك.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا * ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا * ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا * إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا * قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: الآيات 103 ـ 109].

قُلْ لِمَنْ فَاخَرَ بالدُّنيا وَحَامَى ... قَتَلَتْ قَبْلَكَ سَاماً ثُمَّ حَامَا
نَدفنُ الخِلَّ وَمَا فِي دَفْنِنَا ... بَعْدَهُ شَكٌّ وَلٰكِنْ نَتَعَامَى
إنَّ قُدَّامَكَ يَوْماً لَوْ بِهِ ... هُدّدتْ شمسُ الضُّحَى عَادَت ظَلاَما
فانتبِه مِن رَقْدَةِ اللهْوِ وقُمْ ... وانْفِ عَن عَيْنِ تَمَاديكَ المَنَامَا
صَاحِ صِحْ بالقَبْرِ يُخبِرْك بمَا ... قد حَوَى واقْرأ عَلَى القَوْمِ السَّلاَمَا
فَالعَظِيمُ القَدْر لَوْ شاهَدتَه ... لم تَجِدُ في قَبْرِه إلاَّ العِظَامَا

نَزَل الشّيخُ المهيبُ الواعِظُ من عَلَى المقْعَدِ وَقَد اخْضَلَّتْ لحيَتُه من فَرْطِ ما ذَرَفَ من دَمْع، بَكَى النَّاسُ، وبكيتُ وبَكَى الشيخُ العارِفُ من شِدّةِ الوَجْدِ، وَخِلْتُ أنّي سَمِعْتُه يُنْشِدُ في صَوْتٍ خافتٍ:

والله لو كانت الدُّنيا بأَجْمَعِهَا ... تُبْقِي عَلينا ويَأتي رِزْقُها رَغَدَا
ما كَانَ مِن حَقِّ حُرٍّ أن يُذَلَّ لها ... فكيفَ وهي مَتَاعٌ يضْمَحِلُّ غَدَا

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT
Est. 2012 CE

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

في بيتِ الشيخِ علاءِ الدِّين الحَائِك..

خَرجْتُ من المسجدِ تاركاً الشيخَ العارفَ قابعاً في زاويةٍ من زواياه يقرأُ القرآنَ على أن أعودَ إليه عند صلاةِ المغربِ لأصطحبَه إلى بيتِ صاحبِه شيخِنا أبي الحسنات. عَرّجتُ في طريقي على دكانِ صديقِنا أَبي عليّ الورّاق لَعلّي أظفرُ عنده ببضاعةٍ جديدة، وإنْ كانت بضاعتُه مما يزهَدُ فيها الناسُ هذه الأيام. سلّمتُ على الرجلِ فردَّ في فتورٍ فقلتُ متمثّلاً بقولِ أَبي الطيّب:

أُقِلُّ سَلامي حبَّ ما خفَّ عنكم وأسكتُ كيما لا يكون جوابُ
وفي النّفسِ حاجاتٌ وفيك فَطانةٌ سكوتي بيَانٌ عندها وخِطَابُ

افترّ ثغرُ أَبي عليّ عن ابتسامةٍ تنمّ عن الرّضا والموافقةِ، وقال: رَحِمَ الله صاحبَك أبا الطيّب لو كان يدري ما سيؤول إليه أمرُ الكِتابِ بين أيدي الناسِ لما قال بيتَه الذي طارت شهرتُه في الآفاق:

أَعزُّ مكانٍ في الدُّنَى سَرْجُ سابحٍ وخيرُ جليسٍ في الزَّمانِ كِتَابُ

هوذا يا صاحِبي خَيْرُ الجليس، تشتريه بالنَّفيسِ، وتبيعُه بفلسٍ. هل رأيتَ بالله عليك وَرّاقاً ظهر عليه أثرُ النعمةِ فبَطِرَها.

قلْتُ: هذا صحيحٌ أبا عليّ. ولكن لا يفوتنّك أنَّ الكتابَ بلغة السّوق بضاعةٌ تُباعُ وتُشترى شأنُه شأنُ أيّ بضاعةٍ أخرى تَحْكُمها قوانينُ السوقِ

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وأحكامُها، ولو عَلِمْتَ ذلك، وما أراك تَجْهَلُه، لَهَانَ عندك الخَطْبُ ولسلّمْتَ بأنَّ قَدْرَ النَّفيسِ لا يعلو في عَيْنِ الخَسِيسِ.

ضَحِكَ صاحبي حَتّى بَدَت نواجذُه، وقال: أَمْرَعْتَ فانْزِل. قلتُ: ما جديدُك يا أبا عليّ؟ قال: كتابٌ وَصَلني اليومَ لابن عبدِ الهادي بعنوان (الصّارمُ المنْكي في الردِّ على ابنِ السّبكي) وآخَرُ وَصَلني أمْسِ بعنوان (السيفُ الصقيلُ في الردّ على ابنِ زفيل) قلت: أشتري الكتابينِ بِمَا مَعي. قال: ومَا مَعَكَ؟ قلتُ: بيتان من الشّعر.. قال: هاتِ أسْمِعني لو أعْجَبَني زِدْتُك عليهما ثالثاً. قلتُ: اسْمع إذن:

تَـعَـوّدَ بَـسْـطَ الـكَـفِّ حَـتَّـى لَـوَ أنَّـه ... ثَـنَـاهـا لـقَـبْـضٍ لـن تُـجِـبْـهُ أنـامِـلُـه

ولَوْ لـم يَـكُـنْ فـي كَـفِّـهِ غـيـر روحِـه ... لـجـادَ بـهـا فـلـيـتّـقِ الله سـائِـلُـه

قال: لقد اتقيْتُ. والكتابان لَك. ولو زِدْتَني بيتينِ لَزِدْتُكَ ثالثاً. قلتُ: هذه صَفْقَةٌ لا يُفوِّتُها إلاَّ أَحْمَقُ. أصغِ أبا علي:

أُحِبُّ مِنْ حُبِّكُم مَنْ كَانَ يُشْبِهُكُم ... حَتى لقد كدتُ أهوَى الشمسَ والقَمَرا

أَمُـرُّ بـالـحَـجَـر الـقـاسـي فـألـثـمُـه ... لأن قـلـبَـك قـاسٍ يُـشْـبِـهُ الـحَـجَـرا

قالَ ظَفرتَ عبدَ الله بِحَاجَتِك. نَظَر حَوْلَه فَوَقَعَ بَصَرُه على كتابِ: (الصَّواعقِ المحْرِقة) للهيثمي، أخَذَه ومَدَّه إليّ.

كنتُ أعلَمُ مَبْلَغَ الضّنكِ الذي يَحياهُ أَبو عليّ، وهو مَع ذَلك يُؤْثِر أبياتاً منَ الشِّعْرِ على دَراهِم يقتاتُ بها، وهو أحوجُ ما يكون إليها. يا سبحانَ الله هو ذا أَبو عليّ كما عرفتُه منذ أمدٍ لم يتغيّر. مجموعةٌ من الطّباعِ المتنافِرَةِ والخِلالِ العجيبةِ، فهو يُرْضيه القليلُ حيثُ يُرْتَجَى الكثيرُ ولا يقنَعُ بالكثيرِ حيث يكفيه القليلُ.

لقد أحبَبْتُه بِخِلالِهِ تلك قَدْرَ حبّي لأَشْيَاخي، ولربَّما أكثرَ منهم لأنه من أترابي، وكنت أفزَعُ إليه كلّما ضِقْتُ بنفسي ذرعاً وبالناسِ. لقد ذَكّرني حَالي مع

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

أَبي عليّ بقصيدةٍ قالها الشريفُ الرضيُّ في صاحِبِه وَحِبِّه أبي إسحاق إبراهيم بن هلالٍ الصّابي التي مطلعُها:

دَعْ مِنْ دُمُوعِكَ بَعْدَ البَيْنِ للدِّمَنِ غداً لِدارِهِمُ، واليومَ لِلضُّعُنِ

وفيها هذه الأبيات:

لقد تَوَامَقَ قَلْبانا كأنَّهما تراضعا بدمِ الأحشاءِ لا اللَّبَنِ

أنتَ الكَرى مؤنِساً طَرْفي وبعضُهُم مِثل القَذَى مَانِعٌ عيني من الوَسَنِ

تَأَبَّطْتُ الكتبَ، وقلتُ لأَبي عليّ مُمازحاً: هَوِّن عليك سأقرأ فيها حتى إذا فرغتُ منها أَعدْتُها إليك. ابتسمَ صاحِبي ولسانُ حالِه يقول: تُحْسِنُ صُنْعاً إنْ تَفْعَل. تركتُ دكَّانَ أَبي علي وسرتُ نحو داري عَجِلاً. دخلتُ الدارَ وَشَرَعْتُ أقرأُ في الكتابِ الأول ساعَةً من الوقتِ، ثم لم أَلْبَثْ أن تَحَوَّلتُ إلى الكتاب الثاني ولمّا أَنْتَهِ بَعْدُ من قراءةِ الأولِ ولم يكُن حَظُّ الكتابِ الثاني بأحْسنَ من الأول إذ لم أنتَهِ من قراءةِ نَحْو ثَلاثينَ صفحة منه، حتى وَجَدتُني أضَعُه جانباً وأشرَعُ في قراءةِ المباحثِ الأولى من الكتابِ الثالثِ. لم يَمْض وقتٌ طويلٌ حتى بدأت أتثاءَبُ ألقيتُ الكتابَ، ورحْتُ أغطّ في النّومِ. استيقظتُ فَزِعاً وخِلْتُ أنني نِمتُ دهْراً، وما هي إلاَّ ساعةٌ من زَمَان. توضأتُ وصليتُ العصرَ ثم احتضنتُ الكتبَ الثلاثة وَضَمَمْتُها إلى صَدري كما تضمّ الأمُّ وليدَها إليها. وخرجتُ مِن جديد، واتجهتُ رأساً إلى جامعِ سمرقندَ الكبير حيث كان الشيخُ العارفُ ينتظرني. دخلتُ المسجدَ، فوجدتُ الشيخَ لم يَبْرَح مكانَه الذي تركتُه فيه وكأنّما شُدّ إليه بوثَاق. جلستُ عند ساريةٍ من سَوَاري المسجدِ أقرأُ شيئاً من القُرآن حتى أُذِّنَ للمغربِ. اقتربَ الشيخُ من إبريق ماءٍ كان موضوعاً في كُوَّة بجدارِ المسجدِ، وبَلّلَ ريقَه بقليلٍ من الماء وهو يتَمْتِمُ: ابتلّت العروقُ وذَهَبَ الظمأُ وكُتِبَ الأجرُ إن شاءَ الله. أخرجتُ بِضْعَ تمراتٍ من جيبي كنتُ أحضرتُها معي، وقدمتُها للشيخِ فتناولَها وهو يدعو: اللَّهمَّ لك صُمْنا وعلى رزقك أفطَرنا فتقبّل منّا إنَّك أنتَ السميعُ العليمُ. صلَّينا المغربَ وخرجنا نريدُ بيتَ الشيخِ أَبي الحسنات حتى

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

بلغناهُ، وَوَجَدْنا الشيخَ الجليلَ علاء الدين متسمِّراً عند بابه يَرْقبُ قدومَنا. وكانت تلك عادة من عاداتِه الحَسَنة. رَحّب الشيخُ بمقدَمِنا وأدخَلَنا إلى دَارٍ فسيحةٍ جَعَلَها نصفين: نصفاً ضَمّ مكتبتَه العامِرةَ، ونصفاً جعله لاستقبالِ ضيوفِه. وكُلّ من يَعْرِفْ مُضيفَنَا عن كَثَب يَعْلَمُ أن هذِهِ الدار هي أحْسَنُ ما في بيته المتواضِع. كان شيخُنا القاضي شهابُ الدين قد سَبَقنا إلى الدار. فما إن رَآنا حَتى نَهَضَ وَسَلّمَ علينا وأَجلَسَ الشيخَ العارفَ إلى جانبه وهو يقول لي: هنيئاً لك عَبْدَ الله صُحْبَةَ الشيخِ. فصحبةُ الأخْيَارِ وَرِفقَة الأبرارِ من علاماتِ التوفيق والصّلاَح إنْ شاءَ الله تعالَى. أثْلَجَ كلامُه صَدْري حتى خَالَطَ نفسي شيءٌ من الزّهْو. كيف لا أزهو أَو أتِيهُ عُجْباً وقد وجدتُني أجالس ثلاثةً من أفاضلِ الناسِ وأكثرهم علماً وديناً وفضلاً وتواضعاً.

ألقيتُ ببَصَرِي نحو المكتبةِ الكبيرةِ وأنا لا أزالُ أحتَضِنُ كتبي الثلاثةَ مَخَافَةَ أن تتفلّتَ منّي، فرأيتُ لوحةً عريضةً قد نُقِشَ عليها عبارةُ (نزهة الأنظار وروضة الأبرار) بخطٍّ ثلثٍ جَميل.. وقد كُتِبَ تحتها بخطٍّ فارسيٍّ عبارةُ: (يقولون: أحمقُ من يُعيرُ كتابَه، وأحمَقُ منه من يردّه إليه. وأقولُ: مَنْ أعارَك كتاباً فقد اسْتعبَدَك).

ظلّ الشيخُ علاءُ الدين يقوم على خِدْمَتِنا حتى انتهينا من تناول العشاء وتلك عادةٌ عرفت عنه. صَبّ على أيدينا الماءَ، فَهَالَني ما رأيتُ وقلتُ في نفسي: يا الله هذا الشيخُ الذي تَخَطَّى السبعينَ لا يستنكِفُ أن يصبَّ الماءَ على يَدِ أصغر تلاميذِه. إنه التواضُع سِمَةُ الصالحين. انسحبَ الشيخُ علاء الدين بعضَ الوقتِ ثم عاد يحملُ إبريقَ الشاي وبعضَ الحلوى، وشرع يملأُ الأكوابَ لنا. قال الشيخُ العارفُ: أَكَلَ من طعامِكُم الأبرارُ، وَصَلّت عليكم الملائكةُ الأطهارُ. وأكمَلَ القاضي شهابُ الدين: وأفطَرَ عندكم الصائمونَ وأتممتُ الدعاء المأثورَ: وَذَكَرَكُم الله فيمَن عنده.

قال الشيخَ علاء الدين ممازحاً صاحبَه العارفَ النيسابوريَّ: ها نحن أولاء نلتقي بعد أَمَدٍ يا صاحبي. أتراكَ غفلتَ عنّا أم أنساكَ البعْدُ ما كان مِنّا؟ قال الشيخُ

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

العارفُ: ما غفلتُ ولا نسيتُ، وأنتمُ والله لفي السُّويداءِ من القلبِ، ثم أنشدَ:

وَمِـنْ عَـجَـبٍ أنّـي أَحِـنُّ إِلَـيْـهُـمُ وأسـأل عـنـهـم مـن أرى وَهُـمْ مَـعـي
وتَـطْـلُـبـهـم عـيـنـي وَهُـم فـي سَـوادِهـا ويشـتـاقـهـم قـلـبـي وهُـم بـيـن أضـلُـعـي

قلتُ في نفسي: هذا والله من أجملِ ما سمعتُ في معناه.

قال الشيخُ علاء الدين: سَقى الله تلك الأيام الخوالي في شيرازَ وأصفهانَ. قال الشيخُ العارفُ: لعلّك لم تنسَ ما كان يومَها بيننا وبين شيخِنا أبي القاسم الموسَوي الشيرازي؟ أجابَ الشيخُ علاء الدين: وهل مثْله يُنسَى.

قال الشيخ شهاب الدين القاضي: نحب أن نسمعَ هذه الحكاية. قال: كنا نتلقّى العلمَ على يد الشيخ أبي القاسم الموسوي أشهر علماءِ شيراز، وكان يتعصّب لسعدي الشيرازي ولا يُحب أن يُذْكَرَ شاعرٌ إلى جانبه، وكان صاحبُنا العارفُ يحبّ حافظاً الشيرازي ويقدّمه على من عداه. حتى نَهَضَ في يومٍ من الأيام تلميذٌ من تلاميذِ الشيخ سائِلاً: من أشْعَرُ حافِظ أم سعدي؟ انتفضَ شيخُنا أبو القاسم ونَهَرَ التلميذَ وقال: أمثلُ هذا السؤالُ يُسْأَلُ؟ أجِيبوهُ. فنهضَ الشيخُ العارفُ وكان لا يعلَم أن شيخَه مجنونُ سَعْدي، وقال: حافِظ بلا ريب. وما سَعدي إلا جَدْولٌ صغيرٌ يجري بقرب نهرِ حافظِ المتدفّق. جُنَّ يومَها شيخُنا أبو القاسم، وأقسَم ألاّ يجلسَ الشيخُ العارفُ في مَجْلِسه حتى يعيدَ النظرَ فيما قال. وخرجَ الشيخُ العارفُ من حلقته وخرجْتُ في إِثْرِه حيث كان يشقّ عليّ التخلّي عن صُحْبَتِه، وكان ذلك آخر عهدِنا بشيراز.

ضحك الشيخُ العارفُ، وقال: لقد فَوّتْنا على أنفسِنا عِلماً كثيراً لأمر يسير وهذا هو النّزَقُ بعينه والسَّفَهُ.

قال الشيخُ علاء الدين: ما أجملَ تلك الأيام يا صَاحبي، ليتها تعود. صفاءٌ وطهرُ وجِدّ واجتهادٌ، سامحك الله يا هذا قد أيقظتَ ما كان غافياً وحرّكتَ ما كان ساكِناً سَكَتَ قليلاً ثم طفق يُنشِدُ:

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تَحَمَّلَ أَصحابي ولم يجدوا وَجْدي وللناس أشجانٌ ولي شَجَنٌ وَحْدِي
أُحِبُّكم ما دمتُ حيًّا وإن أمت فواكبِدِي من ذا يُحِبُّكُم بعدي

ارتفعَ أذانُ العشاء (الله أكبر) وخرجنا الواحد في إثْرِ الآخر لنسبغَ الوضوءَ ولنتهيأَ للوقوفِ بين يَدَي الله.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

عَنْ أَدَبِ الاخْتِلافِ..

ضَمَمْتُ الكتبَ الثلاثةَ التي أعطانيها صاحبي أبو علي الورَّاق إلى جنبي كما يضم الطائرُ أفراخَه تحت جناحه. لحظ ذلك شيخي شهابُ الدين القاضي. فقال: ما تلك التي كانت بيمينك ثم شَدَدْتَها إلى جَنْبِك؟ قلت: أصحابٌ لا تُمَلُّ رُفقَتُهم، ولا ينقطع أنسُهم. هم السميرُ عند الوحشة، والمذكِّر عند الغفلة هم بهجَةُ الأنظار، ونسائمُ الأسحارِ، وتجاوبُ الأعمار. ضحك الشيخُ أَبو الحسنات حتى بَدَتْ نواجذُه، وقال: والله ما خاب فيك ظني يا عبدَ الله. فأنت أكثر نزوعاً إلى الأدب منك إلى الفقه. وإذا كان لا بد فخذ من كليهما بحظٍّ وافرٍ، واحذر أن تدركَكَ حرْفةُ الأدبِ مخافةَ أن يفوتَك غيرُه. سكتَ ثم أنشد لابن الساعاتي:

عِفْتُ القريضُ فلا أسمو له أبداً ... حتى لقد عفت أن أرويه في الكتبِ

هجرتُ نظمي له لا من مهانته ... لكنها خيفة من حرفة الأدبِ

قال الشيخُ العارفُ: وهذا نظيرُ قولِ أَبي تمام:

ما زلتُ أرمي بآمالي مطالبَها ... لم يخلق العرضُ مني سوء مطلبي

إذا قصدتُ لشأو خلتُ أني قد ... أدركتُه أدركتني حرفةُ الأدبِ

قال الشيخُ شهابُ الدين: ومثله قول ابن قلانس:

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لا أقتضيكَ لتَقْديم وَعَدْتَ به ... من عادةِ الغيثِ أن يأتي بلا طَلَبِ

عيونُ جاهِك عنّي غير نائمةٍ ... وإنما أنا أخشى حِرْفَةَ الأدبِ

قال الشيخُ أَبو الحسنات: هيا عرِّفنا بأصحابك. قلت: هذا كتابُ (الصارم المنْكي في الردّ على الإمام السبكي) للحافظ ابن عبد الهادي.

قال الشيخُ العارف: ما أظنّه إلاّ (الصارم المبْكي) لا (المنكي)، لأنه لا وجودَ للفعل (أنكى) الرباعي في كتب اللغة، والوارد هو الثلاثي (نَكَأ) بالهمز و(نكى) بالتسهيل. يقال: نكى، ينكي العدوّ نكايةً إذا قهرَهُ بالقتل والجرح. ويقال: نكأ العدوَّ وفي العدوِّ: قتل فيهم وجَرَح وأثخنَ واسمُ الفاعلِ منهما: الناكي لا المنكي ويبدو أن ذلك من تصحيفِ النسّاخ. وقد ورد في كشف الظنون: المبكي. قال الشيخُ شهاب الدين: هذا والله صحيحٌ. ولكن (المبكي) صفةٌ بعيدةٌ للصارم الذي من شأنه أن يقطعَ ويجرحَ. قال الشيخُ أَبو الحسنات: والسيف إذا جَرَحَ وقطع أبكى. قال الشيخُ شهاب الدين: وهو كتابٌ وضعه صاحبُه انتصاراً لشيخِه ابن تيميةَ من السبكي الذي صنف كتابَه (شفاء السّقام في زيارةِ خير الأنام) في الردِّ على شيخ الإسلام. وَمَنْ صاحِبُك الثاني يا عبد الله؟ قلتُ: (السيف الصقيل في الردّ على ابن زَفيل) قال الشيخُ أَبو الحسنات: هذا من تأليفِ تقيِّ الدين السبكي الأب. وهو صاحبُ التصانيف المشهورة. وقد ترجم له ابنُه عبدُ الوهاب ترجمةً مستفيضةً في الجزء الأخير من كتابه (طبقات الشافعية الكبرى) ولم يورد كتابَه هذا في جُمْلةِ تصانيفه التي عدَّدها. وهو رسالة صغيرة ألّفها في الردِّ على نونية ابن قيم الجوزية، وهي منظومةٌ طويلة في بيان عقيدة السَّلفِ تُعْرفُ باسم (الكافية الشافية في الانتصارِ للفرقة الناجية) وهي مطبوعة وأولها:

حُكْمُ المحبَّةِ ثابتُ الأركانِ ... ما للصدودِ بفسخِ ذاك يدانِ

ولم يُعْرَف ابنُ القيم بابن زفيل إلاَّ عند السُّبكي، وذلك إمعاناً منه في النكاية به والحطِّ من قَدْره، وهو ما عِيبَ به السبكيّ رحمه الله لفرطِ تحاملِه على

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ابن تيمية وهو من شيوخ ابن القيم. قال الشيخُ أَبو الحسنات: وَمَنْ صاحبُك الثالث؟ قلت: (الصواعق المحْرِقة على أهل البدع والضلال والزندقة).

فال الشيخُ شهاب الدين: هو لابن حجر الهيثمي المكيّ صاحب (الزواجر عن اقتراف الكبائر) و(الإعلام بقواطع الإسلام) و(تحفة المحتاج لشرح المنهاج) و(الخيرات الحسان في مناقب أبي حنيفة النعمان).

قال الشيخُ أَبو الحسنات: ألا تخرجُ أسماءُ هذه الكتب الثلاثة عن أدبِ الخلاف؟ ردَّ الشيخُ العارف: بلى. وهو ما يجعل الانتفاعَ بها قليلاً. قلت: وهل هناك أدبٌ للخلاف؟ قال الشيخُ أَبو الحسنات: نعم. وذلك نظيرُ أدبِ الإملاءِ والاستملاءِ، وأدبِ البحثِ والمناظرة، قلت: سمعتُ من قبل بهذه الآداب، ولم أسمع عن أدبِ الخلاف إلاَّ اليومَ. قال الشيخُ شهاب الدين: نحبُّ أن نسمعَ من الشيخ العارف عن أدبِ الاختلافِ لأن الذي لا يعرفُ أصولَ الاختلاف، لا يُنتَظر منه أدبُ الخلاف. قال الشيخُ شهاب الدين: أوافق. قال الشيخُ العارف: لما كان الاختلافُ واقعاً لا محالة لاختلاف أنظارِ البشرِ، وَجَب على أهلِ الخلاف أن يتأدّبوا بأدبِ الخلافِ وهو أدبٌ رَفيعٌ لا يَعْرِفُ قَدْرَه إلاَّ مَنْ عَلا قَدْرُه، ولا يحيدُ عنه إلاَّ غافلٌ عن الحقِّ يحسَبُ أنه قد ظَفر بسُؤْلِه وهو لم يلج البابَ بَعْدُ، ولم يَنلْ من مبتغاه إلاَّ بقَدْرِ ما ينال المِخْيَطُ من البَحْر، أَو مَ غَلَبَ عليه هواهُ واستَبَدّ به الغرورُ حتى ظن أن الحقَّ والصوابَ لا يصدران عن غيره، وأن كلَّ ما يخرج من فيه لا يتطرّق إليه شكٌّ ولا يعتَورُه باطلٌ فقذف غيره بكلّ نقيصة، نافياً عنه كلّ منقبة، ملْصِقاً به كلَّ مثلبةٍ. فللَّه الأمرُ من قَبْل ومن بعد. وفي هذا الزمان كثُرَت الخلافاتُ، وفيها الوجيهُ والأوجهُ والسخيفُ والأسخفُ، وجميعها تضيع في غمرةِ الاتهامات والتطاولِ والتنابز بالألقابِ حتى صار التعرّف على موطِن الحقِّ عند كلِّ طَرفٍ أمراً دونه خَرْط القَتَاد. وها أنذا أضعُ بين يديك يا عبدَ الله وأنت في أول طريق الطَّلَب جملةً من القواعدِ الذهبيةِ التي لو رُوعيت من قِبَلِ أهل الخلاف لَخَفّفت حدّتَه ولاطمأنَّ كل ذي رأيه إلىٰ خصمِه، ولانقادَ كلُّ طالبِ معرفةٍ إلى الحقِّ بصَرْفِ النظرِ عن قائله ما دام الدليل معه.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

- أمّا القاعدةُ الأولى في أدَب الخلاف، فهي: (التقوى ومخافةُ الله) وهذه قاعدة تعصِمُ النفسَ من الهوى، وتمنع الكبرَ أن يخالطَها. يقول الخطيب البغدادي في (الفقيه والمتفقه): «ينبغي للمجادل أن يقدّمَ على جداله تقوى الله لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابُن: الآية 16]. ويندرج تحت التقوى التواضع، وهو عند الفضيلِ بن عياض: (الخضوعُ للحق والانقيادُ له وقبوله ممن قاله).

- والقاعدةُ الثانيةُ، هي: (حُسْنُ الظنِّ بالآخرين)، وذلك يستلزم: توقيرَ المتقدِّم واحترامَ المتأخّر، والاعتذارَ عنهما إذا جانبهما الصّوابُ، والردّ عليهما بعباراتٍ لا تَقْدَحُ في عدالتهم ولا يُشْتَمّ منها رائحةُ التحاملِ وقلّة الإنصاف من قبيل عناوين كتبك: الصارم المبكي، والسيف الصقيل، والصواعق المحرقة أَو من قبيل (السّهم المصيب في كَبِدِ الخطيب) و(تنبيه الغبي بتبرئة ابن عربي) وهي كما ترى عناوين كتب تنفِّر من قراءتها. وإن كان فيها عِلْمٌ كثيرٌ وعلى المخالِفِ أن يربأَ بنفسه عن مثل هذا التهافت.

- والقاعدةُ الثالثةُ: (معرفةُ أدلةِ الخصمِ قَبْلَ الحكمِ عليه) لأن الإعراضَ عن ذلك يعني التجنّي والانسياقَ وراء الهوى. وهذا ظلم لا يرضاه منْصِفٌ، وأقلّ ما يُنْعَتُ به من يحكم على مخالِفِه دون النظر في أدلتِه الجهلُ، وعدمُ الإدراك أَو العجزُ عن الموازنة بين الأدلة.

- والقاعِدةُ الرابعةُ: (لا أدري نصْفُ العلم) وهذه القاعدةُ مشهورةٌ بين أئمةِ العلم. قال ابن عبَّاس: «إذا أخطأ العالِمُ لا أدري أُصيبَتْ مقاتِلُه» وقال الشعبيُّ: لا أدري نصفُ العِلْم. وقال أَبو الدرداء: «قولُ الرجلِ فيما لا يَعْلَم لا أعلمُ نصفُ العلم» وقد سُئِلَ أَبو يوسف القاضي عن مسائلَ فقال: لا أدري. فقيل له: إذا كنتَ لا تدري فعلام تنال عطاءَ السلطان؟ فأجاب: «حتى أقول فيما لا أدري لا أدري» وقد روى أَبو عمر عثمان بن كثير بن دينار عن أَبي الذيال قال: تَعَلّم لا أدري ولا تَعلّم أدري فإنّك إن قلتَ لا أدري علّموك حتى تدري، وإن قلتَ أدري سألوك حتى لا تدري. وقد جاء رجلٌ إلى

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الإمام مالك فقال له: يا أبا عبد الله جئتك من مسيرةِ ستة أشهر حمّلني أهل بلدي مسألةً أسألك عنها، قال: سَلْ. فسأله الرجلُ عن المسألة، فقال الإمامُ: لا أحْسِنُها فقال الرجلُ: أيّ شيء أقول لأهل بلدي إذا رجعتُ إليهم. قال: تقول لهم: قال مالك لا أحسنُ.

قال الشيخُ أَبو الحسنات: أليس هذا ـ يرحمك الله ـ نظيرَ قولِ الخليلِ بن أحمد: «الرجالُ أربعةٌ: رجلٌ يدري ويدري أنه يدري فذلك عالم فاسألوه. ورجلٌ يدري ولا يدري أنه يدري فذلك ناس فذكّروه، ورجلٌ لا يدري ويدري أنَّه لا يدري فذلك مسترشد فعلّموه، ورجلٌ لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فذلك جاهل فارفضوه.

أجاب الشيخُ العارفُ: بلى. والله.

قلت متجرِّئاً: أحفَظُ في هذا المعنى أبياتاً لأَبي القاسم الآمدي. لو أَذِنَ شيخُنا العارفُ أسمعتكم إياها. قال الشيخُ العارفُ: هاتِ أسمعنا.

قلت منشداً:

إذا كنتَ لا تدري ولم تك بالذي ... يسائل من يدري فكيف إذاً تدري

جَهِلتَ ولم تعلم بأنّك جاهلٌ ... فَمَنْ لي بأن تدري بأنَّك لا تدري

إذا جئتَ في كل الأمور بغمَّةٍ ... فكن هكذا أرضاً يَدُسْكَ الذي يدري

ومن أعجبِ الأشياء أنك لا تدري ... وأنَّك لا تدري بأنَّك لا تدري

قال الشيخُ العارفُ: أحسنتَ يا عبد الله. وإن أردتَ المزيدَ من هذه النفائس فعليك بكتاب (جامع بيان العلم وفضلِه) للحافظ ابن عبد البر فقد عَقَدَ فيه باباً (فيما يلزم العالم إذا سُئِل عما لا يدريه من وجوه العلم) قال الشيخُ أَبو الحسنات: وتجد شيئاً من ذلك أيضاً في كتابِ (أدب الدنيا والدين) لأَبي الحسن الماوردي صاحب (الأحكام السلطانية) فقد عَقَدَ فصلاً في باب (أدب العلم) بعنوان: (ما يجب أن يكونَ عليه العلماءُ من الأخلاق).

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

قال الشيخُ العارف: والقاعدةُ الخامسةُ: (قَوْلُ الشافعيّ: كلامي صوابٌ يحتمل الخطأَ وكلامُكَ خطأٌ يحتمل الصوابَ) وهذا يدلّ على أدبٍ في الخلافِ رفيع. لأن فيه تطييباً لخاطر الخصْم، ولمظنّة أن يكون الحقّ معه. ولذلك قال الشافعيُّ في هذا المعنى: (والله ما ناظرتُ أحداً فأحببتُ أن يخطئ) ومثله قوله: (ما كلمتُ أحداً قطّ إلاَّ ولم أبالِ بيَّن الله الحقَّ على لساني أو لسانه).

هنا ارتفع أذانُ العشاء، فتوقف الشيخُ العارف عن الحديثِ..

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

العَارِفُ النّيْسَابُورِيُّ
يُكْمِل حَديثَهُ عَن أَدَبِ الخِلافِ..

بُعَيْدَ صلاة العشاء استأنف الشيخ العارف حديثه عن أدب الخلاف، فقال:

● القاعدة السادسة: (الاعتدال وعدم التزيد ونبذ التعصّب). والاعتدال يعني التوسط وعدم الجور، ويعني الاستقامة، والمعتدل: المستقيم، والاعتدال يقتضي عدم الوقوع في الغلو، والغلو آفة التعصب، والتعصب حجاب. ومن هنا كان نبذ التعصب من علامات الإمامة، فلا يكون المرء إماماً في فنه حتى يطرح التعصب، وهذا طريقه التقليد، والتقليد قبول قول الغير دون معرفة دليله، وهو دأب العوام، ولذلك لا تعجب إذا كان آفة الاختلاف التقليد. وعلى المخالف قبل نصب الدليل على دعواه أن يجعل نصب عينيه الوقوف مع الحق أنّى وجده ومع من وجده، ذلك لأن الأصل في الخلاف طلب الحق والابتعاد عن هوى النفس. وأكثر الخلافات إنما تأتي من غلبة الهوى على العقل.

وقد وردت آثار في التعريض بالهوى، منها آيات كريمات في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: الآية 23] وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمُ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة: الآية 70]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: الآية 50] ومنها أحاديث صحيحة رويت عن المصطفى، كقوله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به**» وقوله ﷺ في الحديث الذي

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

أخرجه أَبو داود عن أَبي الدرداء: «**حبك الشيء يعمي ويصم**»، وقد روي مرفوعاً وموقوفاً. وقال صاحب المقاصد الحسنة: (والوقف أشبه) أي أنه أشبه بالموقوف. وتفصيل الكلام عليه تجده في (كشف الخفاء ومزيل الإلباس) للعجلوني ولذا أنشد بعضهم:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

وأنشد آخر:

وكذبت طرفي فيك والطرف صادق وأسمعت أذني فيك ما ليس تسمع

● والقاعدة السابعة: (اتهام النفس بالتقصير) ذلك لأن مسائل الخلاف يحتاج فيها إلى بذل الوسع في الوصول إلى الحقّ. ولذا كان المخالف المتأدّب بأدب الخلاف لا ينسب الصواب إلى نفسه. وقد أثر عن صحابة رسول الله ﷺ مقالات تحقِّق هذا المذهب، فهذا أَبو بكر الصدِّيق يقول: «هذا رأيي فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني وأستغفر الله» وكتب كاتب لعمر بن الخطاب: «هذا ما رأى الله ورأى عمر. فقال عمر: بئس ما قلت. قل: هذا ما رأى عمر فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمن عمر» وقد صح عن ابن مسعود قوله في (المفوِّضة): «أقول فيها برأيي، فإن يكن صواباً فمن الله وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريءٌ منه».

ومن ألفاظ السلف التي تنبئ عن التواضع واتهام النفس بالتقصير قولهم عند نهاية كل مسألة: الله أعلم، وقولهم: هذا جهد المقل، وقولهم: ولعل الصواب غير ذلك، وقولهم: ذلك ما وسعني الإحاطة به.

● والقاعدة الثامنة: (الرجوع إلى الحق عند ظهوره) وهذا لا ريب من أعلى درجات التأدّب بأدب الخلاف، وقد وردت روايات كثيرة عن الأئمة الأعلام تحض على ترك أقوالهم إذا جاءت مخالفة لكتاب الله وسُنَّة نبيّه. ومن هذه الروايات تلك العبارة المشهورة التي نقلت عن الإمام الشافعي، وهي قوله: «إذا صح الحديث فهو مذهبي» وقد بلغ اهتمام الفقهاء بهذه العبارة أن خصها الإمام

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تقي الدين السبكي برسالة في بيان معناها تجدها منشورة ضمن مجموعة الرسائل المنيرية. كما رويت عن الإمام الشافعي روايات أخرى في المعنى نفسه، ومنها قوله: «إذا وجدتم عن رسول الله ﷺ سُنَّة خلاف قولي، فخذوا السُّنَّة ودعوا قولي فإني أقول بها» ومنها قوله أيضاً: «كل مسألة تكلمت فيها بخلاف السنَّة فأنا راجع عنها في حياتي وبعد مماتي» وقد حكى البويطي أَبو يعقوب يوسف بن يحيى وهو من أكبر أصحاب الشافعي قال: «سمعت الشافعي يقول: لقد أَلَّفت هذه الكتب ولم آل فيها جهداً، ولا بد أن يوجد فيها الخطأ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: الآية 82] فما وجدتم في كتبي هذه مما يخالف الكتاب والسنَّة فقد رجعت عنه» وقد روي نحو ذلك عن إمام دار الهجرة، فقال: «إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي فكل ما وافق الكتاب والسُّنّة فخذوا به، وما لم يوافق الكتاب والسُّنَّة فاتركوه» وقال كذلك: « كل واحد يؤخذ من قوله ويرد عليه إلاَّ صاحب هذا القبر» مشيراً إلى قبر المصطفى ﷺ. وأعظم الأدلة على رجوع الأئمة الأعلام عن بعض أقوالهم متى ثبت لهم صحة ما يخالفها أنّه كان لبعضهم مذهب قديم ومذهب جديد كما الشأن مع الإمام الشافعي، فقديمه كان ببغداد وجديده كان بمصر. ومن هذا الضرب أن لبعض الأئمة أكثر من قول في المسألة الواحدة كما يؤثر عن الإمام مالك وأَحمد، وهذا معنى قول المتأخرين: «ذلك أحد قولي مالك، أَو أحد قولي أَحمد» ومن التطبيقات العملية لهذه القاعدة فضلاً عما ذكرنا، عدول أصحاب الأئمة وتلاميذهم عن آراء أئمتهم متى تبين لهم أن الدليل خلاف ما ذهبوا إليه، ونجد ذلك جلياً في مخالفة أَبي يوسف لشيخه أَبي حنيفة في بعض المسائل، ومخالفة بعض أئمة المالكية للإمام مالك في بعض المسائل.

وإن أردت الوقوف على المزيد من هذه فدونك مدونات الفقه الكبيرة في كل مذهب، وستجد بغيتك وإذا أحببت أن أذكر لك بعض هذه المدونات فلا بأس. قلت: أحب والله أن أقف على ذلك.

قال الشيخ العارف: عليك بكتاب (المغني) لابن قدامة الحنبلي مع شرحه

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الكبير، وكتاب (المبسوط) للسرخسي الحنفي، وكتاب (المجموع) للنووي الشافعي، وكتاب (بداية المجتهد) وكتاب (البيان والتحصيل) وكلاهما لابن رشد الحفيد.

والقاعدة التاسعة: (عدم الافتراء على الخصم بتأويل أقواله وتخريجها خلاف مذهبه) وذلك يستدعي أولاً صحة النقل عنه. وقد ذمّ القرآن الافتراء في مواضع عديدة، فقال تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [طه: الآية 61] وقال: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾ [النحل: الآية 105] وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: الآية 152] ويكون الافتراء على الخصم إذا صرف قوله عن غير مراده، وحمّله ما لا يحتمل. ويشتد الافتراء ويعظم خطره إذا ترتب على ذلك الصرف باطلٌ وبهتان يعود بالأذى على الخصم. ومن هذا الضرب إخراج أقوال الخصم عن سياقها فلا يفهم لها معنى إلا المعنى الذي يبغي المخالف الوصول إليه، كأن يكون الخصم بمعرض سرد أقوال غيره فتنسب إليه وفيها أقوال فاسدة، فيشيعها المخالف على أنّها من أقواله، ثم لا تلبث هذه النسبة أن تصبح مع بطلانها حقيقة يعجز من يأتي بعد ذلك عن إماطة اللثام عنها.

● والقاعدة العاشرة: (النقل عن أصول الخصم والابتعاد عن الوسائط) وهذه القاعدة من جنس التي سبقتها، إلاّ أنها تختلف عنها في وجه وهو أن المخالف هنا يعتمد في حكمه على غيره، وهو هناك يعتمد على نفسه، وإن كان مجانباً للصواب في الحالين.

اعلم يا عبد الله أن بعض أهل العلم، وفيهم أئمة أجلاّء. قد نكبوا بمن روج عنهم كلاماً مخالفاً للحقيقة فرموا بغير ما فيهم. وأذكر من هذا الوادي كتاباً ألّفه ابن عساكر في الذبّ عن الإمام الأشعري بعنوان (تبيين كذب المفتري فيما نُسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري)، وما زلت أذكر من هذا البهتان كلاماً ومؤلفات في هذا الشأن ينوء بها هذا المقام.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

هذه هي القواعد العشر في أدب الخلاف، ولعلك بهذا القدر المختصر ألممت بطرف منه، فتكون بذلك قد علمت أن للخلاف المشروع أدباً شأنه شأن أدب الطلب وأدب القارئ والمقرئ، وأدب الإملاء والاستملاء، وأدب البحث والمناظرة. وقد لا تجد تصنيفاً مستقلاً في (أدب الخلاف)، ولكنك تجد قواعده مبثوثة بين تضاعيف كتب السلف. فإذا تبين لك هذا فاعلم بأن العمل بهذه القواعد يضيّق هوة الخلاف.

قال الشيخ شهاب الدين القاضي: وهل مراعاة الخلاف من أدب الخلاف؟ أجاب الشيخ العارف: إن لم تكن قاعدة مراعاة الخلاف من أدب الخلاف فهي من أصوله، وعليها جرى فقهاء المالكية. وبصرف النظر عن التباين في فهم هذه القاعدة، وما يفهم من ظاهرها من أنّها اعتبار للخلاف وليس نفياً له. وقد بيَّن الشاطبي في الموافقات أن هذه القاعدة مما أشكل فهمها على طائفة ومنهم ابن عبد البر. وهي تحمل بين طياتها أدباً رفيعاً وما أرى النزول عما اشتهر في المذهب إلى خلافه في مذهب آخر إلاَّ من هذا القبيل.

بقي أن أذكر بأن الخلاف الحقيقي هو ما نشأ عن اتباع الهوى، وأن ثمة خلافات يجوز أن نسميها خلافات غير حقيقية لأنها ناجمة عن طلب الأدلة أو التفاوت في فهمها، أي أن الواقع فيها ليس طالباً للمخالفة ذاتها، وهذا ما نبَّه إليه صاحب الموافقات، وأذكر أن له كلاماً لطيفاً في هذا المعنى لا يحضرني. قال الشيخ أَبو الحسنات: لا عليك، سآتيك بكتاب الموافقات لتقرأ لنا ذلك الكلام. نهض الشيخ إلى مكتبته وأحضر الجزء الأخير من كتاب الشاطبي ووضعه بين يدي الشيخ العارف الذي شرع يقلب صفحاته بحثاً عن مراده حتى وقع عليه، فقرأ لنا هذا القدر: «وبهذا يظهر أن الخلاف ـ الذي هو في الحقيقة خلاف ـ ناشئ عن الهوى المضل، لا عن تحري قصد الشارع باتباع الأدلة على الجملة والتفصيل وهو الصادر عن أهل الأهواء. وإذا دخل الهوى أدَّى إلى اتباع المتشابه حرصاً على الغلبة والظهور بإقامة العذر في الخلاف، وأدَّى إلى الفرقة والتقاطع والعداوة والبغضاء لاختلاف الأهواء وعدم اتفاقها. وإنما جاء الشرعُ بحسم مادة

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

الهوى بإطلاق. وإذا صار الهوى بعض مقدمات الدليل لم ينتج إلاَّ ما فيه اتباع الهوى، وذلك مخالفة الشرع. ومخالفة الشرع ليست من الشرع في شيء، فاتّباع الهوى من حيث يظن أنه اتباع للشرع ضلال في الشرع، ولذلك سميت البدع ضلالات، وجاء أن كل بدعة ضلالة لأن صاحبها مخطئ من حيث توهّم أنه مصيب، ودخول الأهواء في الأعمال خفيّ، وأقوال أهل الأهواء غير معتدٍّ بها في الخلاف المقرَّر في الشرع..».

سكت الشيخ قليلاً، ثم التفت إليَّ وقال: أما آن أن نودِّع أصحابنا ونذهب فقد مضى ثلث الليل؟ قال الشيخ شخاب الدين القاضي: إذا أذِن الشيخ أبو الحسنات بالانصراف فإني أدعوكم غداً إلى بيتي لنتناول العشاء معاً قال الشيخ أَبو الحسنات: أذنت بالانصراف، وقبلنا الدعوى شريطة أن تحدّثنا أنت غداً عن أصول الاختلاف. التفت الشيخ شهاب الدين نحوي وقال: يا عبد الله أين كفارة المجلس؟ قلت: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلاَّ أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الحديثُ عن أُصُولِ الاخْتِلافِ

لما كان اليوم التالي وبعيد صلاة المغرب اجتمعنا في بيت شيخنا القاضي شهاب الدين. كان أمدّ الله في عمره ومتعه بالعافية نسيج وحده، متفرداً في كل شيء، رفيقاً بأَهله وأصحابه، كثير الحدب على تلاميذه وكأنهم انحدروا من صلبه. والرفق حلية الرجل النبيل. وهذا هو معنى قول المصطفى ﷺ: «**إن الرفق لا يكون في شيء إلاَّ زانه ولا ينزع من شيء إلاّ شانه**» وقوله ﷺ: «**من حرم الرفق حرم الخير**».

لقد زاده تواضعه مهابة في أعين الخلق، وهذا تصديق لقول المصطفى الذي أخرجه مسلم: «**ما تواضع أحدٌ لله إلاَّ رفعه**» وحسب الشيخ شهاب الدين شرفاً أنه إذا أُطلقت لفظة (القاضي) لا تنصرف إلاَّ إليه مع أنه لم يتولَّ القضاءَ إلاَّ أُسبوعاً واحداً مخافةَ الوقوع في ظلم العباد، وخشية أن يحيق به غضب الله. وكان لفرط خوفه وورعه يبكي كلما وقف على آية تحذِّر من الظلم وعواقبه. ولا زلت أذكر يوماً جلس فيه لتفسير سورة الأعراف حتى إذا بلغ قوله تعالى: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: الآية 18] بكى بكاءً شديداً سمعه كل من حضر مجلسه، ولم يقو بعده على أن يتم درسه فانصرف. ولم ينس الناس ذلك اليوم الذي دخل فيه على والي سمرقند وهو ممن إذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم وقد أحاط نفسه ببطانة من أشرار الخلق يُحسِّنون له القبيح، ويقبِّحون له

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الحسن، فلم يملك الشيخ يومها إلاَّ أن يخلع نفسه من القضاء، فبادر الوالي ونصَّب أحد المتملقين ممن ينتسبون إلى العلم نسبة منفعة فرحاً بالخلاص من الشيخ شهاب الدين الذي غادر يومها مجلسه وهو يقول: شاهت الوجوه.. شاهت الوجوه، حتى إذا خرج من بوابة القصر التف به جمهور من الناس، فقال قولته الشهيرة: الحمد لله الذي جنبنا مساكن الظالمين» وقرأ قوله تعالى من سورة إبراهيم: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ * وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ * فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ * يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ * وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ * لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ * هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [إبراهيم: الآيات 45 ـ 52].. ثم أنشد بعدها وعيناه شاخصتان إلى السماء:

إذا خان الأمير وكاتباه ... وقاضي الأرض داهن في القضاء

فويل ثم ويل ثم ويل ... لقاضي الأرض من قاضي السماء

ومذ ذاك اليوم وحتى يوم الناس هذا ينادونه بـ(القاضي) نكاية في الوالي وإزراءً بقاضيه. حينما دخلنا إلى بيت القاضي، كان الشيخ علاء الدين قد سبقنا إليه فجلس في صدر المجلس الذي كان متواضعاً كتواضع صاحبه. رحّب بنا صاحب المجلس ترحيباً عظيماً، وكذلك فعل ضيفه، وكان كلاهما طلق المحيا يكاد يطفر من وجهيهما البشر كلما قابل أخاً أو صاحباً، وتلك عادة عرفناها فيهما لا عن تصنع.

وكيف لا يكون شأنهما هكذا، والأول ما برح يدرّس لنا هدى المصطفى وسيرته من الشمائل المحمدية للترمذي صاحب السنن، وزاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم والثاني ما انفك يدرس لنا فقه الحديث وعلومه من خلال صحيح مسلم بن الحجاج بشرح النووي. وقد جاء بهذا الجمع بين الفقه وعلوم

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الحديث من جرح وتعديل وعلل ورجال بطريقة غير معهودة في الدرس لأنه كان يكره أن ينعت الرجل بأنه فقيه غير محدث أو بأنَّه محدث غير فقيه. ومن كان هكذا شأنهما لا يغيب عنهما قول المصطفى ﷺ الذي أخرجه الترمذي: «**تبسمك في وجه أخيك لك صدقة**» وقوله ﷺ الذي أخرجه مسلم: «**لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق**».

لم نلبث طويلاً حتى قرع الباب، ودخل علينا رهط من طلبة العلم، وكان من عادة الشيخ شهاب الدين أن يدعوهم إلى بيته وفيهم المعسر والغريب.

أذّن للمغرب وقدم الشيخ شهاب الدين إماماً مع تمنعه، وصلّى بنا صلاةً ملؤها الخشوع، حتى إذا فرغنا من الفريضة والنفل شرع الشيخ شهاب الدين يهيئ لنا الطعام بنفسه وظل قائماً على رؤوسنا يقوم على خدمتنا حتى انتهينا، وكنت كلما هممت بأن أعينه على ذلك وضع يده على عاتقي وأجلسني. ولم ترفع المائدة حتى دعونا لمضيفنا بما علَّمنا المصطفى أن ندعو به، فبدأ الشيخ العارف بالدعاء، فقال: «أكل من طعامكم الأبرار، وصلّت عليكم الملائكة الأخيار، وأفطر عندكم الصائمون، الحمد لله كثيراً طيباً مباركاً فيه، غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى عنه. ثم رفع الشيخ علاء الدين يديه ودعا قائلاً: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين. اللهم بارك لهم فيما رزقتهم واغفر لهم وارحمهم».

قدم الشيخ شهاب الدين شراب الورد فشربنا ودعونا له، ثم جلس فتحلقنا من حوله، وقال له الشيخ علاء الدين: هيا أنجز وعدك. وكان يريد بقوله ذلك أن يحدِّثنا عن أصول الاختلاف. اعتدل الشيخ شهاب الدين في جلسته، وقال: «اعلموا يرحمكم الله أن الكلام عن (أصول الاختلاف) يقتضي منا أن نقدم له ببعض المسائل».

المسألة الأولى: (تصحيح بعض الأخطاء الشائعة عند العامة).

ـ الخطأ الأول: زعم بعضهم أن كل اختلاف مذموم. حيث يظن البعض

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أن الاختلاف في الرأي مذموم مطلقاً، وهذا غير صحيح، لأن الاختلاف المذموم مقيد بكونه من قبيل اختلاف التضاد، وهو ما سنعرض له بعد حين. والذي لا يختلف فيه العقلاء، أن الله ركَّب في العباد عقولاً. وجعلها متفاوتة في النظر والاستنباط. فقد ينظر أحدهم إلى الشيء فيهتدي إلى حقيقته من نظرة واحدة ودون أدنى جهد. وقد يهتدي آخر إليها بعد أن يجيل النظر فيه أكثر من مرة، وقد لا يهتدي ثالث إليها ولو ظل عمره كله عاكفاً عليه يتأمل فيه، وربما اهتدى إليها رابع إذا أُعين على ذلك بأن كُشِف له عن بعض القوانين التي تفضي إلى الحلّ. وهكذا حال الناس لم تتغيَّر مذ خلق آدم وحتى يومنا هذا، فكل ميسر لما خُلق له، وإذا تبين هذا الأمر علمنا أن الاختلاف في الفهم والنظر لا ريب قائم لهذه العلة، وهي علة ترتبط بالخلق ولا شأن للمرء بها، وليست من كسبه. وفضلاً عن ذلك فثمة علة أخرى تفضي إلى الاختلاف، وهي علة طريقها الكسب لا الجبلة، وهي اجتهاد الناظر في المسألة أو الشيء موضع النظر. فالمجتهد يبلغ ما لا يبلغه غيره بقدر ما يبذل من وسع في طلب الدليل وهو العلامة على بلوغ الحقّ. فالمثابر غير المقصر، ومن هنا لا بد أن يقع الاختلاف لهاتين العلتين. فلا يكون الاختلاف هنا مذموماً لأن ذلك ما وسع الطرفان بلوغه. ولكن هذا الاختلاف وإن لم يكن مذموماً من هذه الجهة لأنه لم يكن مطلوباً لذاته. فإنه لا يعني أن الطرفين كليهما على صواب، لأن الحق لا يتجزأ. والحقّ لا يعدو أحدهما وهو المصيب.

ويؤجَر كلاهما على قدر ما بذلا من وسع في طلب الحق، وهذا معنى حديث المصطفى ﷺ: «**إذا اجتهد الحاكم فأصاب له أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد**» وهذا الأجر الواحد هو نظير ما بذله المخطئ من جهد في طلب الحقّ.

ـ الخطأ الثاني: الظن أن الاختلاف الحادث بين الفقهاء هو اختلاف طلباً للاختلاف وليس اختلافاً يقوم على أصول وأسباب، وهذا الظن كثير الشيوع بين العامة وبعض منتسبي العلم ممن قلّ حظهم من العلوم الشرعية. وقد نبتت في

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

زمننا نابتة جعلت من الخلاف متكأ للاستخفاف بالفقه والنيل من الفقهاء، ولو علم هؤلاء وأولئك مبلغ الجهد الذي أنفقه المتقدمون في العناية بالفقه بوضع أصوله وضبطها وتخريج فروعه عليها لأدركوا عظمته. ولكن رحم الله القائل:

لا يعرف الشَّوْقَ إلاَّ من يكابده ولا الصبابة إلاَّ من يعانيها

ولو كلّف هؤلاء المتهوّكون أنفسهم بعض الجهد في النظر في كتب الاختلاف لما قالوا ما قالوا. قلت مقاطعاً الشيخ: لو أذِن الشيخ لي بسؤال مع علمي بأن مقاطعتي إياه مما يخرج عن أدب السماع والطلب، ولكن عذري في ذلك خوف فواته. قال الشيخ شهاب الدين: لا عليك يا عبد الله. فسل عما بدا لك. وكذلك افعلوا ـ مشيراً بأصبعه إلى الطلبة الآخرين ـ فهذا الحديث مخصص لكم وعسى أن يعينني عليه صاحباي الشيخ العارف والشيخ علاء الدين بتصويب خطأ، أو استدراك نقص، أو درء وهم، أو بيان إشكال، أو توضيح مستغلق. قلت: قلتم ـ أعزكم الله ـ لو نظر هؤلاء في كتب الاختلاف لما قالوا ما قالوا. هلا ذكرتم لنا كتب الاختلاف هذه. أجاب الشيخ شهاب الدين: من أشهر الكتب التي عنيت بتتبع الاختلاف كتاب الأم للشافعي. وفي الجزء السابع منه كتاب (اختلاف علي وعبد الله بن مسعود) وكتاب (اختلاف مالك والشافعي) وكتاب (ما اختلف فيه أبو حنيفة وابن أبي ليلى) وهو من وضع أبي يوسف القاضي وقد طُبع مستقلاً عن الأم. وكتاب (اختلاف الشافعي مع محمَّد بن الحسن) ويسمى في كتاب الأم بـ(كتاب الديات)، وكتاب (اختلاف أبي حنيفة والأوزاعي) ويعرف بـ(سير الأوزاعي) وهذه جميعها في كتاب الأم. ومن الكتب المطبوعة (اختلاف الفقهاء) للطبري وهو ناقص غير كامل. وثمة رسالة لطيفة لابن عبد البر هي (الإنصاف فيما بين العلماء من الاختلاف) عرض فيها لمسألة واحدة من مسائل الخلاف بين أئمة المذاهب تتعلّق بالإسرار بالبسملة أو الجهر بها عند قراءة الفاتحة في الصلاة الجهرية، ومن التصانيف التي تعرض لأدلة المسائل الخلافية كتاب (شرح معاني الآثار) لأبي جعفر الطحاوي وهو مطبوع ويقع في أربعة أجزاء وله أيضاً كتاب (اختلاف الفقهاء) وهو مخطوط. وكتاب

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

(تأسيس النظر) في الخلافات الفقهية للإمام أبي زيد الدبوسي الحنفي. وقد طُبع مرتين واحدة في دمشق، وأخرى في القاهرة، ويعدّ أبو زيد الدبوسي مؤسِّس علم الخلاف كما وصفه بذلك ابن خلكان في كتابه (وفيات الأعيان) حيث قال فيه: «وهو أول من وضع علم الخلاف وأبرزه إلى الوجود». والدبوسي نسبة إلى دبّوسة وهي يا عبد الله بلدة صغيرة تقع بين بلادنا سمرقند وبخارى.

ومن المؤلّفات التي عنيت بخلافات المذاهب (المغني) لابن قدامة، و(المحلى) لابن حزم و(نيل الأوطار) للشوكاني. وهذه من المطولات التي لا يستغني عنها الناظر في أدلة المذاهب.

والذي يعنيك يا عبد الله أنت وصحبك هو الوقوف على الكتب التي صنفت في بيان أسباب الاختلاف. ولعل أجود ما كُتب في هذا الموضوع رسالة (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) لشيخ الإسلام ابن تيمية. وهي مطبوعة. وله أيضاً رسالة أخرى في الموضوع نفسه بعنوان (خلاف الأمة في العبادات ومذهب أهل السنة والجماعة) ورسالة ثالثة بعنوان (قاعدة في توحد الملة وتعدد الشرائع) وكلتاهما منشورتان ضمن مجموعة الرسائل المنيرية. وقد توهم الناشر وهو الشيخ الفاضل منير الدمشقي صاحب المطبعة المنيرية المشهورة أنهما رسالتان مختلفتان فنشرهما مستقلتين. والرسالة الأولى هي في الحقيقة بعض من الرسالة الثانية.

وللبطليوسي رسالة بعنوان (أسباب الاختلاف) وهي أيضاً مطبوعة، عالج فيها أسباب الاختلاف ولكن من جهة اللغة. ولشاه وليّ الله أَحمد بن عبد الرحيم الدهلوي كلام حسن في بيان أسباب الاختلاف بين الصحابة في الفروع وأسباب اختلاف مذاهب الفقهاء، في كتابه (حجة الله البالغة).

ارتفع الآذان، وأدركتنا صلاة العشاء، فتوقف الشيخ عن الحديث.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

قَاضِي سَمَرْقَنْد الشَّيخ شِهاب الدِّين
يستكمل تَمهيدَهُ لِلْحديثِ عن أصُول الاخْتِلَافِ
وأسْبابِه في حُضُور الْعَارِفِ النَّيْسَابُوري وَرَهْطٍ مِنَ الطُّلّاب..

● المسألة الثانية (الاختلاف أمر قائم قبل الرسالة وبعدها) وأدلة ذلك من الكتاب قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هُود: الآيتان 118 و119] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عِمرانَ: الآية 105] وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [النحل: الآية 64] وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: الآية 10]. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: الآية 164].

وأدلة قيام الاختلاف من السُّنَّة قوله ﷺ: «**إنه من يَعِشْ منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً**» وهو طرف من حديث العرباض بن سارية أخرجه ابن ماجه في سننه، وقوله ﷺ: «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وتفرقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، تفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة**» من حديث أبي هريرة مرفوعاً أخرجه أبو داود وابن ماجة والترمذي، وقال فيه: «حديث حسن صحيح». وأخرجه الترمذي أيضاً من حديث عبد الله بن عمرو وحسّنه، وأبو داود من حديث معاوية وابن ماجة من حديث أنس بن مالك وأسانيدهما جياد كما قال العراقي في تخريجه لأحاديث الإحياء. وقال صاحب مجمع الزوائد في

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

حديث أنس «إسناده صحيح ورجاله ثقات» والكلام على هذا الحديث يطول ولعل صاحبنا أَبا الحسنات يحدِّثنا ذات يوم عن طرقه ومقالات أهل الحديث فيه. والدليل من الواقع على قيام الاختلاف ما نراه من تباين في الآراء قديماً وحديثاً سواء أكان ذلك في الأصول أم في الفروع. ووقوع الاختلاف ووجوده لا يعني مدحه، ولا يعني قبوله وعدم نبذه.

● المسألة الثالثة: (الاختلاف نوعان: اختلاف في الأصول واختلاف في الفروع). والمراد بالاختلاف في الأصول، الاختلاف في أصول العقيدة والاختلاف هنا مذموم مطلقاً لأن العقيدة طريقها القطع واليقين، والاختلاف فيما ثبت يقيناً يأتي على أصله بالهدم. كمن يقول: أقطع بصحة وقوع هذا الأمر، وإذا قيل له: ذلك يستلزم كذا وكذا. رجع عن قوله وقال: لا أصدِّق ذلك. ولذا أنكر القرآن على أتباع الديانات السابقة اتباعهم الظن، فقال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: الآية 116] وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [يونس: الآية 36] وقوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: الآية 23].

وأمثلة الاختلاف في الأصول أن يقول الأول: إن الله واحد أحد ويقول الثاني: بل اثنان. وأن يقول الأول: الناس محتاجون إلى الرسل ليبينوا لهم الحقّ الذي أنزل عليهم ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: الآية 165]، ويقول الثاني: لا حاجة لنا إلى الأنبياء والرسل وحسبنا عقولنا. وأن يقول الأول: يبعث الخلق يوم القيامة فيثاب المحسن ويعاقب المسيء. ويقول الثاني: لا بعث ولا نشور ولا ثواب ولا عقاب ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: الآية 24] وهذا الضرب من الاختلاف مذموم مطلقاً، بل حرام.

والمراد بالاختلاف في الفروع الاختلاف في الأحكام، وإليه ينصرف الكلام عن الاختلاف كلما ذكر. وكثيراً ما يخلط بعض المتعجلين من أهل عصرنا بين هذين الضربين من ضروب الاختلاف فيحملان هذا على ذاك. وذاك على ذا ظناً منهم أن الاختلاف في أصول العقيدة يثاب صاحبه ويؤجر بقدر ما

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

أصاب من الحقّ شأنه شأن الاختلاف في الفروع، وفاته أن العقيدة وأصولها مبناها على اليقين كما قلنا. وإذا تبين هذا فاعلموا يرحمكم الله أن الاختلاف في الفروع وهو مرادنا من الحديث ينقسم إلى قسمين: اختلاف تضاد، واختلاف تنوع.

واختلاف التضاد هو التنافي الحادث بين القولين بحيث لا يمكن الجمع بينهما كأن يذهب أحدهم إلى القول بأن هذا الشيء حلال، ويذهب الآخر إلى أنه حرام، والشيء في نفسه لا يكون حلالاً وحراماً في آن واحد، وما هو إلاَّ حلال أو حرام.

ولا ينقلب الحرام حلالاً ولا الحلال حراماً إلاَّ إذا كان الحل والحرمة صفتين عارضتين، بمعنى أنَّهما مؤقتتان وليستا على التأبيد كتحريم الجمع بين الأختين في النكاح، وهي حرمة مؤقتة وليست على التأبيد كحرمة الأمهات والخالات والعمات والأخوات، والبنات، وبنات الأخ، وبنات الأخت وهي حرمة من قبل النسب، أَو كحرمة زوجات الآباء وزوجات الأبناء، وأمهات النساء، وبنات الزوجات وهي حرمة بالمصاهرة وللرجل أن يبني بأخت زوجه إذا ماتت زوجه أو فارقها بطلاق وهنا فقط يستحيل ما كان حرام حلالاً.

فإذا كان الاختلاف من هذا القبيل فهو بلا ريب اختلاف تضاد وهذا مذموم وهو من أقبح أنواع الخلاف، إذ لا يعقل أن تأتي الشريعة بمثل هذا.

نعم، قد تختلف الأنظار في الحكم على الشيء بكونه محرماً أَو مكروهاً، واجباً أو مندوباً، لأن التحريم والكراهة من جنس واحد وكلاهما خطاب دال على طلب الكف عن الفعل. وهما من هذه الجهة يتفقان، ويختلفان حسب اختلاف الطلب فمتى كان طلباً للكف جازماً كان الفعل حراماً، ومتى كان طلباً للكف غير جازم كان الفعل مكروهاً. وكذلك الإيجاب والندب من الجنس نفسه. فالإيجاب هو الخطاب الدال على طلب الفعل طلباً جازماً، والندب هو الخطاب الدال على طلب الفعل طلباً غير جازم. إذن، فالحكم على الشيء أَو الفعل بأنَّه حلال أَو مندوب، حرام أو مكروه ليس من قبيل اختلاف التضاد.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وأمّا اختلاف التنوّع، فهذا على ضروب، وأكتفي هنا بذكر بعضها.

منها:

أن يكون كل واحد من القولين أَو الفعلين حقّاً مشروعاً كما في القراءات التي اختلف فيها الصحابة، حتى زجرهم رسول الله ﷺ عن الاختلاف بقوله: «**كلكم محسن**» ومثله: الاختلاف في تنوع صفة الأذان والإقامة والتشهّد. وجميعه ثابت عن النبي ﷺ.

ومنها:

أن يكون كل من القولين هو في معنى الآخر ولكن بعبارتين مختلفتين كأن يقول أحدهما: هذا واجب، ويقول الآخر: بل هو فرض كما هو الحال بين الجمهور الذين يسوون بين الواجب والفرض والأحناف الذين يفرّقون بينهما من جهة الدليل فما كان دليله قطعياً كالقرآن والسُّنَّة المتواترة فهو عندهم فرض، وما كان دليله ظنياً كخبر الآحاد فهو عندهم واجب. وقد ذهب بعض العلماء كالآمدي والرازي إلى أن الخلاف بين الجمهور والحنفية هنا خلاف لفظي.

بل إن التفريق بين الواجب والفرض على النحو الذي جرى عليه فقهاء الحنفية فيه شيء من التمحّل. لأن الحكم لا يجوز أن يكون عندنا واجباً لأن طريقه إلينا خبر آحاد وهو يفيد الظن، ويكون في الوقت نفسه فرضاً على الصحابي الذي رواه لأنه يقطع بسماعه عن النبي ﷺ وبصرف النظر عن هذا التفريق فإنه لا يترتب عليه آثار كبيرة.

ومنها:

أن يكون كل من القولين أو الفعلين له أصل يقوم عليه بحيث لا يترجح أحدهما على الآخر، ونظير ذلك في الفقه كثير، وأغلب اختلافات المذاهب من هذا الضرب، والأمثلة على ذلك كثيرة ينوء بها هذا المجلس ويكفينا النظر في كتاب (نصب الراية) للإمام الزيلعي، وكتاب (تلخيص الحبير) للإمام ابن حجر العسقلاني والأول صنفه صاحبه في تخريج أحاديث (الهداية) للفقيه الحنفي المحقق برهان الدين المرغيناني، وعليه حاشية نفيسة للحافظ قاسم بن قطلوبغا

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

هي (منية الألمعي فيما فات من تخريج أحاديث الهداية للزيلعي) والثاني صنفه صاحبه في تخريج أحاديث كتاب (فتح العزيز) المسمى بالشرح الكبير للإمام أبي القاسم عبد الكريم بن محمَّد الرافعي وهو شرح لكتاب (الوجيز) للإمام أبي حامد الغزالي في فقه الشافعي. وهذان الكتابان من أجلّ ما ألّف في تخريج أحاديث الأحكام ولا أتصور فقيهاً أو طالب فقه تخلو مكتبته من هذين المصنّفين.

والمسألة الرابعة: (الكلام عن حديث: اختلاف أمتي رحمة) وهو حديث لا أصل له. وقد نقل الإمام عبد الرؤوف المناوي في شرحه للجامع الصغير للسيوطي المسمى (فيض القدير) كلاماً عن السبكي جاء فيه: «وليس بمعروف عند المحدثين ولم أقف له على سند صحيح ولا ضعيف ولا موضوع» وكل من رواه ساقه بلا سند. ومن أحب أن يقف على كلام العلماء فيه فلينظر في الكتب المصنفة في (الموضوعات) مثل: كشف الخفاء للعجلوني، والمقاصد الحسنة للسخاوي، والأسرار المرفوعة للملا علي القاري، وقد رده بعضهم لفساد متنه كالجاحظ بقوله الذي نقله الخطابي في كتابه (غريب الحديث): «اعترض هذا الحديث رجلان. أحدهما: ماجن والآخر: ملحد وهما إسحاق الموصلي وعمرو بن بحر الجاحظ، وقالا: لو كان الاختلاف رحمة لكان الاتفاق سخطاً، وهذا ما لا يقوله مسلم، لأنه ليس إلاَّ اتفاق أَو اختلاف، وليس إلاَّ رحمة أَو سخط». وما ذهب إليه الجاحظ وابن حزم غير صحيح، وقد رد ذلك الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم بأنه لا يلزم من كون الشيء رحمة أن يكون ضده عذاباً، ولا يلتزم هذا أَو يذكره إلاَّ جاهل أَو متجاهل، وقد قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص: الآية 73] فسمى الليل رحمة ولا يلزم من ذلك أن يكون النهار عذاباً. وهذا فهم غريب من النووي لأن رحمة الله هنا شملت الليل والنهار معاً والعطف يقتضي ذلك. وفي الآية لف ونشر، والمراد: ومن رحمته جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار لتبتغوا من فضله. وهذا كقول امرئ القيس:

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالي

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

والمعنى: كأن قلوب الطير لدى وكرها هي العناب رطباً ويابساً والحشف البالي.

والذي نرتاح إليه هو أن الاختلاف الذي هو رحمة لا يقتضي أن يكون الاتفاق نقمة وعذاباً. لأن الاختلاف الموصوف بالرحمة لا يقابل الاتفاق، وإنما هو اختلاف اقتضته الضرورة أو هو من باب المشاحة اللفظية اختلاف التنوع الذي ذكرناه. وفي كل هذا تيسير على الناس وقد يكون في الاتفاق مشقة وتعسير، وجرياً على القاعدة الأصولية (المشقة تجلب التيسير) والله أعلم. وهذا معنى قول عمر بن عبد العزيز: «ما سرني أن أصحاب محمَّد ﷺ لم يختلفوا، لأنهم لو لم يختلفوا لم تكن رخصة» وهذا ما كان طريقه الاجتهاد كما في تعليق ابن عبد البر في (جامع بيان العلم) على قوله عمر بن عبد العزيز.

والمسألة الخامسة: (الكلام عن الحديث: أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم) وهذا حديث يحتج به دعاة الاختلاف، وهو باطل سنداً ومتناً.

أما من حيث السند فقد جاء بروايات متعددة في أسانيدها متهمون بالوضع والكذب، وفي بعضها مجاهيل، وقد تتبعها الحافظ ابن عبد البر في كتابه (جامع بيان العلم وفضله)، وقال: وهذا كلام لا يصح عن النبي ﷺ وقد أنكره ابن حزم أيضاً فقال: «هذه الرواية لا تثبت أصلاً بل لا شك أنها مكذوبة..» وأما من جهة المتن فإن الحديث يدعو إلى الاقتداء بأي صحابي كائناً من كان، وهذا يترتب عليه العمل بفتاواهم وقد ثبت قطعاً أن من هذه الفتاوى ما هو مخالف للسُّنَّة. وكان الصحابة يقولون برأيهم والرَّسول حي بين ظهرانيهم. فيبلغه ذلك فيصوّب المصيب ويخطّئ المخطئ ومن هذا القبيل حديث جابر الذي أخرجه أَبو داود، قال: «خرجنا في سفر فأصاب رجلاً منا حجر فشجه في رأسه، فسأل أصحابه، هل تجدون لي رخصة في التيمم. قالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء، فاغتسل فمات. فلما قدمنا على النبي ﷺ أخبر بذلك. فقال: قتلوه. قتلهم الله ألا سألوا إذا لم يعلموا! فإنما شفاء العيّ السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصب على جرحه خرقة، ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده»،

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وحديث أَبي سعيد الخدري الذي أخرجه النسائي وأبو داود والدارمي وفيه قال: «خرج رجلان في سفر، فحصرت الصلاة وليس معهما ماء، فتيمما صعيداً طيباً فصلياً، ثم وجدا الماء في الوقت، فأعاد أحدهما الصلاة بوضوء ولم يعد الآخر، ثم أتيا رسول الله ﷺ فذكرا ذلك. فقال للذي لم يعد: «أصبت السُّنَّة وأجزأتك صلاتك، وقال للذي توضأ وأعاد: لك الأجر مرتين».

إذا تبين هذا فقد ثبت أن الخطأ يجري على الصحابة كما يجري على غيرهم، فلا يجوز الاقتداء بهم فيما ثبت خطأه. ولو صح الاقتداء بأي منهم لكان بيع الخمر مثلاً حلالاً اقتداء بسمرة بن جندب، وحراماً اقتداء بغيره، ولكان أكل البَرد للصائم حلالاً اقتداء بأَبي طلحة وحراماً اقتداء بغيره، ولكان ترك الغسل من الإكسال واجباً اقتداء بعلي وعثمان وطلحة وأَبي أيوب وأُبي بن كعب وحراماً اقتداء بعائشة وابن عمر ولكان نكاح المتعة حلالاً اقتداء بابن عباس وحراماً اقتداء بجمهور الصحابة. ثم إن الصحابة فيهم من عرف بالفتيا والقضاء ومنهم من عرف بالرواية ومنهم من لم يعرف لا بهذه ولا بتلك، ولذا كان المصطفى ﷺ يميز بين أصحابه بقوله: أقرأكم فلان، وأقضاكم فلان، وأعلمكم بالحلال والحرام فلان. وكان من الصحابة من هو مكثر في الفتيا كعائشة وعمر وابنه عبد الله، وعلي، وعبد الله بن العباس، وعبد الله بن مسعود، وآخرين، ومنهم من هو متوسط في الفتيا كأم سلمة، وأنس بن مالك، وأَبي سعيد الخدري، وأَبي هريرة وعثمان بن عفان، وعبد الله بن عمرو، ومعاذ بن جبل، وأبي بكر الصديق وآخرين، ومنهم المقل في الفتيا كأَبي الدرداء وأَبي عبيدة بن الجراح، والنعمان بن بشير، والمقداد بن الأسود، وتجدون أسماء هؤلاء مبسوطة في أول كتاب (إعلام الموقعين) لابن القيم.

أحسّ الشيخ بأن الملل بدأ يتسلل إلى مستمعيه وهو لمّا يبلغ نصف الحديث فقال: أرى أن الفتور أخذ ينال من بعضكم وأرى أن نتوقف قليلاً ريثما أحضر من الشراب ما ينعشكم وينعشني. استحسن الحاضرون ذلك منه، وشرع بعضهم يمد ساقه، وبعضهم يغيِّر من جلسته.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT
Est. 2012 CE

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

القَاضِي شِهَابُ الدّين
يَشْرَعُ فِي بَيَانِ أَسْبَابِ الاختلافِ بينَ الفُقَهَاء

غاب عنا الشيخ شهاب الدين بعض الوقت ثم عاد وهو يحمل صحفة فيها فاكهة وأخرى فيها بعض الحلواء. قال وهو يبتسم: لعلّ هذا يبعث فيكم بعض النشاط. وضع ما يحمل ما بين أيدينا ثم خرج وعاد مرة أخرى وهو يحمل في يمينه إبريقاً وفي شماله صحفة ثالثة مغطاة. كشف عنها فإذا هو تمر، قال الشيخ شهاب الدين: هذا من تمر الحجاز أهدانيه أحد أصحابنا الحجاج، وأما الإبريق ففيه من ماء زمزم أهدانيه حاجٌّ آخر.

تركنا الحلو والفاكهة وأخذ كلٌّ واحد منّا ثمرة أو ثمرتين وشرع الشيخ يصبّ لنا من الماء في كاسات صغيرات أعدّت لذلك، وهو يقول لنا: «ماء زمزم لما شرب له» فشربته بنية العِلم والفتح وأنا أقول في نفسي: «اللهم يا معلم إبراهيم علمني. اللهم افتح عليّ فتح العارفين» أحسست كأنني حُلِلْتُ من عقال. رأيت الآخرين يتمتمون بما عنّ لهم من نوايا، سألت الشيخ أبا الحسنات قائلاً: «أليس ماء زمزم لما شرب له» حديثاً من أحاديث المصطفى ﷺ؟ أجاب الشيخ: بلى. وقد اختلف أهل الحديث في صحته ما بين قائل إنه حديث صحيح وقائل: إنه حديث ضعيف، وقائل ثالث: إنه موضوع والقول الثالث فيه مجازفة. قال الشيخ العارف: نحب أن نسمع القول الذي ترتاح إليه قبل أن يعود صاحبنا القاضي ليتمّم ما بدأ من حديث عن أسباب الاختلاف. قال الشيخ أبو الحسنات

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

علاء الدين: روي هذا الحديث بأسانيد مختلفة وطرق متعددة، ولعل أجودها حديث جابر بن عبد الله الذي أخرجه ابن ماجه في سننه وأحمد في مسنده من رواية عبد الله بن المؤمل أنه سمع أبا الزبير يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ماء زمزم لما شرب له» وقد أفرط في الحديث عن هذا الإسناد نقاد الحديث، ومنهم: الحافظ ابن حجر في (تلخيص الحبير) والسخاوي في (المقاصد الحسنة) والعجلوني في (كشف الخفاء)، وقد استفاض في تتبع أسانيده وطرقه شيخ الحديث في عصرنا محمد ناصر الدين في كتابه (إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل) وخلص إلى أن رواية ابن ماجه عن جابر بن عبد الله صحيحة. وروايته عن ابن عباس: ضعيفة. والذي أرتاح إليه أن حديث جابر الذي رواه ابن ماجه حديث حسن. هذا ما يحضرني الآن بشأن هذا الحديث. وأرى قبل أن يستأنف القاضي شهاب الدين حديثه عن أسباب الاختلاف أن يلخص لنا تلميذنا النجيب عبد الله المحجوب ما ألقي علينا. حاولت أن أتملّص من ذلك فلم أفلح، ابتسم الشيخ العارف وقال: لا عليك. إن لم يصبنا منك وابلٌ فطلّ. قلت: أما الوابل فلا سبيل إليه، وأما الطلّ فقد يصيبكم منه شيء. قال: إذن. هات أسمعنا. قلت: ذكر شيخنا الجليل شهاب الدين أن الاختلاف حقيقة قائمة لاختلاف الأنظار، وأنه لا يطلب لذاته وإلا كان طلباً للباطل. وأن الاختلاف فيه المذموم وفيه المحمود، والأول ما أفضى إلى التضاد والثاني ما أفضى إلى التنوع، والأول كأنْ يذهب أحدهم إلى الحِلّ والآخر إلى الحرمة والثاني كالتنوّع في ألفاظ التشهد، وصفة الأذان والإقامة. والاختلاف الذي سببه تباين الفهم والنظر والاجتهاد هو من قبيل اختلاف التنوع، ومثله قوله ﷺ يوم الأحزاب: «لا يصلينّ أحد العصر إلاّ في بني قريظة، فأدرك بعضهم العصر في الطريق فقال بعضهم لا نصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلي. لم يُرد منّا ذلك. فذكر ذلك للنبيّ ﷺ فلم يعنف واحداً منهم «وهذا الخبر أخرجه البخاري في صحيحه. ومراد النبي ﷺ الإسراع في الوصول إلى بني قريظة. فأخذ فريق بظاهر المعنى وهو الصلاة في بني قريظة وإن فات وقتها، وأخذ الفريق الآخر

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

بباطن المعنى وهو الأغذاذ في السير. فلما أدركهم العصر ولم يبلغوا بني قريظة أدوا الصلاة في وقتها. وكلّ يثاب على قدر اجتهاده، ونظيره أيضاً اختلاف الصحابة في قطع أشجار بني النضير ونخيلهم. فقطع قوم وترك آخرون فنزل قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: الآية 5] فدل ذلك على إقرار فعل الطائفتين. ولعلّ أوضح دليل على ذلك من القرآن قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ۞ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: الآيتان 78 و79]، فهذان نبيان اختلفا في حكم مسألة، فأصاب جوابها أحدهما وهو سليمان بتوفيق من الله، ولم يفلح الثاني وهو داود أبوه ومع ذلك أثنى الباري عليهما معاً بالعلم والحكم مع خصه سليمان بالفهم. فيكون كل واحدٍ قد نال من الأجر قدر اجتهاده. هذا مختصر ما سمعنا في إيجاز. قال الشيخ العارف: أوجزت فأحسنت. قال الشيخ أبو الحسنات: لي طرفة تتعلق بالموضوع إن أذن صديقنا شهاب الدين قصصتها على مسامعكم. قال الشيخ شهاب الدين: أذنّا لك (وباستعماله ضمير الرفع المتصل (نا) جعلنا طرفا في الموافقة وهذا من جميل خلق الشيخ وتواضعه، وهو ردّ مكافئ لكلام الشيخ أبي الحسنات حيث طلب هذا الإذن منه ولم يقل (إن أذنتم) باعتبارنا ضيوفاً ورب المنزل أحق أن يستأذن. وهذا مستنبط من قول المصطفى ﷺ: «**لا يؤمّ الرجل في سلطانه إلاّ بإذنه**» قال شيخنا أبو الحسنات: يحكى أن أحمقين ترافقا في سفر حتى إذا بلغ جبلاً مشرفاً على واد قال أحدهما: أتمنى لو كان لي مثل هذا الوادي نعمٌ. فقال الثاني: وأنا أتمنى لو كان لي مثل هذا الجبل ذئاب فتهوى على أنعامك فتأكلها. فتخاصم الرجلان، واستلا سيفيهما وتقاتلا. وبينما هما على هذه الحال مرّ بهما أعرابي كان يحمل قربة من السمن على رأسه فقضّا عليه ما كان بينهما، فما كان من الأعرابي إلاّ أن استل خنجره وبقر به القربة التي على رأسه فسال ما بها من سمن على وجهه، وهو يقول: يسيل دمي مثل هذا إن لم تكونا أحمقين. ضحكنا جميعاً لهذه الطرفة، ثم استطرد الشيخ أبو الحسنات يقول: الخلاف خلافان.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

خلاف معقول يستسيغه العقل ويقبله لأنه يقوم على وجه، وخلاف غير معقول يقوم على الوهم ومثله هذا الخلاف الذي نشب بين هذين الأحمقين اللذين تقاتلا من أجل وهم. وأسوأ من هذين ذلك الأحمق الثالث الذي نصَّباه حكماً بينهما. استحسن الحاضرون حكاية الشيخ وجميل استنباطه منها، أومأ الشيخ العارف إلى الشيخ شهاب الدين وهو يقول: بعد هذا الترويح أرى أن يستأنف الشيخ شهاب الدين حديثه فقد امتد بنا الليل وأخشى ألا ننتهي قبل طلوع الفجر فنثقل عليه بالحديث وبالمكوث. ابتسم الشيخ شهاب الدين، وقال: إن وجودكم معنا هذه الليلة ليؤنسنا ويبعد عنا الوحشة ويبعث في نفوسنا الطمأنينة، وإذا صح أن العمر ساعة فلنجعلها طاعة، وهل أبلغ من طاعة العلم وأعظم، فطالب العلم في عبادة ما لم ينصرف. كان ذلك جواباً حسناً من شيخنا شهاب الدين ولم أكن لأستغربه منه. اعتدل الشيخ شهاب الدين في جلسته وشرع يقول:

اعلموا يرحمني الله وإياكم أن أكثر ضروب الاختلاف التي تعنينا هي الاختلافات الواقعة بين الفقهاء، وهي اختلافات أوقعت الناس في حيرة حتى ظن الكثيرون من العامة، وبعضٌ ممن ألمَّ بطرف من العلوم الشرعية أنها اختلافات جلبها اتّباع الهوى وجرّ إليها التعصب، وهي ليست جميعها كذلك، ولا يكاد يخفى على ذي نظر ما كان سبيله الهوى والتعصب. لذا فإن اختلاف الفقهاء يرجع إلى أربعة أمور:

الأول: اختلافهم في أدلة الأحكام الشرعية وحجيتها على وجه العموم، أو بلغة عصرنا الاختلاف في حجية مصادر التشريع.

والثاني: اختلافهم داخل الدليل على وجه الخصوص.

والثالث: اختلافهم في التواعد الشرعية.

والرابع: اختلافهم في طرق دفع التعارض.

أما اختلافهم في أدلة الأحكام الشرعية فمن المعلوم أنهم اتفقوا على حجية بعض الأدلة واختلفوا في بعضها الآخر. فأما التي اتفقوا عليها فالقرآن

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

والسُّنة والإجماع والقياس خلافاً لمن قال بنفي القياس وهم أهل الظاهر وعلى رأسهم أبو داود الظاهري وابن حزم، وأما التي اختلفوا فيها فالاستحسان الاستصحاب والمصلحة المرسلة، والعرف وقول الصاحب، وشرع من قبلنا.

فمن جعل الاستحسان دليلاً شرعياً احتَجَّ به وهو عنده (عدول المجتهد عن مقتضى قياس جلي إلى مقتضى قياس خفي، أو عن حكم كلي استثنائي لدليل انقدح في عقله رجّح لديه هذا العدول) ومن لم يره حجة لم يستدل به وهو عنده لا يعدو أن يكون نوعاً من اتباع الهوى مستدلاً بعبارة للإمام الشافعي في ردِّ الاستحسان وهي قوله: (من استحسن فقد شرّع).

مع أن هذه العبارة لم ترد على هذا النحو أو بهذا اللفظ في كتابه (الرسالة) و(الأم) وإنما عبارة الرسالة هي: «لا يجوز لأحد أن يقول بالاستحسان ولو جاز تعدي القياس وتعطيله إلى الاستحسان جاز لأهل العقول من غير أهل العلم أن يقولوا فيما ليس فيه خبر بما يحضرهم من الاستحسان، والاستحسان تلذذ».

وفي كتابه الأم: «من قال بالاستحسان فقد قال قولاً عظيماً ووضع نفسه في رأيه واستحسانه على غير كتاب ولا سُنَّة موضعها في أن يتّبع رأيه» وعبارة (من استحسن فقد شرّع) نسبها إلى الشافعي الإمام الغزالي في كتابه (المنخول) وأنكرها السبكي في الأشباه والنظائر وهذا الإنكار لا ينفي بالضرورة صدور العبارة عنه فضلاً عن أن معناها كما رأينا موجود في الرسالة والأم.

وملخص الكلام في الاستحسان أنه نوعان: استحسان جائز وهو العدول عن قياس إلى قياس أقوى، فهو إذاً ضرب من القياس وإنما الخلاف في التسمية فهي لذلك مشاحة اصطلاحية. واستحسان باطل وهو المرادف لما يراه الناس حسناً وهو مخالف للشرع. وأوضح مثال يسوقه عادة الأصوليون الكلام عن سؤر سباع الطير كالنسر والغراب والصقر والبازي والحدأة والعقاب. فقد نص فقهاء الحنفية على أنه طاهرٌ استحساناً ونجس قياساً. ووجه القياس أن سؤر الحيوان النجس لحمه نجس قياساً على لحمه ووجه الاستحسان أن سباع الطير

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وإن كان لحمها محرماً إلاَّ أن لعابها المتولد من لحمها لا يختلط بسؤرها لأنها تشرب بمنقارها وهو عظم طاهر، وأما سباع البهائم فتشرب بلسانها المختلط بلعابها فلهذا ينجس سؤرها. فهذا عدول عن القياس الجلي إلى آخر خفي ولذا لا تعجب إن اختلف الفقهاء في هذه المسألة حسب اختلافهم في حجية الاستحسان، وهكذا الحال مع أدلة التشريع الأخرى المختلف فيها فمن رأى أنها حجة استدل بها ومن رأى غير ذلك أعرض عنها وربما شغّب على من قال بها وأنكر ذلك عليه.

وأما الأمر الثاني الذي يرجع إليه اختلاف الفقهاء فهو اختلافهم داخل الدليل الواحد فالقرآن مثلاً حجة قطعية عند الجميع من حيث الثبوت، وأما من حيث الدلالة ففيه القطعي والظني، والفقهاء يختلفون في دلالة الظني لاعتبارات وهذا جائز.

ومن هذا الضرب الاختلاف في كون الآية مطلقة أو مقيَّدة، والخطاب إذا ورد مطلقاً لا مقيداً فهو على إطلاقه، وإن ورد مقيداً حمل على تقييده. وإن ورد مطلقاً في موضع ومقيداً في موضع آخر فذلك على أقسام تجدونها مبسوطة في كتب أصول الفقه وملخصها أن يختلفا في السبب والحكم فلا يحمل أحدهما على الآخر، أو أن يتفقا في السبب والحكم فيحمل أحدهما على الآخر، أو أن يختلفا في الحكم ويتحدا في السبب. أو أن يتحدا في الحكم ويختلفا في السبب. ومثال هذا الاختلاف أن العلماء اختلفوا في قوله تعالى: ﴿. . . وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ. . .﴾ [النساء: الآية 23] فحمله الحنفية على إطلاقه ولم يقيدوه بعدد ـ أي بمصّة أو مصّتين ـ واستأنسوا بما رواه البخاري ومسلم أنه ﷺ قال: «**يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب**» وإلى هذا ذهب مالك وأصحابه وهو مذهب الثوري والأوزاعي وهو قول ابن عمر (رضي الله عنه) وذهب الشافعي وأحمد في صحيح المذهب إلى أن المقدار المحرم هو خمس رضعات فصاعداً. وذهب فريق منهم أبو ثور، وداود، وابن المنذر إلى أنه لا يثبت التحريم إلاّ بثلاث رضعات فصاعداً، وحجة الشافعي وأحمد حديث عائشة

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

رضي الله عنها أنها قالت: «كان فيما نزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرّمن. ثم نسخت بخمس معلومات. . .» واحتج ثور ومن معه بما رواه مسلم عن أم الفضل أن رجلاً سأل النبي ﷺ: أتحرم المصّةُ؟ فقال ﷺ: «**لا تحرم الرضعة والرضعتان، والمصّة والمصّتان**».

ومن ضروب الاختلاف داخل الدليل الواحد الاختلاف العارض من جهة العموم والخصوص، وهو من أوسع مقامات الاختلاف، ومن ذلك اختلافهم في دلالة العام على أفراده، قطعية أم ظنّية، وحكم العمل بالعام، وعموم المشترك، وعموم الاستثناء عقب الجمل وقد ترتب على هذا الخلاف اختلافات في الفروع، ومثال الخلاف في هذا المقام، اختلافهم في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى. . .﴾ [البقرة: الآية 178] وقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ. . .﴾ [المائدة: الآية 45] وقوله تعالى: ﴿. . .وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ. . .﴾ [الإسراء: الآية 33] فاتفق العلماء على عدم جواز قتل المسلم بالكافر الحربي، واختلفوا في الكافر الذمي، وذهب أبو حنيفة إلى جواز قتله عملاً بعموم الآيات السابقة وذهب إلى خلاف ذلك الجمهور من الشافعية والمالكية والحنابلة من عدم جواز قتل المسلم بالكافر الذمي واحتجوا على ذلك بأحاديث جعلوها مخصصة لعموم الآيات السابقة.

ومن ضروب الاختلاف داخل الدليل الواحد أيضاً الاختلاف العارض من جهة مفهوم الآية. ومفهوم اللفظ وهو دلالة اللفظ على لازم معناه نوعان:

النوع الأول: وهو مفهوم الموافقة ويعرف بفحوى الخطاب وهو ما وافق فيه حكم المنطوق حكم المفهوم ومثاله: قوله تعالى: ﴿. . .فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ. . .﴾ [الإسراء: الآية 23] فهو قد حرم التأفف بمنطوق النص، وحرم أنواع الإيذاء الأخرى بطريق المفهوم من (باب أولى) فإذا كان التأفف حراماً فالضرب حرام من باب أولى.

والنوع الثاني: وهو مفهوم المخالفة أو دليل الخطاب وهو ما خالف فيه حكم المفهوم حكم المنطوق ومثله قوله ﷺ: «**في الغنم السائمة زكاة**» فيدرك

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

منه بطريق مفهوم المخالفة أن الغنم المعلوفة لا زكاة فيها. وهنا يعرض الخلاف كثيراً بين الفقهاء إمّا من جهة كون مفهوم المخالفة حجة أم لا حيث ذهب الجمهور إلى حجية جميع أنواع مفاهيم المخالفة إلاّ مفهوم اللقب، وأنكر أبو حنيفة الجميع، وإما من جهة الاستدلال به عند من يراه حجة. وأكثر الخلاف بين هؤلاء من جهة إدراك شروط مفهوم المخالفة أو الغفلة عنها.

ومثال اختلاف الفقهاء في هذا المقام أنه روي عن النبي ﷺ قال: «**إن المسلم لا ينجس**» ومفهوم المخالفة منه أن المشركين نجس. وبه قال بعض أهل الظاهر مستندين إلى قوله تعالى: ﴿. . . إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ. . .﴾ [التوبة: الآية 28] وذهب الجمهور إلى أن نجاسة المشرك هي نجاسة اعتقاد وحجتهم على صحة هذا التأويل أن الله أباح نكاح نساء أهل الكتاب، ومع ذلك فلا يجب على المرء من غسل الكتابية إلاّ مثل ما يجب عليهم من غسل المسلمة. اتكأ الشيخ في جلسته وأحسسنا أنه قد نال منه الإعياء. قال الشيخ أبو الحسنات: ماذا لو أتم الحديث صاحبنا العارف؟

استحسن منه ذلك الشيخ شهاب الدين، فقال: نِعم والله ما رأيتَ.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

العَارِفُ النّيْسَابُورِيُّ يُكْمِلُ مَا بَدَأَهُ القاضِي شهابُ الدِّينِ مِن حَديثٍ عَنْ أَسْبَابِ الاختلافِ بين الفُقَهاء

اعتدل الشيخ العارف في جلسته، فابتدرناه بأبصارنا، وابتدأ حديثه بخطبة الحاجة تأسياً بالمصطفى، وهي قوله ﷺ: «**إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمَّداً عبده ورسوله.** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: الآية 102] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: الآية 1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: الآية 71] بعد أن حمد الشيخ الله وأثنى عليه شرع يقول: بقي من الكلام عن الاختلاف الذي يحدث بين الفقهاء داخل الدليل الشرعي الواحد أن نذكر الاختلاف الناجم بسبب تباينهم في فهم لفظ من ألفاظ القرآن أو السُّنَّة. وقد جاءت في القرآن الكريم والسُّنَّة ألفاظ تحمل أكثر من معنى وهو ما يُطلق عليه أهل اللغة الاشتراك اللفظي كلفظة (العين) ويراد بها (الباصرة) و(الجارية) و(ذات الشيء)، و(الذهب)، وكلفظة (المولى) فإنها تطلق على (المالك) و(العبد)، و(المعتق)، و(الصاحب)،

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

و(القريب)، و(الجار)، و(الحليف). والاشتراك كما يقع في الأسماء يقع في الأفعال، وذلك مثل (عسعس) فإنها تطلق ويراد بها (أقبل) و(أدبر). ويقع الاشتراك في الحروف أيضاً مثل (مِنْ) فإنها تأتي لابتداء الغاية، وتأتي للتبعيض، وغير ذلك من المعاني كما هو مبسوط في كتب الأعاريب وأحسنها (مغني اللبيب) لابن هشام وكتاب (الجنى الداني في حروف المعاني) للمرادي. فإذا تبيّن هذا فاعلموا أنه جاءت في القرآن والسُّنَّة ألفاظ مشتركة فكانت سبباً من أسباب الاختلاف بين الفقهاء، والصحابة فمن بعدهم، في كثير من الأحكام لاختلافهم في مراد الشارع من ذلك اللفظ. ومن هذا النحو اختلافهم في معنى (القرء) في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: الآية 228] والقرء في اللغة: الطهر والحيض. فذهبت عائشة وابن عمر وزيد بن ثابت رضي الله عنهم إلى أن المراد بالأقراء الأطهار، وذهب أبو بكر وعمر وعلي وعثمان وجمهرة من الصحابة إلى أن الإقراء الحَيض. وذهب مذهب الفريق الأول الشافعي، ومالك، وأحمد في أحد قوليه، وذهب مذهب الفريق الثاني أبو حنيفة النعمان، وأيَّد كل فريق ما ذهب إليه بأدلَّة. فمن أدلة من ذهب إلى أن القرء الطهر، قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: الآية 1]» ووجه الاستدلال أنَّ اللام لام الوقت. أي فطلقوهن في وقت عدتهن. وفي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنه أنه طلق امرأته وهي حائض على عهد رسول الله، فسأل عمر بن الخطاب رسول الله عن ذلك. فقال رسول الله ﷺ: «مُرْهُ فليراجعها، ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر، ثم إن شاء أمسك بعد، وإن شاء طلق قبل أن يمسَّ، فتلك العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء، وهي الطهر بعد الحيضة ولو كان القرء هنا هو الحيض لكان طلقها قبل العدة لا في العدة. ومن أدلة هذا الفريق أيضاً اللسان أو اللغة حيث قيل إن القرء اسم وضع لمعنى، فلما كان الحيض دماً يرخيه الرحم فيخرج والطهر دمّ يحتبس فلا يخرج كان معروفاً من لسان العرب أن القرء الحبس لقولهم: هو يقرئ الماء في حوضه وفي سقائه، وتقول العرب: هو يقري الطعام في شدته،

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

يعني: يحبسه. ذكر ذلك الإمام الشافعي في كتابه (الأم). ويؤكد ذلك ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنَّها قالت: هل تدرون ما الإقراء؟ الإقراء الأطهار. قال الشافعي رضي الله عنه: النساء بهذا أعلم لأن هذا إنما يبتلى به النساء. واستدل القائلون بأن القرء هو الطهر أن العدد في اللغة يخالف المعدود تذكيراً وتأنيثاً. ولما كان العدد في الآية مؤنثاً وجب أن يكون المعدود وهو هنا (القروء) مذكراً فيكون معنى القروء هنا الأطهار وليس الحيضات لأن هذه الأخيرة مفردها مؤنث وهو حيضة. ولو كان المراد بالقروء الحيضات لجاء العدد مذكراً أي (ثلاث قروء). وأما الفريق الثاني القائل بأن المراد بالقرء الحيض فقد استدلوا بأدلة، منها: أن الإقراء في اللغة وإن أريد به الطهر والحيض إلا أنه في الشرع غلب استعماله في الحيض لقوله لله: «**فلتنظر قدر قروئها التي كانت تحيض فلتترك الصلاة**» ويريد ﷺ المستحاضة، فإذا ثبت هذا كان صرف الإقراء المذكور في القرآن إلى الحيض أولى، واستدل هذا الفريق أيضاً بأن الغرض الأصلي من العدة هو استبراء الرحم، والحيض هو الذي تستبرأ به الأرحام لا الطهر، فوجب أن يكون هو المعتبر دون الطهر، كما استدل بأن القول بأن القروء هي الحيض فيه احتياط وتغليب لجانب الحرمة، لأن المطلقة إذا مرعليها بقية الطهر وطعنت في الحيضة الثالثة يحرم على الغير التزوج بها، وجانب التحريم في هذا المقام أولى بالرعاية لأن الأصل في الإبضاع التحريم. وهذا الخلاف في فهم معنى القروء يجر إلى أمرين: أحدهما يتعلَّق بمتى يصح نكاح المطلقة والثاني يتعلَّق بمتى ترث المطلَّقة ومتى تورث، وبخصوص الأمر الأول تنتهي عدتها على رأي الفريق الأول بدخولها في الحيضة الثالثة وبذلك تبرأ ويجوز الزواج بها لأنها تكون قد أنهت ثلاثة أطهار، وهي الطهر الذي طلقت فيه وهو الأول، ثم الحيضة الأولى، ثم الطهر الثاني، ثم الحيضة الثانية، ثم الطهر الثالث، ثم الحيضة الثالثة. وعلى رأي الفريق الثاني لا تنتهي عدتها حتى تدخل في الطهر الرابع فتكون بذلك قد أنهت ثلاث حيضات كاملات وحينئذ فقط يجوز نكاحها.

وبخصوص الأمر الثاني الذي يتعلَّق بالميراث، فالمطلَّقة طلاقاً رجعياً إذا

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

دخلت في الحيضة الثالثة ومات عنها زوجها فإنَّها لا ترثه، وإذا ماتت هي فإنَّه لا يرثها لأنها تكون حينئذ بانت منه جرياً على رأي الفريق الأول، بينما لا يسقط حقها في إرث زوجها، ولا يسقط حقه في إرثها ما دامت في الحيضة الثالثة حتى تدخل في الطهر الرابع جرياً على مذهب الفريق الثاني.

ومن أسباب اختلاف الفقهاء داخل الدليل نفسه نسبة الحكم على الآية أو الحديث بكونه ناسخاً أو منسوخاً. ولما كان النسخ في اللغة يعني الإزالة والإبطال كقولنا: نسخت الشمس الظل إذا أزالته. كما يعني النقل والتحويل كقولك: نسخت الكتاب إذا نقلت ما فيه، وهو في الاصطلاح: (رفع حكم شرعي بدليل شرعي آخر متراخ عنه) فإن الفقهاء يطرأ عليهم الاختلاف فيما يتعلَّق بنسخ الدليل من عدة جهات، وهي:

عدم القطع بأن النص منسوخ فيعمل الفقيه بما فيه من حكم مما قد يخالف فيه غيره.

عدم ظهور الناسخ، أو عدم الجزم بتأخره عن المنسوخ ومن ذلك دعوى النسخ عند كثير من الفقهاء دون إظهار الناسخ.

الاختلاف في نسخ القرآن بالحديث المتواتر.

الاختلاف في نسخ بخبر الآحاد.

ومن أسباب اختلاف الفقهاء في السُّنَّة:

أولاً: أن يكون الحديث بلغ بعضهم ولم يبلغ البعض الآخر ومن لم يبلغه الحديث لم يكلف أن يكون عالماً بموجبه، وفي هذه الحالة يكون قوله في تلك المسألة موضوع الاختلاف بموجب ظاهر آية، أو حديث آخر. أو بموجب قياس. وهذا السبب هو الغالب على أكثر ما يوجد من أقوال السلف مخالفاً لبعض الأحاديث. كما أن استيعاب كل ما قاله الرسول أو فعله لم يدّعه أحد من الأمة وليس لأحد أن يدعيه قبل تمام التدوين، وهؤلاء الصحابة وهم ألصق الناس بالرسول وأعرف به يتفاوتون فيما بينهم في معرفة سُنّة المصطفى والوقوف

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

عليها، ومنهم من كان يلازمه كظله كأَبي بكر وعمر ومع ذلك تفوتهما سنن لا يعلمانها حتى يسألا غيرهما عنها فأَبو بكر الصدِّيق سئل عن ميراث الجدة فقال: ما لك في كتاب الله من شيء، وما علمت لك في سُنّة رسول الله من شيء ولكن أسأل الناس. فسألهم فقام المغيرة بن شعبة ومحمَّد بن مسلمة فشهدا أن رسول الله ﷺ قد أعطاها السدس.

وهذا عمر بن الخطاب فاتته سُنَّة الاستئذان حتى أخبر بها وحكايته مع أبي موسى الأشعري معروفة رواها البخاري في صحيحه، ولم يكن يعلم أن المرأة ترث من دية زوجها حتى أُخبر بأن الرسول ﷺ قد ورث امرأة أشيم الضبابي من دية زوجها، ولم يكن يدري من أمر الشاك في صلاته ما يفعل، حتى أخبر بأنَّه ﷺ قال: «يطرح الشك ويبني على ما استيقن» وهذا رواه مسلم وأبو داود والترمذي وأَحمد.

وهذا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أفتى هو وابن عباس وغيرهما بأن الحامل المتوفى عنها زوجها تعتد أبعد الأجلين. ولم تكن بلغتهم سُنَّة المصطفى في سُبَيْعَة الأسلمية وقد توفي عنها زوجها سعد بن خولة فأفتاها الرسول ﷺ بأن «عِدّتها وضع حملها» وما قيل عن الصحابي من عدم استيعاب سننه ﷺ يصح على التابعي وغيره من فقهاء الأمة خاصةً وأن الصحابة قد تفرَّقوا في الأمصار، وفيهم من انفرد بسُنَّة لم يتلقَّها غيره فتشيع في ذلك المصر الذي نزل به دون غيره من الأمصار. قلت مقاطعاً الشيخ العارف: إذا أَذِنَ أشياخي أريد أن أسأل سؤالاً. قال: سل. قلت: كيف ينعت هؤلاء بأَنَّهم مجتهدون وهم غير مستوعبين أحاديث الأحكام؟ أجاب الشيخ: اعلم يا عبد الله أن شروط الاستيعاب غير واردة في المجتهد الواحد، وإنما يكون الاستيعاب بمجموعهم وغاية العالم أن يَعْلم جمهور ذلك أَو معظمه بحيث لا يند عنه إلاَّ القليل ثم لا تنس يا عبد الله أن هذه المدوّنات المشهورة من كتب السنن والجوامع والمسانيد إنما جُمعت بعد انقراض الأئمة التابعين، فلا يظنن أحدٌ خلاف ذلك بحيث إذا وجد إماماً على خلاف الحديث الثابت أنحى باللائمة عليه لتقصيره وعدم النظر في تلك المصنّفات.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

ثانياً: أن يكون الحديث بلغهم ولكنه لم يثبت عندهم لأسباب منها: جهالة راو في سنده. فقد يكون الراوي مجهولاً عند بعضهم ومعروفاً عند غيرهم وترتفع هذه الجهالة وهي جهالة العين لا الحال بأن يروي عنه اثنان، أما إذا كانت الجهالة جهالة حال أي أنه مجهول العدالة ظاهراً وباطناً فهذا لا تقبل روايته عند الجمهور، وأما رواية المستور وهو عدل الظاهر خفيُّ الباطن يحتج به بعضهم ولا يحتج به البعض الآخر. ومنها: أن يكون الراوي متهماً عند بعضهم معدلاً عند غيرهم، والأصل لرفع الخلاف أن (الجرح مقدم على التعديل) بشرط أن يكون الجرح مفسّراً وإلاّ فلا يعتد به. والكلام في هذا لا يحتمله هذا المجلس وتجدونه مبسوطاً في الكتب التي تعني بالجرح التعديل ولعلّ أقربها إلى أيدينا كتاب محدّث الهند العلاّمة أبي الحسنات اللكنوي المسمى بـ(الرفع والتكميل في الجرح والتعديل) ومنها: عدم بلوغ الحديث مسنداً وروده منقطعاً. ومنها: اعتقادهم أن أحد رواة الحديث مدلس فيروي عمن عاصره ما لم يسمعه منه موهماً أنه سمعه منه أو يروي عن شيخه فيسميه باسم أو لقب أو كنية لا يعرف بها. والأول هو تدليس السماع والثاني هو تدليس الشيوخ. ومنها: أن يكون للراوي حالتان: حالة استقامة وحالة اضطراب فلا يعرف هل جاءت روايته تلك حال استقامته أم حال اضطرابه حتى تقبل في الأولى وترد في الثانية مثل من اختلط في آخر عمره فتكون رواياته في أول عمره مستقيمة، ورواياته في آخر عمره سقيمة.

ثالثاً: الاشتراط في خبر الواحد العدل الحافظ شروطاً لم يقل بها بعضهم كاشتراط أن يكون المحدّث فقيهاً في حالة مخالفة قياس الأصول.

رابعاً: اشتراط بعضهم انتشار الحديث وظهوره إذا كان فيما تعمُّ به البلوى. والجمهور من الأصوليين والشافعي وأصحاب الحديث ذهبوا إلى قبول خبر الواحد فيما تعمّ به البلوى إذا صح إسناده، وذهب أبو الحسن الكرخي من متقدمي الحنفية وجميع المتأخرين من الأحناف إلى رده وعدم العمل به. واحتج هؤلاء وأولئك على مذهبهم بأدلّة. ولذلك رد القائلون بعدم قبول الحديث فيما

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تعم به البلوى ما لم يكن ظاهراً منتشراً حديث بسرة بنت صفوان أن النبي ﷺ قال: «**من مسَّ ذكره فليتوضأ**» وهو حديث صحيح أخرجه أصحاب السنن الأربعة، وهو حديث ظاهر ولم تنفرد بروايته بسرة. وقد رواه من الصحابة سبعة عشر صحابياً هم: جابر بن عبد الله، وأبو هريرة، وأم حبيبة، وعبد الله بن عمرو، وزيد بن خالد، وسعد بن أبي وقاص، وعائشة، وأم سلمة، وابن عباس، وابن عمر، وعلي بن طلق، والنعمان بن بشير، وأنس بن مالك، وأبي ابن كعب، ومعاوية بن حيدة، وقبيصة، وأروى بنت أنيس. تجدون رواياتهم في كتب السنن. فلا يبقى معنى لرده بعدم الانتشار والظهور.

خامساً: عدم معرفة بعضهم لمدلول لفظ في الحديث لغرابته كالمزابنة، والمخابرة، والمحاقلة، والملامسة، والمنابذة، والغرر.

سادساً: احتجاج بعضهم بالحديث المرسل مطلقاً، واحتجاج البعض الآخر به بشروط، ومنع فريق ثالث العمل به مطلقاً. والمرسل هو أن يقول التابعي قال رسول الله أو فعل كذا، أو فُعِل كذا في حضرته فأقرّه أو سكت عنه دون أن يذكراسم الصحابي الذي سمع منه ذلك. والمرسل نوعان:

النوع الأول: مرسل الصحابي وهو أن يروي أحداث الصحابة أي صغار السن منهم عن رسول الله ولم يسمعوا منه. وقد عدّ ابن الصلاح أن رواية الصحابة الصغار عن رسول الله في حكم الموصول المسند لأنّهم يروون عن الصحابة الكبار وهم عدول. وقد تعقبه العراقي في نكته على مقدمه ابن الصلاح بأن الصواب أن يُقال لأن أكثر رواياتهم عن الصحابة إذ قد سمع جماعة من الصحابة من بعض التابعين.

والنوع الثاني: مرسل التابعي وهو أن يروي التابعي عن النبي ﷺ دون المرور بالصحابي. واتفقوا على حجية مرسل الصحابي لأن الصحابة جميعهم عدول والجهالة بهم غير قادحة، واختلفوا في حجية مرسل التابعي. واشترط الشافعي للاحتجاج بمرسل التابعي شروطاً أربعة: **الأول**: أن يشركه حفاظ

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

مأمونون فيسندون الحديث بمثل معنى ما روى. **والثاني**: أن يوافقه مرسل غيره. **والثالث**: أن يوافقه قول لبعض الصحابة. **والرابع**: أن يوافق فتوى كثير من أهل العلم.

ولهذا ذهب الحنفية إلى أن القهقهة تبطل الوضوء. وحجتهم في ذلك أحاديث مرسلة كما وردت فيها أحاديث مسندة ولكنها ضعيفة لا تقوم بها حجة وهذا الزيلعي عمدة محدثي الحنفية يقرِّر ذلك في كتابه (نصب الراية). ولهذا أيضاً ذهب الأحناف والمالكية إلى وجوب القضاء على من أفسد صوم التطوع وحجتهم حديث عائشة الذي أخرجه أبو داود وهو مرسل. وهو مخالف للحديث الذي أخرجه البخاري مسنداً في قصة أبي الدرداء مع سلمان عندما أفطر صوم يوم تطوع فلم يؤاخذه الرسول على ذلك، فلو وجب لأخبرهم.

ومن أسباب اختلاف الفقهاء تباينهم في القواعد الفقهيَّة وهي أصل من أصول الشريعة كما قال القرافي في مقدمة كتابه (الفروق) حيث جعل أصول الشريعة قسمين: أحدهما أصول الفقه كدلالة الأمر على الوجوب ودلالة النهي على التحريم وصيغ الخصوص والعموم. وثانيهما: القواعد الفقهية وهي كثيرة ولها من فروع الأحكام ما لا يحصى، وبقدر إحاطة الفقيه بها يعظم قدره ومن أخذ بالفروع الجزئية دون القواعد الكلية تناقضت عليه الفروع واحتاج إلى حفظ جزئيات لا تتناهى ومن ضبط الفقه بقواعده استغنى عن حفظ أكثر الجزئيات لاندراجها في الكليات وتناسب عنده ما تضارب عند غيره. وجعلها بعضهم سبع عشرة قاعدة كما فعل الدباس وهو من أئمة المذهب الحنفي، وجعلها ابن نجيم خمساً وعشرين قاعدة في كتابه (الأشباه والنظائر) ومن المصنَّفات التي عُنِيت بالقواعد الفقهية وما تفرّع عنها كتاب (الفروق) للقرافي وكتاب (القواعد) لابن رجب الحنبلي، وكتاب (الأشباه والنظائر) للسيوطي. ومن هذه القواعد: الأمور بمقاصدها، والضرر يزال، والعادة محكمة، واليقين لا يزول بالشك، والمشقة تجلب التيسير، والأصل براءة الذمة، والبينة عن من ادعى واليمين على من أنكر. والخراج بالضمان، والضرورات تبيح المحظورات، ودرء المفسدة مقدم على جلب المصلحة.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

وقد اشترط الفقهاء للعمل بهذه القواعد شروطاً ولذا نجد منهم من يعمل بالقاعدة مطلقاً ومنهم من يعمل بها مقيدة، وهذا ينجم عنه اختلاف بلا ريب ونكتفي بمثال واحد على ذلك وهو اختلافهم في قاعدة (الأصل بقاء ما كان على ما كان) ومعنى هذه القاعدة أن ينظر إلى الشيء على الأصل أو الحال التي كان عليها فيحكم بدوامه على تلك الحال ما لم يقم دليل على خلاف ذلك. وهذه القاعدة كما يقول الأصوليون هي أساس (الاستصحاب) وهو الحكم بثبوت الشيء بناءً على تحقق ذلك الشيء وثبوته في وقت من الأوقات. والاستصحاب حجة دافعة لا مثبتة عند الحنفية وخالفهم في ذلك الشافعية فاعتبروه حجة صالحة للدفع والإثبات، فالمفقود يعد حياً أثناء فقده عند الحنفية فلا توزع تركته على ورثته ولكن لا يثبت له حق الميراث، ممن مات في أثناء فقده. أما عند الشافعية فيثبت له حق الميراث ممن مات أثناء فقده لأن الاستصحاب عندهم حجة للدفع والإثبات.

ومن أسباب الاختلاف بين الفقهاء. كما ذكرالشيخ شهاب الدين فهو التباين في دفع التعارض بين الأدلة. ومن المعلوم أن الدليلين المتعارضين إما أن يكونا عقليين أو نقليين أو أن أحدهما عقلي والآخر نقلي وهذه ثلاثة صور للتعارض يتفرع عنها عدد آخر من الصور:

فإذا كان المتعارضان عقليين فهما إما قطعيان أو ظنيان أو أن أحدهما قطعي والآخر ظني.

وإذا كان المتعارضان نقليين فهم إما قطعيان أو ظنيان أو أن أحدهما قطعي والآخر ظني.

وإذا كان المتعارضان أحدهما عقلي والآخر نقلي فهما إما:

- عقلي (قطعي) ونقلي (قطعي).
- عقلي (ظني) ونقلي (ظني).
- عقلي (قطعي) ونقلي (ظني).

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ـ عقلي (ظني) ونقلي (قطعي).

فالقطعيان لا يتعارضان إذا كانا عقليين لأن تعارضهما يستلزم التناقض كأن يقول أحدهما بالإيجاب والآخر بالسلب، وإذا تعارضا لم يجز الجمع بينهما لأن ذلك يستلزم الجمع بين النقيضين وهذا محال.

والقطعيان إذا كانا نقليين لا يجوز أيضاً تعارضهما إلاَّ إذا كان أحدهما متأخراً عن الآخر في الزمان فعدَّ ناسخاً والثاني منسوخاً فيعمل بالناسخ ويترك المنسوخ.

والظنيان سواء أكانا عقليين أم نقليين فيجوز بينهما التعارض، وهنا يكون الترجيح بينهما فيقدم الراجح ويؤخر المرجوح.

والقطعي والظني إذا تعارضا قدم القطعي سواء أكان عقلياً أم نقلياً وكثيرمن الاختلافات التي نراها بين الفقهاء تأتي من هذا الباب، ولذا اختلفوا في بعض طرق الترجيح بين الأدلة عند التعارض واتفقوا في بعضها الآخر، ومن هنا عمل بعضهم بدليل لعلة أو سبب يرجحه على دليل آخر يعارضه. وتفصيل ذلك مبسوط في كتب أصول الفقه، وقد عدد الإمام أبو بكر محمَّد بن موسى بن عثمان بن حازم الهمذاني في كتابه (الاعتبار في الناسخ والمنسوخ) خمسين وجهاً من وجه الترجيح بين الأحاديث ومثل لكل وجه بأمثلة.

توقف الشيخ العارف عن الكلام قليلاً، ثم قال: لقد أدركنا الفجر فحسبنا ما قلنا وحسبكم ما سمعتم.

شكرنا الشيخ العارف وشكرنا مضيفنا الشيخ شهاب الدين قاضي سمرقند وخرجنا جميعنا نحثّ الخطى نحو المسجد.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

العَارِفُ النّيْسَابُورِيُّ وَصَحْبه أمام ضَرِيحِ تَيْمُورلَنْك في سَمَرْقَنْد

انقضت صلاة الصبح، وتفرّق المصلّون، وأرسلت ذكاءُ أشعتَها الكليلة عبر الغيوم مؤذنة بانبلاج فجر يوم جديد. سرنا أربعتنا: الشيخ العارف والشيخ شهاب الدين والشيخ أبو الحسنات وأنا حتى بلغنا ضريحاً كبيراً مزيناً بالنقوش تحيط به أشجار ضخمة. قال الشيخ العارف: مَرْقَدُ مَنْ هذا؟ لم أعجب لسؤال الشيخ لأنه كان حديث عهدٍ بسمرقند وما أظنه جال في أرجائها حتى يتعرّف على معالمها. أجابه الشيخ أبو الحسنات: هذا قبر تيمورلنك. انتفض العارف وكأنه أصابه مَسٌّ، وقال: الطاغية الغاشم؟ قلتُ: نعم. اقترب القاضي شهاب الدين خطوة من الضريح ثم قال: الحمد لله الذي قهر الجبارين بالموت. تحرك الشيخُ العارف نحوه وهو يتأمّل هذا البناء الفخم، وقال: كفى بالموت واعظاً. قال الشيخُ أبو الحسنات وهو يتحرك خطوةً نحوهما: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: الآية 78]. قال الشيخُ العارف وقد انهملت عيناه بالدموع: القبور أول منازل الآخرة. فاخرجوا بنا عن مساكن الذين ظلموا أنفسهم. قلت في خاطري: كأن الشيخَ يريد بمساكنهم قبورهم. قال الشيخ أبو الحسنات: لله درّك. لو استقبلتُ من أمري ما استدبرت لكتبتُ على هذا الضريح: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: الآيات 128 ـ 131]. قلتُ في نفسي:

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: الآية 42]. انبعث صوتٌ من وراء الضريح ينشد:

وعظتنا بمرّها الأيام ... وأرتنا مصيرنا الأرجامُ
ودعتنا المنون في سنة الغفلة ... هبّوا واستيقظوا يا نيامُ
ليت شعري ما يتقي المرءُ والرامي ... له الموتُ والخطوبُ سهامُ
منهلٌ واحدٌ شرائعه شتى ... عليه للواردين ازدحامُ

خرج صاحب الصوت فإذا هو منصُور الدرويش. وضع يده على عمود من أعمدة الضريح وشرع ينشد:

أمّا والله إنَّ الظلمَ شؤمٌ ... ولا زال المسيءُ هو الظلومُ
إلى الدّيانِ يومَ الدين نمضي ... وعند الله تجتمعُ الخصُومُ
ستعلم في الحساب إذا التقينا ... غداً عند المليك مَنِ الملومُ
ستنقطع اللذائذُ عن أناسٍ ... من الدنيا وتنقطعُ الهمومُ
لأمر ما تصرّمتِ الليالي ... لأمر ما تحرّكتِ النّجومُ
سل الأيام عن أمم تقضّت ... ستنبيك المعالمُ والرسومُ
ترومُ الخلدَ في دار الدنايا ... فكم قد رام غَيْرُك ما تروم
تنامُ ولم تنم عنك المنايا ... تنبّه للمنية يا نؤومُ
لهوتَ عن الفناء وأنت تفنى ... فما شيءٌ من الدنيا يدومُ
تموتُ غداً وأنت قريرُ عينٍ ... من الشهواتِ في لججٍ تعومُ

اقترب منصور الدرويش والتصق بالشيخ العارف وكأنه طفلٌ صغير. ابتسم الشيخ العارف، وقال:

لا يعجبنك أثوابٌ على رجلٍ ... دَعْ عنك أثوابه وانظرِ إلى الأدبِ
فالعودُ لو لم تَفُح منه روائحه ... لم يفرق الناسُ بين العود والحطبِ

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

قلتُ في خاطري: الشيخ يريدني بكلامه لأنني كنت أتبرّم من هذا الدرويش الذي كان يخرج علينا من حين إلى آخر على غير ميعاد. حطّ غرابٌ فاحم فوق إحدى الشجرات وشرع ينعب نعيباً منكراً. تعوذنا بالله وابتعدنا عن المكان.

قال الشيخ العارف: روى الشيخان في صحيحهما عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ لما مر بالحِجْر قال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم. ثم قنّع رأسه وأسرع السير حتى اجتاز الوادي» قال الشيخ العارفُ مستأنفاً حديثه: ما بال القوم هنا وكأنّهم يعظمون الطغاة فيجعلون لهم الأنصاب ويبنون عليهم الأضرحة والقباب؟ أجاب شيخنا أبو الحسنات: «إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور» لو عُدْتَ إلى هذا المكان بعد ساعة لرأيت هذا الضريح مكتظاً بالزوّار ناسين أن المقبورَ شيطان من شياطين الإنس عاث في أرض الإسلام فساداً وخراباً، فسفك الدماء، وهتك الأعراض، وحرّق الزرع، وجفّف الضرع، فما أعجبَ حالَ الناس، وما أسرع نسيانهم!

قال الشيخ شهاب الدين: الناسُ على دين ملوكهم فمتى استقام الرعاة على شرع الله انقادت لهم الرعية، وحينئذٍ لا تشيع بينهم بدعة ولا ضلالة. ومتى انحرفوا عن منهج الله دانت رعيتهم بكلِّ باطل، وسلّمت لكلِّ ناعقٍ قيادها حتى يستوي في الضلال كبيرهم وصغيرهم، عالمهم وجاهلهم، فيخبُو صوتُ الحق ويرتفع صوت الباطل. قال الشيخ العارف: هل معكم مِنْ خبر عن هذا الطاغية؟

أجاب الشيخُ أبو الحسنات: لو أذن لكلِّ ركنٍ من أركان سمرقند أن يحكي خبراً من أخباره لظللت تسمع دهراً، وما الدهر بكافيه. قال الشيخ العارف: حسبنا أن نسمعَ طرفاً من أخباره. قال الشيخُ أبو الحسنات: لصاحبنا القاضي شهاب الدين علمٌ بخبره. قال الشيخُ شهاب الدين: هو تيمورلنك أي تيمور الأعرج بلغة الأتراك لعرج في رجله. كان باقعةً من البواقع وداهيةً من الدّواهي، وقد روى المؤرخون في مولده غرائب قد لا تصح، وإنما سيقت

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

إمعاناً في تقبيح شروره، ونجد مثيل هذا في تراجم الظلمة كالحجّاج. وقد حكى ابن العماد في (شذرات الذهب) أنه رئي ليلة وُلِد كأن شيئاً يشبه الخوذة تراءى طائراً في جوّ السماء ثم وقع على الأرض فتطاير منه شرر حتى ملأ الأرض.

وقيل إنه لما خرج من بطن أمّه وُجِدَت كفّاه مملوءتين دماً فَزجروا أنه تُسْفَكُ على يديه الدماء. وهذا لا ريب من صنع الإخباريين، ومثله تماماً قاله المسعودي حين ذكر مولد الحجّاج بن يوسف. وقيل إن والده كان إسكافاً وقيل: كان أميراً عند السلطان حسين صاحب (بلخ) وأن أمه كانت من ذريّة جنكيز خان. دانت له الأرض فتملّك بخارى وسمرقند وخوارزم وهراة وطبرستان وجرجان، ثم تملك أصفهان وتبريز، وأذربيجان، ثم تحوّل إلى بغداد فتغلّب عليها، ونازل أهل حلب فظهر عليهم وفعل بهم الأفاعيل الشنيعة ثم تحوّل إلى دمشق وكان ذلك سنة ثلاث وثمانمائة، وأناخ بظاهر دمشق، وظل يتخطف الهاربين من أهلها ويلقي بهم تحت أرجل الفيلة حتى خرج له أعيان المدينة بعد أن أعياه أمرُهم يطلبون منه الأمان، وفُتحت له أبواب المدينة، واستسلمت له قلعة دمشق فأباح لمن معه النهبَ والسلبَ والقتلَ والإحراق فهجموا على المدينة ولم يدعوا بها شيئاً قَدِرُوا عليه وطرحوا على أهلها صنوف العذاب وسبوا النساء وفجروا بهن واسترقوا الأولاد، ولا زالوا على ذلك أياماً، وأضرموا الناس في المباني حتى احترقت بأسرها ورحل عنها هذا الظالمُ الغشومُ يوم السبت ثالث شعبان سنة ثلاث وثمانمائة، ثم اجتاز إلى حلب وفعل بأهلها ما قدر عليه ثم تحوّل إلى الرُّها وماردين، ثم دخل بغداد مرةً أخرى وحاصرها حتى أخذها عَنْوَةً في يوم عيد النحر من السنة عينها ووضع السيف على رقاب أهلها وألزم جميعَ من معه أن يأتي كلُّ واحدٍ منهم برأسين من رؤوس أهلها فوقع القتلُ حتى سالت الدماء أنهاراً، وقد أتوه بما لزمهم به فبنى من هذه الرؤوس مائةً وعشرين مئذنة، ثم جمع أموال أهلها وأمتعتهم وسار إلى قرى (باغ) فجعلها خراباً بلقعاً. وفي سنة أربع وثمانمائة قصد بلاد الروم فغلب عليها وأسر صاحبها أبا يزيد بن عثمان ومات في أسره.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ودخل الهند فنازل ممالك المسلمين حتى غلب عليها وكان يغريه قتل المسلمين وترك الكفّار. وخرج من سمرقند إلى بلاد الصين، وكان الوقتُ برداً فمرّ بجيحون وهو متجمِّد من شدّة الصقيع فعبره سائراً هو ومن معه فاشتدّ عليه الريح والثلج فنفقت دوابهم وهلك من معه وهو لا يبالي بما نزل بمن معه من شدّة حتى أصيب وهلك وعاد برمَّته إلى سمرقند حفيدُه خليل بن أميران شاه بن تيمور وكان معه في الجند، وفيها دُفِن وجُعل له هذا الضريح، وظلّ يؤمه الناس تبرّكاً ويقصدونه بالنذور، وهذا الفعلُ إن تمَّ عند قبور الصالحين كان شركاً وضلالاً، فكيف بقبور الظلمة والمجرمين. هذا ملخّص خبر هذا الطاغية المقبور. قال الشيخُ أبو الحسنات علاء الدين: إن خير من تتبّع أخباره ابن عربشاه شهاب الدين أحمد بن محمَّد المؤرخ الرحالة من أعيان المائة التاسعة توفي سنة أربع وخمسين وثمانمائة وله كتاب مطبوع بعنوان (عجائب المقدور في أخبار تيمور). استقصى فيه أحوال هذا الرجل وحروبه من مبدأ ظهوره إلى انكسار شوكته. وقد انتَدب وفْدٌ من العلماء والقضاة لمقابلة تيمور، وكان على رأسهم ابن خلدون صاحب التاريخ. وقد بلغ بابن خلدون كرهه الظلم أن أفرد له مبحثاً في الفصل الثالث والأربعين من مقدمته وقد جعل الظلم مؤذناً بخراب العمران حتى إنه يقول: «اعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم. . ولا تحسبن الظلم إنما هو أخذ المال أو الملك من يد مالكه من غير عِوَض ولا سبب كما هو مشهور. بل الظلم أعمّ من ذلك وكلُّ مَنْ أخذ مِلكَ أحد أَو غصبه في عمله أو طالبه بغير حق، أو فرض عليه حقاً لم يفرضه الشرع فقد ظلمه. فجباة الأموال بغير حقها ظلمةٌ، والمعتدون عليها ظلمة، والمنتهبون لها ظلمة، والمانعون لحقوق الناس ظلمة، وغصّاب الأملاك على العموم ظلمة، ووبال ذلك كلُّه عائد على الدولة بخراب العُمْران الذي هو مادّتها لإذهابه الآمال من أهله. واعلم أن هذه هي الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه، وذلك مؤذِنٌ بانقطاع النوع البشري،

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

وهي الحكمة العامة المراعية للشرع في جميع مقاصده الضرورية الخمسة من حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال. .».

قال الشيخُ العارف: وجاء في الحديث القدسيّ: «يا عبادي إنّي حَرمتُ الظلمَ على نفسي فلا تظالموا» ورحم الله الإمام الشافعي حيث يقول:

إذا ظالم استعمل الظلمَ مذهباً ... ولجّ عتوّاً في قبيح اكتسابه

فَكِلْه إلى صرف الليالي فإنَّها ... ستبدى له ما لم يكن في حسابه

فكم قد رأينا ظالماً متجبراً ... يرى النجم فيها تحت ظل ركابه

طغى وبغى حتى إذا غَرّه البقا ... أناخت جميع النائبات ببابه

قال الشيخ شهاب الدين: هذا هو تيمور بضعة نتنة من جنكيز خان الغاشم، وهل يلد الظالم إلاَّ ظالماً؟ وصدق الله العظيم حيث قال: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: الآية 27]. هكذا شأن الظالمين وهذا مآلهم على مر العصورفهل من معتبر؟ انفلت منصور الدرويش وشرع يجري هنا وهنالك وهو ينشد:

يا خاطب الدنيا الدنية إنها ... شَرَك الردى وقرارة الأقدار

دار متى أضحكت في يومها ... أبكت غداً تبًّا لها من دار

ودع بعضنا البعض وانصرف الشيخ شهاب الدين مع صاحبه أبي الحسنات واستأثرت بصحبة شيخنا العارف.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

العَارِفُ النّيْسَابُورِي وعبد الله المحجوب عند دوحة المشتاق

بعد أن تركنا قبر الغاشم تيمور الأعرج سرت والشيخ حتى بلغنا سوق الورّاقين، وكانت الحياة قد أخذت تسري في أوصال المدينة المتثائبة الكسلى، ولم تلبث طويلاً حتى أخذت تعجّ بالناس. ساقتنا أقدامنا كالعادة نحو دكان صاحبنا أَبي علي الورّاق، وكعهدي به لم يتأخّر يوماً في فتح دكانه مع أن تجارته كاسدة، وأكثر المترددين عليه هم من شيوخ العلم وطلبته، وهؤلاء أفقر خلق الله في كل مكان. سلّمنا على أَبي علي فرحب بالشيخ معرباً عن تعظيمه له وتو ره وأدخلنا إِلى الدكان وهرع يصب لنا أقداحاً من الشاي انتهى لتوّه من تحضير ، وكان صاحبنا أَبو علي لا يمل احتساء الشاي، ليس فحسب بل كان يتفنن في صناعته ويحفظ ما قيل فيه من جيد الشعر ورديئه. قلت له: هل أسمعت الشيخ أجمل ما قيل في الشاي؟ أجاب في كياسة: وهل يجوز لمثلي أن ينشد شعراً في حضرة مولانا الشيخ العارف؟ قال الشيخ العارف: هات ما عندك فلا جناح عليك. نشط أَبو علي وقال وهو يقلّب قدح الشاي بين يديه منشداً:

لئن كان غيري بالمدامة مولعاً ... فقد ولعت نفسي بشاي معطّر

إذا صبّ في كأس الزجاج حسبته ... مذاب عقيق صب في كأس جوهر

به أحتسي شهداً وراحاً وسكراً ... وأنشق منه عبق مسك وعنبر

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

يغيب شعور المرء في أكؤس الطلا ... ويصحو بكأس الشاي عقل المفكِّر
يجدّ سرور المرء من دون نشوة ... فأحبب به من منعش غير مسكر
خلا من صداع أَو نزيف كأنَّه ... سلافة أهل الخلد أَو ماء كوثر
فمنه اصطباحي واغتباقي ولذتي ... ومنه شفائي من عناء مكدّر
كأني إذا ما أسفر الصبح ميت ... وإن أرتشف كأساً من الشاي أحشر
ولو ذاقه الأعشى وحكم في الطلا ... وفيه لقال: الفضل للمتأخر

انبسطت أسارير الشيخ، وارتسمت على محياه ابتسامة تشعر بالرضا والاستحسان، ثم قال: لا يقول مثل هذا إلاَّ اثنان: ابن الرومي، والصافي. وما أحسبه إلاَّ من شعر الثاني لسهولة ألفاظه، ويسر معانيه. قال أبو علي: هو والله من شعر الصافي، وهو عندي من أشعر شعراء هذا الزمان غير أنه قليل الحظ فلم يعبأ بشعره أهل النقد. قال الشيخ: وما ذلك إلاَّ لعنفوان فيه وتعال عن السفاسف واستخفافه بشعراء عصره. وهو شاعر يجدّ وراء أبكار المعاني ويعرض عن التراكيب المبتذلة التي تلوكها ألسنة الشعراء. اقترب الشيخ من لوحة علقها أَبو علي عند مدخل دكانه كتب فيها بالخط الفارسي: (رحم الله العماد الكاتب). التفت نحو أَبي علي وقال: إن أعلم الناس بصناعة الكتاب هم الورّاقون، وكثير من الورّاقين هم من أهل العلم، أَو على الأقل هم على باب من العلم. ومن أعلام الورّاقين النديم صاحب الفهرست ويقولون: ابن النديم وهو خطأ. أخذ الشيخ ورقة وثبتها تحت اللوحة وكتب عليها: (رحم الله مجير الدين الأسعردي) ثم انصرف نحو أكداس الكتب.

نظرت إلى اللوحة المعلقة وبدا لي كأنني أراها لأول مرة. دنوت منها لعلي أبلغ مراد كاتبها، وظللت أتأمّل فيها بعض الوقت ولكن دون طائل فقد غلّقت دوني أبوابها. نظرت فيما كتب الشيخ فإذا هو أشق من ذاك. سلم الشيخ وهمّ بالخروج فاعترضته سائلاً: بالله عليكما إلا أخبرتماني ما تريدان بقوليكما رحم الله العماد ورحم الله مجير الدين؟ قال الشيخ العارف: أراد صاحبك أَبو علي قول العماد الكاتب:

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

هي كتبي فليس تصلح من بعدي لغير العطّار والإسكاف
هي إما مزاود للعقاقير وإما بطائن للخُفاف

قال أَبو علي: وما أراد شيخُنا العارفُ إلاَّ قولَ مجير الدين:

عرضت كتابي كي يُبَاع بدرهم على مشترٍ عند الوفاء شحيح
رأى خطَّه ذا علةٍ فأعاده ومن يشتري ذا علةٍ بصحيح

غلبني حيائي فنكّستُ رأسي وقلت في خاطري: حتى هذا الورّاق أعرف بكثير من الأمور مني. ودّعْنا صاحِبَنا أبا علي وغادرنا سوقَ الورّاقين حتى بلغنا البوابةَ الغربيةَ وعندها اعترضتنا سيّارةٌ. قال قائل منهم وقد اقترب منّا: لعلّ الشيخَ من نيسابور؟ ويريد بكلامه شيخنا العارف. قلت: وأنّى عرفت ذلك؟ قال: لي بأهل نيسابور فراسة، ثم إني من نيسابور.

افترّ ثغر الشيخ عن ابتسامة عريضة واحتضن الرجلَ وكأنَّه التقى واحداً من أهل بيته. فاضت عينا الشيخ بالدمع وطفق ينشد:

تحمّل أصحابي ولم يجدوا وجدي وللناس أشجان ولي شجن وحدي
أحبكم ما دمتُ حياً وإن أمت فوا كبدي من ذا يحبكم بعدي

أخذ الشيخ الرجلَ من طرف ذراعه وسار به بضع خطوات حتى أجلسه تحت شجرة صنوبر كبيرة يطلق عليها أهل سمرقند اسم «دوحة المشتاق» ولم أكن أعرف معنى هذه التسمية قبل هذا اليوم حتى رأيت الشيخ العارف يجالس الرجل عندها، فأدركت سرّ التسمية، ظل الرجلان يتناجيان بعض الوقت حتى أومأ الشيخ العارف إليَّ بيده أن اقترب، فاقتربتُ، ثم أشار إليَّ أن أجلس فجلست. نظر الشيخ نحوي مرة ونحو صاحبه مرة، ثم أنشد:

ومن عجب أني أحن إليهم وأسأل عنهم من أرى وهم معي
وتطلبهم عيني وهم في سوادها ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي

قلت للشيخ: هذا كلام مشتاق برّح به الجوى. قال الشيخ: صدقت يا عبد الله، سكت قليلاً ثم أنشأ يقول:

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

يـا نـسـيـم الـريـح هـل مـن وقـفـة　　　تـطـفـئ الـغـلـة أَو تـشـفـي الأوامـا
كــن رســولاً بــســلام عــائــداً　　　نـحـو مـن أنـقـذنـي مـنـك الـسـلامـا
لـم تـثـر شـجـوي حـمـاماتُ الـلـوى　　　بـل غـرامـي عـلّـم الـشـجْـوَ الـحـمـامـا

تذكرت شعراً للشريف الرضي فقلت أنشده للشيخ لعله يخفِّف عنه تباريح الشوق وهو قوله:

يا قلب ما أنت من نجد وساكنه　　　خلفت نجداً وراء المدلج الساري
أهفو إِلى الركب تعلو لي ركائبهم　　　من الحمى في أسيحاق وأطمار
تـفـوح أرواح نـجـد مـن ثـيـابـهـم　　　عـنـد الـقـدوم لـقـرب الـعـهـد بـالـدار
يا راكبان قفا لي فاقضيا وطري　　　وحــدثــانــي عــن نــجــد بــأخــبــار

تواجد الشيخ وصاحبه حتى مال أحدهما على الآخر من شدة الوجد. قلت في [illegible]ري رحم الله الشريف لقد وقف واستوقف وخبّر واستخبر كما فعل قبله ذلك الملك الضليل حيث وقف واستوقف وبكى واستبكى. وقف الشيخ العارف وحوّل وجهه صوب نيسابور، وأخذ ينشد:

أتــتــرك مــن تــحــب وأنــت جــار　　　وتــطــلــبــه إذا بــعــد الــمــزار
وتـبـكـي بـعـد نـأيـهـم اشـتـيـاقـاً　　　وتـسـأل فـي الـمـنـازل أيـن سـاروا
تـركـت سـؤالـهـم وهـم حـضـور　　　وتـرجـو أن تـخـبِّـرك الـديـار
فـنـفـسـك لُـمْ ولا تـلُـم الـمـطـايـا　　　ومُـت كـمـداً فـلـيـس لـك اعـتـذار

نظرت فإذا خلق من الناس تجمعوا حولنا لا نعرفهم، وكلهم أمضّهم الشوق وأرمضهم الحنين حتى ضاقت بهم (دوحة المشتاق). كنت أطمع أن يخفف ذلك عن الشيخ فما زاده إِلاَّ شجاً. صاح أحدهم: أين الأحبة؟ أين الأحبة؟ فرد عليه الحاضرون وكأنهم اتفقوا: تفرَّقوا أيدي سبا.

كان الناس بين نائح وصائح، وحائر وذاهل، وآخر شدّه الفضول. لم

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

يلبثوا على ذي الحال طويلاً إذ انصرفوا فجأة كما ظهروا فجأة، فشرّق بعضهم وغرّب بعضهم الآخر ولم يبق إلاَّ ثلاثتنا، تذكرت قول الزبير بن بكار:

غدونا فشرّقنا وغاروا فَيَمَّنوا ... وفاضت على آثارهن دموعُ

كان الشيخ متكئاً على جذع الشجرة، وقد سقط رداؤه عنه، وسمعته ينشد في صوت خافت:

يا بريقَ الحيِّ حرمْتُ المناما ... فانقضى الليلُ سهاداً وقياما
أترى ما قد أرى يا صاحبي ... كيف والشوق بروحي يترامى
يا سقى الله حِماهم مزنةً ... حلبت أشطرَها أيدي النّعامى
يا نسيمَ الريح بلِّغ واعداً ... أن نفسي مع أنفاسِ الخُزَامى
آه لو عاد زماني بهم ... عند جرعاء الحمى عَوْداً لماما
يا ليالينا بذي الأثل ارجعي ... أسفاً لو أنه يُشفى الندامى
يا صحابي بلغوا إن جزتم ... بنقى الرمل عن الجسم السلاما
إن قلبي يوم طفنا باللوى ... ورحلنا عنه بالوجد أقاما
يا غرامي إن شَدَتْ وُرق وهل ... علّم الوُرقَ سوى وجدي الغراما
قلقي في حرقي من أرقي ... يرتقي بل ينتقي مني العظاما
طربي في كربي من حربي ... تاه بي فيكم ولم أشرب مداما
لو جرت عيني على قدر الأسى ... رجع الماء بواديهم حراما

قلت في نفسي: هذا والله من رقيق شعر ابن الجوزي.

بكى الشيخ وبكى صاحبه وأبكياني معهما، وقال لي الشيخ: ليست بعيون تلك التي حُرِمَت الدموعَ مآقيها، والعين التي لا تدمع قاسية كالحجر، بل هي أشد قسوة، وإن من الحجر لما يتفجّر منه الماء. قلت: ومن العيون ما نضب معينها لشدة البكاء، وأخذت أنشد شعراً لأبي الفرج جمال الدين ابن الجوزي:

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

محت بعدكم تلك العيون دموعها ... فهل من عيون بعدها نستعيرها
رحلنا وفي سر الفؤاد ضمائر ... إذا هبّ نجديُّ الصبا يستثيرها
أتنسى رياض الغور بعد فراقها ... وقد أخذ الميثاق منك غديرها
يجعّده مرّ الشمال وتارة ... يغازله كرُّ الصَّبا ومرورها
ألا هل إلى شمِّ الخزامى وعرعر ... وشيح بوادي الأثل أرض نسيرها
ألا أيها الركبُ العراقي بلِّغوا ... رسالةَ محزون حواه سطورها
إذا كتبت أنفاسه بعض وجدها ... على صفحة الذكرى محاه زفيرها
ترفق رفيقي هل بدت نار أرضهم ... أم الوجد يُذكي ناره ويثيرها
أَعِدْ ذكرَهم فهو الشفاء وربما ... شفى النفسَ أمر ثم عاد يضيرها

تثاقل الشيخ وهوى إلى الأرض فصاح بي صاحبه: ويحك قد أحزنت الشيخ وهيّجت أحزانه. أشار إليه الشيخ بيده أن دعه ثم سمعته ينشد من جديد:

بلغ المنى من حل في وادي مِنى ... غيري فإني ما بلغت مرادي
وبكيت من ألم الفراق وشقوتي ... فبكى الحجيج بأسره والوادي

اعتمد الشيخ على ذراعه واعتدل في جلسته فحمدت الله أن عاد إليه هدوءه وعاودته السكينة، غير أن منصور الدرويش خرج علينا فجأة وكأنما قذفت به الأرض من رَحِمها ليفسد سكينتنا وأخذ يرقص بين يدي الشيخ منشداً:

سمعت حمامةً هتفت بليل ... وقد حنت إلى إلفٍ بعيدِ
فأزعجت القلوبَ وأقلقتها ... فما زلنا نقول لها أعيدي
أرى ماءً وبي عطشٌ شديدٌ ... ولكن لا سبيل إلى الورود

اهتاج الشيخ من جديد واستبقته عبراته وطفق ينشد:

فأشدّ ما لقيت من ألم الجوى ... قرب الحبيب وما إليه وصول
كالعيس في البيداء يقتلها الظما ... والماء فوق ظهورها محمول

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

هاتفٌ يدعو إلى يثرب

في طرف قصيّ من أطراف سمرقند، وعند رافد من روافد نهر جيحون كان ثمة كوخ قديم مهجور، تنبعث من جنباته رائحة الخشب النّديان وقد غُطِّيت أرضُه بالعشب اليابس والقش، وقد حفّته من الخارج الزهور. تداعى جزءٌ من سقفه بفعل الزمن، فألقت شجرة سرو ضخمة بأغصانها على سقفه المتهالك، فبدت وكأنها أشفقت على ما تداعى منه، فضمّته في حنوّ إلى صدرها كأنها أم رؤوم تحتضن وليدها. وكنتُ كلّما عنّ لي أن أخلو بنفس آوي إلى ذلك المكان لفرط سكونه وسكينته، ولجماله الساحر الأخّاذ. فلا تُعَكّر صفوه المزعجاتُ، ولا تشوّه حسنَه المفسداتُ مما تصنعه أيدي البشر عادة من مدنّسات تلحق بكل نقيّ طاهر.

كان المكانُ كلُّه يصدح بغناء البلابل وشدو العنادل، فتتراقص لفرط حبورها الأزاهيرُ، وتتثنى لشدّة مَيْسها الأغصان. وعلى الجانب الآخر من ضفة النهر كان هنالك تلّة صغيرة تجلّلها أشجار السنديان، وعلى رأس التلّة كان يوجد قبر كتب على شاهده:

ذهــبَ الــعُــمْــرُ وفَــات ... يــا أســيــرَ الــشّــهــوات

ومــضــى وقــتُــك فــي لــهــوٍ ... وســهــوٍ وسُــبــات

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

بينما أنت على غيّك حتى قيل مات

وكتب على الوجه الآخر من الشاهد:

جمعوا فما أكلوا الذين جمعوا وبنوا مساكنهم فما سكنوا

فكأنهم كانوا بها ظعناً لما استراحوا ساعة ظعنوا

كانت تأتيه عجوزٌ فتجلس لِقربه ساعةً من زمان في عصر كل جمعة، وترشّ على القبر ماءً من إبريق تحمله معها، ثم تغادره في صمت. ولا تنقضي ساعة من ذلك حتى تأتي جارية متّشحة بالسواد فتجلس بقرب ذلك القبر ولا تغادره حتى تغطّيه بالرياحين والورود التي جمعتها وهي في طريقها إليه ثم لا تلبث أن تنصرف في هدوء. ولا تمرّ ساعة حتى يُقْبل شابٌّ فتيّ فيجلس عند ذلك القبر، ويخرج من جيبه مزماراً فينفخُ فيه لحناً شجياً يبكي عجماوات الوادي، ثم ينصرف، حتى كان يوم جمعة فلم تأتِ العجوز كعادتها، فتحيّرت، فترقبتُ قدوم الجارية حتى أقبلت، وكشأنها غَطَّتْ القبر بالرياحين وانصرفت فاعترضتُ طريقها وسلّمتُ عليها، فلم تَرُد، وسألتها عن العجوز، فقالت ولم تزد: قضت نحبها. قلتُ: مَن تلك العجوز؟ ومَن صاحبُ القبر؟ مضت ولم تجب.

انتظرت الفتى حتى أقبل وَشَرَع يعزف لحنَه الحزينَ المعتاد. اقتربتُ منه حتى إذا لم يبقَ بيني وبينه إلا بضع خطوات، نهض وكان وجهه شاحباً مصفرّاً، وقبل أن أبادره بالكلام سبقني فأنشد بصوت رخيم:

شجاك الفراق فما تصنع أتصبر للبين أم تجزعُ

إذا كنتَ تبكي وَهُم جيرةٌ فماذا تقول إذا ودّعوا

انصرف الفتى دون أن يلتفت نحوي، وتركني تمضّني الحيرة وكان ذلك اليوم آخر عهدي بزوّار القبر هذا، فمضوا ولم أقف على خبرهم.

كان ذلك الكوخ وتلك التلّة من بعض أرباض سمرقند وجنّاتها التي تلتفّ بروافد جيحون الذي غيّر المغول اسمه إلى أموداريا عند اجتياحهم بلاد الصغد،

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وكان قبل الفتح الإسلامي يعرف بنهر اكسوس. ويبدو أن اسم (جيجون) اقتبسه العرب من اسم أحد أنهار جنة عدن الذي ورد ذكره في الإصحاح الثاني من سفر التكوين. ولفرط ذكرى هذا المكان أمام شيخنا العارف شَوَّقَتهُ إلى زيارته فخرجت برفقته إليه لعلّي أروّح عنه مما أصابه مِن حزن لذكر الأهل والأحبة عند دوحة المشتاق.

سرتُ مع الشيخ حتى بلغنا الكوخ بعد نحو ساعة من المسير. جلسنا داخل الكوخ، وطرح الشيخ رداءه وأجلسني عليه. امتنعت عن الجلوس لأنني رأيت ذلك يتنافى مع أدب الصحبة ويتعارض مع أدب الطلب، فضلاً عن مجافاته للّياقة والذوق لأن الشيخ كان في عمر أبي، غير أنه شدّني وأجلسني وكأنه يقول لي: لا تبال. دسستُ يدي في كيس كنت أحمله معي وأخرجت برتقالتين وبعض الكرز. تناولنا ما كُتِب لنا، ثم خرجنا نتمشّى على ضفاف النهر حتى بلغنا التلّة. صعدنا حتى وصلنا قنّتها حيث ذلك القبر وفوجئنا بوجود ذلك الشاب الغريب جالساً عند رأسه كعادته وقد انكسر مزماره بين يديه، وعَلَتْهُ صُفْرَةٌ ونحولٌ حتى بدا لي وكأنه جثةٌ لفظتها لِتَوِّها الأرضُ. تذكرت حينما وقع بصري على الفتى قول ديك الجن الحمصي:

أنحل الوجدُ جسمَه والحنينُ ... وبراه الهوى فما يستبينُ

لم يَعِش أنّه جليدٌ ولكن ... دقّ جدّاً فما تراه العيونُ

اقترب منه الشيخ العارف وجلس إلى قربه ووضع يده على رأسه ومسح جبينه، فما كان من الفتى إلاّ أن ألقى برأسه على كتف الشيخ وراح ينشج. ربت الشيخُ على كتف الفتى وأنشد:

حكم المنية في البرية جار ... ما هذه الدنيا بدار قرار

جُبِلَتْ على كَدَرٍ وأنت تريدها ... صَفْواً مِن الأقذاء والأكدارِ

فاقضوا مآربكم عجالا إنما ... أعمارُكم سفرٌ من الأسفارِ

انتشى الفتى بقول الشيخ، فأنشأ يقول:

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

باحت بستري في الهوى أدمعي ودلّت الواشي على موضعي
يا قوم إن كنتم على مذهبي في الوجد والحزن فنوحوا معي

ابتسم الشيخ وكأنه أدرك ما يعتلج في صدر الفتى، ثم قال: إيه بنيّ قلوبنا مظلمة مهجورة، كأنها ديارٌ حلَّ بها البلى، فأضحت قاعاً بلقعاً كأنها (لم تغن بالأمس)... يا ساكن الرمس، في ظلمة القبر بلا أُنس.. كيف تمسي؟ وسفنية الروح ممزّقة القلوع تتهادى في لُجّة الغَلَسِ.

أي بني: اجعل أنيسَك القرآن وتدبّر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: الآيات 30 ـ 32] أتدري ما الاستقامة؟ هي مراقبتك الله في السرِّ والعَلَن.

أتدري يا بنيّ ما حقُّ الميت على الحيّ؟

حقه عليه عند موته أن يغسّله ويكفّنه ويحمل جنازته ويصلي عليه ويدفنه. ويُنْدَبُ له بعد موته زيارته والدعاء له.

نهض الفتى، ونهض الشيخ معه، ووضع يده على صدر الفتى وهو يتمتم: ﴿... رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ...﴾ [الأعراف: الآية 126] سار الفتى مبتعداً، فقلتُ للشيخ: لقد غادرنا ولم نعرف حكايته. قال الشيخ: لقد قال كلَّ شيء، وهذا حسبك.

كانت الشمسُ تظهر في خجل حيناً وتختفي أحياناً وراء سحب آذار التي ألقت على الوادي ثوباً رمادياً. أخذ البرد يتسلل إلى مفاصلنا فتركنا المكان وقفلنا راجعين إلى الدار قبل أن تظلم الدنيا.

وفي الدار حدثني الشيخ العارف حديثاً طويلاً عن الموت والحياة والاغتراب، فانتابني شعورٌ غريب أنّه حديث مودِّع، وأسمعني شعراً رقيقاً عذباً تَشِيعُ من أبياته حرارةُ الإيمان. وكان مما أسمعنيه:

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أروح وقد ختمتُ على فؤادي ... بحبِّك أن يحلَّ به سواكا
فلو أنّى استطعتُ غضضتُ طرفي ... فلم أُبصر به حتى أراكا
أُحبك لا ببعضي بل بكلّي ... وإن لم يُبْقِ حبُّك لي حراكا
ويقبح عن سواك الفعلُ عندي ... فتفعله فيحسُن منك ذاكا
وفي الأحباب مختصّ بوجدٍ ... وآخر يدّعي معه اشتراكا
إذا اشتبكت دموعٌ في خدودٍ ... تبيّن مَنْ بَكى ممن تباكى
فأمّا مَن بكى فيذوب شوقاً ... وينطق بالهوى من قد تباكى

وهذا من شعر أبي الطيب، غير أن لكليهما مراداً مختلفاً. وكان مما أنشدنيه أيضاً:

أحبّايَ أمّا جفن عيني فمقروحُ ... وأمّا فؤادي فهو بالشوق مجروحُ
يذكّرني مرُّ النسيم عهودَكمُ ... فازداد شوقاً كلّما هبَّ الريحُ
أُراني إذا ما الليل أظلم أشرقتْ ... بقلبي من نار الغرامِ مصابيحُ
أُصلّي بذكراكم إذا كنت خالياً ... إلا أنّ تذكار الأحبة تسبيحُ
يشح فؤادي أن يخامرَ سِرَّهُ ... سواكمُ وبعض الشُّح في المرء ممدوحُ

لم يعد ثمة شك أن الشيخ ما عاد يطيق المكوث في سمرقند لطول البين وشدّة النّوى، وأخشى أن أُصْبِحَ يوماً فلا أجدُهُ. ألقيتُ رأسي على وسادتي وأنا أتمثل قولَ الشاعر:

مكتئبٌ ذو كبدٍ حرّى ... تبكي عليه مقلةٌ أخرى
يرفع يمناه إلى ربٍّ ... يشكو وفوق الكبدِ اليسرى
يبقى إذا حدثته باهتاً ... ونفسه مما به سكرى
تحسبه مستمعاً ناصتاً ... وقلبه في أمّة أخرى

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

رحتُ أغطّ في نومٍ عميق، لم أفق منه إلاّ على صوت الشيخ العارف مداعباً:

قم بنا يا أخي لما نتمنى ... واطرد النومَ بالعزيمة عنّا
قم فقد صاحت الديوك ونادت ... لا تكون الديوكُ أطربَ مِنّا

قمتُ متثائباً في مشيتي، ولم يكن من سبيل لطرد النعاس عن جفني إلاّ أن أنضح وجهي بالماء البارد.

صلينا الفجر، ثم جلس الشيخ يقرأ القرآن في ركن الدار، حتى إذا فرغ من قراءته التفت نحوي وقال: أي عبد الله. داعٍ دعا وسأُلبّي النداء. قلتُ: إلى أين؟ سأقصد نيسابور. ومنها أخرج إلى بيت الله حاجّاً. ولعلَّ الله يكرمني بمجاورة المصطفى ﷺ.

وقف الشيخ واتجه نحو النافذة وفتحها، فتسلل منها ضوءٌ واهن من نور الفجر. نظر الشيخ إلى السماء، وكأنني سمعته ينشد في صوتٍ خافت:

جسمي معي غير أن الروح عندكم ... فالجسم في غربة والروح في الوطنِ
فليعجب الناسُ منّي أنَّ لي بَدَناً ... لا روحَ فيه، ولي روحٌ بلا بَدَنِ

التفت نحوي وقال: يا عبد الله مَن اتّبع هوى الجسد ابتلي بغربة الروح...

هنا هتفت ورقاء وكأنها تنوح فزادت من حنين الشيخ، فهرع ينشد:

أفي كلِّ يومٍ غربة ونزوحُ ... أما للنوى مِن وَنْيهِ فتُريحُ
لقد طلّح البينُ القذوفُ ركائبي ... فهل أرين البين وهو طليحُ
وأرّقني بالريّ نَوْحُ حمامةٍ ... فَنُحتُ وذوِ الشجو القديم يَنوحُ
وناحت وفرخاها بحيث تراهما ... ومِن دون أفراخي مَهامِهُ فيحُ

قال: يا عبد الله ألا تحفظ شيئاً في هذا المعنى؟ قلت: بلى، فاسمع:

يا بعيد الدّار عن وطنه ... مُفْرَداً يبكي على شجنه
كلّما جَدّ النحيبُ به ... زادت الأسقام في بَدَنِه
ولقد زادَ الفؤادَ شجىً ... هاتفٌ يبكي على فننه

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

شَـاقَـهُ مـا شـاقـنـي فـبـكـى كـلـنـا يـبـكـى عـلـى سـكـنـه

قلتُ: يا سيدي ما أحببتك والله إلاّ في الله، وما أراني إلا خارجاً معك طالباً صحبتك إن أَذِنْتَ. قال: على أن تقوم بشرطها. قلتُ: وما شرطها؟ قال: ألاّ تطلب حظك في الصحبة. قلت: هذا هيّن. قال: بل ثقيل وسوف أذكّرك بهذا.

قلتُ: اخرج اليوم واستأذن أشياخي. قال: نِعْمَ ما تصنعُ. ولعلّنا نرحل اليوم أو غداً. قلتُ: ألا ننتظر عدة أيام أُخر ريثما نجهّز أنفسنا ونُعِدّ رَحْلَنا؟ قال: يكفينا من كلِّ ما نحتاج أقله، وحتى هذا القليل قد لا نحتاجه إذ لن يتعذَّر علينا إن شاء الله الحصولُ عليه في طريقنا. قلتُ: أحبُّ أن أحمل معي كتبي فهي عزيزة عليّ. ابتسم الشيخ وقال: رحم الله القائل:

علمي معي حيثما يممتُ يتبعني قـلـبـي وعـاءٌ لـه لا بـطـن صـنـدوق

إن كنت في البيت كان العلم فيه معي أو كنتُ في السوق كان العلمُ في السوق

الكتب يا عبد الله ثقيلة الوزن، هي عرضة للتلف والضياع، ورحم الله ابن حزم حيث قال لمّا أحرق ابن عبّاد كتبه:

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي تضمّنه القرطاسُ بل هو في صدري

يسير معي حيث استقلت ركائبي وينـزلُ إنْ أنـزل ويـدفَـنُ فـي قـبـري

وإذا كان لا بدَّ فاختر واحداً يؤنسك في وحشة الطريق عدا كتاب الله الذي هو في صدرك. قلتُ منشرحاً: هو لا آخر غيره، كتاب (الإحياء) لسيدي أبي حامد الغزالي الطوسي. قال: أحسنت يا بنيّ الاختيار، فهو المعلّم لمن لا معلّم له، والمدرسة لمن لا مدرسة له.

تناولنا ما قسم الله لنا من فطور، ثم استأذنتُ الشيخ وخرجت من الدار مسرعاً ميمماً صوب سوق الورّاقين حيث أزفّ هذه البشرى إلى صديقي أبي علي الورّاق، ومن ثم إلى شيوخي أستأذنهم في الخروج للحج في رفقة شيخنا العارف النيسابوري.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT
Est. 2012 CE

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وَدَاعاً سَمَرْقَنْد

وقفت بباب دكان أبي علي الورَّاق وكان موصداً على غير عادته، تعجبت للوهلة الأولى ثم أدركت أنني بكرت في الحضور. انتظرت بعض الوقت، ولم يطل انتظاري حتى ظهر صاحبنا من بعيد وهو يتأبط حزمة من الورق لا أظنها إلاَّ مخطوطات قديمة أَو كراريس. سلم أَبو عليّ وفتح باب دكانه، وشرع يعدّ الشاي كالمعتاد. أخبرته بعزمي على الرحيل مع الشيخ العارف. التفت نحوي وقال: أتدري يا عبد الله؟ إنه ليحزنني فراقك، ولكن امض لما تحب وما أراك إلاَّ بالغاً حاجتك إن شاء الله. قلت: هل تصدق أبا علي أنَّك أول من قصدته هذا الصباح لأطلعه على ما عزمت؟ قال: كيف لا أصدق ذلك وأنا موضع سرك الذي لا تطيق أن تحفظه في نفسك فتستودعنيه على حبّ مني حيناً وكرهاً مني حيناً آخر. قلت: سأذكرك أبا علي في سفري كلما وقفت على باب ورّاق. ضحك أَبو عليّ وقال: ويحك يا عبد الله، ستذكرني كثيراً إذن! سكت قليلاً ثم قال: ومتى سترحلان إن شاء الله؟ قلت: اليوم آخر النهار أَو ربما غداً، تلك رغبة الشيخ.

قال: على بركة الله. مد يده نحو رفّ من الرفوف وأخرج كتاباً بعنوان (صفحات من صبر العلماء على شدائد الطلب والتحصيل). وقال: إنه لأحد فضلاء عصرنا جمع فيه ما وقع عليه من أخبار العلماء والكتاب في مواجهة ما لاقوه من عنت ونصب في طلب العلم.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

هو هدية مني إليك. مددت يدي وأخذت الكتاب ولما وقع بصري على اسم مؤلفه قلت لأبي علي: عندي لصاحب هذا الكتاب مؤلف آخر ظريف عنوانه (العلماء العزاب الذين آثروا العزوبة على الزواج) ستجده في داري يمكنك أخذه. وهذا مفتاح الدار أتركها وديعة بين يديك فأنت تعلم أنني قدمت من طوس إلى سمرقند مع والديّ ولا أهل لي هنا فيها بعد وفاتهما. سأتركك الآن لتوديع أشياخي وأصحابي. قال: لا تنس يا عبد الله أن تطلب منهم أن يجيزوك بما تلقيت عنهم من علوم وآداب. لم يكن هذا الأمر ليخطر ببالي لولا أن ذكّرني به أَبو علي. كان دائماً يذكّرني ما أنسى.. مسكين أَبو علي طالب علم نجيب خانه الخط وعاندته الأسباب، فأعرضت عنه الدنيا وأشاحت عنه بوجهها، فعرف اليتم صغيراً والغربة كبيراً، ولولا الفقر لانصرف للعلم، ولكن شاء الله أن يكون ورّاقاً. وعمله في الوراقة يسَّر له ما تعسر على غيره من الوقوف على نوادر الكتب وأصول العلوم. وربما كانت له معرفة ببعض دقائق العلم مما قد يفوت على أكبر الشيوخ والأساتيذ. وما زلت أذكر يوماً قلت له: هذه صنعة لا تورث إلاَّ الفقر والهم ماذا لو طلبت غيرها؟ أجابني منشداً:

أنا إن عشت لست أعدم قوتاً وإذا متُّ لست أعدم قبرا

سلَّمت على أَبي علي وعانقني في حرارة ثم حوّل عني وجهه وكأنه لا يريد أن تقع عيناي على عينيه المغرورقتين بالدمع.

تركته وسرت في طريقي حتى بلغت مدرسة (شير دار) وتعني بالفارسية: عرين الأسد حيث كان يجلس للتدريس فيها شيخنا شهاب الدين القاضي وشيوخ آخرون من بينهم الشيخ أَبو سعيد الزاهد النحوي والشيخ الصالح تقي الدين الأنطاكي دخلت أولاً على الشيخ شهاب الدين فوجدته قد فرغ لتوّه من درسه. جلست إليه وحدّثته بما نويت، وسألته نصحه فقال لي: اجعل خروجك يا بني بنية طلب العلم، فالعلم أشرف ما يطلب المرء واجعله خالصاً لله ولا تطلب به دنيا وإلاَّ حرمت بركته، واعلم أن الله أراد بك خيراً إذ جعل في طريقك رجلاً صالحاً كالعارف النيسابوري فاغتنم هذه الفرصة وقم على خدمته وتذلّل إليه ولا

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تقف حتى يقف ولا تجلس حتى يجلس واجعل علوّ الهمة من شأنك وترفّع عن سفاسف الأمور ولا تنسَ أن في المرء عيوباً يحرص على سترها عن أعين الناس قد يفضحها السفر وطول العشرة، أي بني ستقف في سفرك على معارف وعلوم لن تجدها في الأسفار والدواوين ولا عهد لك بمثلها فإذا وجدتها فوطّن نفسك على شدائدها ولأوائها لأن العلم أمانة والأمانة تكليف والتكليف ثقل تنوء به السماوات والأرض والجبال ولعل هذا بعض معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: الآية 72] قلت: هل أطمع يا سيدي أن تجيزني فيما تلقيته عنك؟ قال: نعم. وهي إجازة صحيحة لأنها إجازة في معيّن لمعيّن. أخرج قرطاساً وقلماً واكتب: بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على خير من اصطفى وبعد. سألني ابننا البار الطالب النجيب عبد الله المحجوب أن نجيزه فيما تلقاه عنا من علوم شرعية فأجبناه إلى طلبه وأجزناه على الشرط المعلوم بما يلي: سمع منا المذكور في أصول الفقه (الإحكام في أصول الأحكام) للآمدي، ومن أول كتاب (نهاية السّول) للإمام جمال الدين الإسنوي وحتى نهاية مبحث (الإجماع)، وطرفاً من كتاب (شرح اللمع) في الأصول لأبي إسحاق الشيرازي يتضمن مبحث (القياس) و(الاستحسان) و(الاستصحاب). وفي أصول القضاء سمع منا كتاب (تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام) للقاضي ابن فرحون وفي الفقه سمع منا كتاب (الغصب) من اختلاف الفقهاء لابن جرير الطبري، ومختصر القدوري وفتح القدير لابن الهمام في الفقه الحنفي.

أخرج الشيخ خاتمه وختم به الإجازة، فطويتها ووضعتها في جيبي ثم ودعت الشيخ وخرجت. وفي ساحة المدرسة وجدت الشيخ أبا سعيد الزاهد النحوي يتجول في باحة المدرسة بصحبة الشيخ الصالح تقي الدين الأنطاكي. كنت تلقيت على يد الشيخ الزاهد علوم العربية من نحو وصرف وبلاغة، فقرأت عليه ألفية ابن مالك بشرح ابن هشام المسمى (أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك) و(مغني اللبيب عن كتب الأعاريب) لابن هشام أيضاً. وقرأت عليه

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

(الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين) لابن الأنباري، وسمعت عليه كتاب (الرد على النحاة) لابن مضاء، وكان الشيخ معجباً بجرأته.

وفي أصول النحو سمعت منه الأبواب الخمسين الأولى من كتاب (الخصائص) لابن جني وأولها باب (القول على الفصل بين الكلام والقول) وآخرها باب: (في أن ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب) ولفرط ولع الشيخ بالنحو كان يقدمه على كل العلوم، وكثيراً ما كنا نسمعه ينشد:

النحو قنطرة الآداب هل أحد ... يجاوز البحر إلاَّ بالقناطير
لو تعلم الطير ما في البحر من أدب ... حنت وأنت إليه بالمناقير
إن الكلام بلا نحو يحسنه ... نبح الكلاب وأصوات السنانير

وسألته مرة عن جمع قنطرة، فعلم مقصدي وقال لي قناطر. ولكنها الضرورة. وكان الشيخ إذا أراد أن يروّح علينا قرأ لنا في (إصلاح المنطق) لأَبي يوسف يعقوب بن إسحاق السِّكّيت. وهو كتاب جليل القدر عظيم النفع، وما زلت أذكر أنه سألني مرة أن آتي له بمثال على الحال تكون جملة فعلية، فقلت: خرج الأمير يتنزه فضحك مني، وقال لمن عن يمينه: هات إصلاح المنطق. فأخذه وقرأ فيه: «ومما تضعه العامة في غير موضعه قولهم: خرجنا نتنزه، إذا خرجوا إلى البساتين. وإنما التنزه التباعد عن المياه والأرياف. ومنه فلان يتنزه عن الأقذار أي: يباعد نفسه عنها...» فكان ذلك أول عهدنا وسماعنا بإصلاح المنطق ولحن العوام. وفي علوم البلاغة قرأت عليه شرح السعد المسمى (مختصر المعاني) للتفتازاني، وهو من أفضل كتب المتقدمين في فنه وضع للمبتدئين. وسمعت منه (أسرار البلاغة) لعبد القاهر الجرجاني، وفصولاً من (دلائل الإعجاز) له أيضاً.

أما شيخنا تقي الدين الأنطاكي فقد تلقيت عليه علوم المنطق والكلام وقد سلخت في ذلك نحو أربع سنوات من عمري. ففي المنطق درست عليه شرح السلم للأخضري، و(التقريب لحد المنطق) لابن حزم، (ومعيار العلم) للغزالي. وكان شيخنا الأنطاكي كثير الانتقاد لمنطق أرسطو وقد دفعه ذلك إلى أن يجلس إلى تدريس كتاب (الرد على المنطقيين) لشيخ الإسلام ابن تيمية، وهو

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

من أعظم الردود على المنطق الأرسطوطاليسي. وفي علم الكلام سمعت منه (المواقف) للعضد الإيجي و(الشامل) في أصول الدين للجويني.

سلَّمت على الشيخين وأخبرتهما بما عزمت، واستأذنتهما في السفر فأذنا لي ودعيا لي بالخير، واستجزتهما فيما تلقيت عنهما، فأجازاني.

تركت مدرسة (شبر دار)، وانطلقت مسرعاً نحو مدرسة (تلا كاي) حيث يعلم شيخنا أَبو الحسنات علاء الدين الحائك، فقيه سمرقند ومحدثها. فوجدته وقد تحلق حول تلاميذه وهو يبين لهم أنواع التدليس في الخبر، ومراتب المدلسين، والفرق بين التدليس والإرسال الخفي. تركته حتى انتهى من درسه، واقتربت منه وسلمت عليه، وسألني عن الشيخ العارف وأحواله فأخبرته بما عزمنا عليه وسألته أن يجيزني فيما تلقيت عنه وكنت قرأت عليه في مصطلح الحديث (ألفية العراقي) بشرح السخاوي (والكفاية في علوم الرواية) للخطيب البغدادي، وتدريب الراوي للسيوطي. وفي علم علل الحديث قرأ علينا شرح (علل الترمذي) للحافظ ابن رجب الحنبلي، وفي الجرح والتعديل (الرفع والتكميل) للإمام اللكنوي الهندي.

أجازني الشيخ فيما طلبت منه، وسألته النصح، فقال لي: هل تذكر يا عبد الله أول حديث افتتح به الإمام البخاري جامعه الصحيح؟ قلت: نعم. حديث (إنما الأعمال بالنيَّات وإنما لكل امرئ ما نوى) وأخرجه البخاري في مواضع متعددة من صحيحه، وأخرجه مسلم وأَبو داود والنسائي وابن ماجه وأَحمد في مسنده. قال: أحسنت. واعلم أن حديث (إنما الأعمال بالنيَّات) هو أحد أربعة أحاديث تدور عليها رحى الإسلام. والنية هي القصد وهو عزيمة القلب. فصحِّح النية واعقد العزم على الإخلاص، واجعل هجرتك إلى الله ورسوله يوفقك الله لما يحبه ويرضاه. واعلم يا بني «أن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يُبق عالماً، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا» وهذا من جوامع كلم المصطفى وقد أخرجه الشيخان في صحيحيهما. ولا تنس قوله ﷺ: «**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**» وقوله: «**من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً**

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

سهَّل الله له به طريقاً إلى الجنَّة» وهذا أخرجه مسلم. أتدري يا عبد الله متى يكون الحسد مشروعاً؟ قلت: أظنه في العلم. قال: صدقت ولا يسمى ذلك حسداً وإنما غبطة لأن الحسد هو تمني زوال نعمة المحسود، والغبطة تمني ما عند الآخرين من نعمة مع الدعاء ببقائها لهم. تذكر يا بني قوله ﷺ في حديثه الذي أخرجه الشيخان: «**لا حسد إلاَّ في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها**».

سكت الشيخ قليلاً ثم قال: سنفتقدك كثيراً يا عبد الله، ولكن عزاءنا أنك ستخرج في رفقة صاحبنا النيسابوري. إنك لمحظوظ. ثم طفق ينشد:

سافر تجد عوضاً عمن تصاحبه ... وانصب فإن لذيذ العيش في النصب

إني رأيت وقوف الماء يفسده ... إن سال طاب وإن لم يجر لم يطب

والأُسْدُ لولا فراقُ الغاب ما قنصت ... والسهم لولا فراق القوس لم يصب

والتِّبر كالتُّرب ملقى في أماكنه ... والعود في أرضه نوع من الحطب

فإن تغرَّب هذا عزّ مطلبه ... وإن أقام فلا يعلو على الرتب

قلت له: أجزني فيما تلقيت عنك يرحمك الله. قال: أجزتك. ولم أبرح حتى كتب لي إجازة بذلك. ودّعت الشيخ وانصرفت أدور في شوارع سمرقند، وأمتع ناظري بمعالمها قبل فراقها. وقفت أمام مدرسة (سرنجان) وتذكرت عهوداً أمضيتها فيها، سقى الله تلك الأيام ما أروعها! تركتها وذهبت إلى مدرسة (سرجند) وهي تقع في وسط المدينة. طفت حولها مرتين، ثم غادرتها ومضيت إلى أطراف المدينة وعند تلة تشرف عليها وقفت ساعة أتأملها، وأنا أنشد:

أيا بانة الغور عطفاً شفيت ... وإن كنت أكني وأعني سواك

أحبك من أجل من تعلمين ... لو أني أراه كما قد أراك

ذكرتك ويا لهفي هل نسيت ... ليالي أسمرها في ذراك

وداعاً سمرقند.. وداعاً يا أم المغتربين. وداعاً يا عظمة الإنسان وروعة التاريخ.

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الفهرس

الإهـداء 7
تقديم 9
اجتماع العارف النيسابوري بعبد الله المحجوب في سمرقند 13
العَارِفُ النَّيْسَابُورِيّ يَعِظُ أَحَدَ المغْرُورِينَ 17
فِي خَرائِبِ سَمَرقند 21
في سوق الورّاقين 25
عَبْدُ الله المحجُوب وقَاضِي سَمَرْقَنْد 29
في سوق سمرقند 35
العارِفُ النّيْسَابُوريُّ يَشْرَحُ كَلِمَةَ التَّوحِيدِ (لا إله إلاَّ الله) 39
العَارِفُ النّيْسَابُورِيُّ يَكشِفُ عَنْ عِلَّةِ الإِفْسَادِ في الأَرضِ 43
العَارِفُ النّيْسَابُورِيُّ . . البَاحِثُ أَبَداً 49
السّير في طريق الله 53
العَارِفُ النّيْسَابُورِيُّ يُحَذِّرُ مِن بَعْضِ خُرَافاتِ أَهْلِ الطّرِيقَةِ 59

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

نوحٌ الجامعُ القاصّ يهيّج العامَّةَ على عبدِ الله المحجوب . . 65
العارِف النَّيْسَابُورِيّ يُجيبُ عَلى أسئلةِ نُوح الجامعِ ويختَبِرُه بلغزٍ فقهيٍّ 71
الإعْجَابُ بالنَّفْسِ واتّبَاعُ الهَوَى 77
فَسَادُ قَوْلِ صَاحِبِ «فُصُوصِ الحِكَمِ» إنَّ فرعونَ مات مؤمناً 83
منزلَةُ القُرْبِ مِنَ اللّهِ 89
العَارِفُ النّيْسَابُورِيُّ يفسِّرُ لعبدِ الله المحجوب قَوْلَه تَعالى:
﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ 95
العَارِفُ النّيْسَابُورِيُّ يشرح لعبدِ الله المحجوب طرفاً من فلسفة
ابنِ طفيل الأندلسيِّ وحكايته عن حيِّ بن يَقظان . . 99
العَارِفُ النّيْسَابُورِيُّ يُحَذِّرُ عَبْدَ اللَّهِ المحجوب من أحاديثَ موضوعةٍ
اشتهرت عَلى ألسنةِ المتصوِّفَةِ 103
العَارِفُ النّيْسَابُورِيُّ يكمل حديثه عن المقالات الفاسدة عند بعض المتصوِّفة 109
العَارِفُ النّيْسَابُورِيُّ يُحَدِّثُ عبد الله المحجوب عن بعضِ التآليف
والمصنَّفاتِ 115
العَارِفُ النّيْسَابُورِيُّ يَكْشِفُ عَن بَعْضِ الخُرَافاتِ 121
العَارِفُ النّيْسَابُورِيُّ يكْمِلُ حديثَه عن خَتْم الولايةِ والإنسانِ الكاملِ
والحقيقةِ المحمديَّةِ 129
العَارِفُ النّيْسَابُورِيُّ يستعرض بعض كتب التصوف النافعة ويستحثّ
عبد الله المحجوب على قراءتها . . 135
الجَمَالُ والجَلالُ والفِرَارُ إلى اللهِ 141

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

عَنِ الغَفْلَة واكْتِشَاف الذّات 145

عن مراتبِ اليقينِ 151

عَن المعرِفَةِ وَمَقَامِ العارفينَ 157

العَارِفُ النّيْسَابُورِيُّ يشرع في تفسير قولِه تعالى:

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ 163

العَارِفُ النّيْسَابُورِيُّ يَعْرِضُ لأدلَّةٍ واهيةٍ يحتجُّ بها مَنْ يميلُ إلى تفسيرِ القرآنِ وأحكَامِ الشريعةِ على نَهْجِ أهْلِ الباطِنِ... 169

العَارِفُ النّيْسَابُورِيُّ يَجْتمعُ بصَاحِبِهِ القديمِ الشيخِ أَبي الحَسَنات علاءِ الدِّين الحائكِ فقيهِ سَمَرْقَنْدَ.. ومُحَدِّثِها.. 175

عَن العِلْمِ اللّدُنِّي وَعلْمِ البَاطِنِ والتَّفْسِيرِ الإِشَارِيِّ 181

العَارِفُ النّيْسَابُورِيُّ والمرَابِي... 187

في بيتِ الشيخِ علاءِ الدِّين الحَائِك.. 193

عَنْ أَدَبِ الاخْتِلافِ.. 199

العَارِفُ النّيْسَابُورِيُّ يُكْمِل حَديثَهُ عَن أَدَبِ الخِلافِ.. 205

الحديثُ عن أصُولِ الاخْتِلافِ 211

قَاضِي سَمَرْقَنْد الشَّيخ شِهاب الدِّين يستكمل تَمهيدَهُ لِلْحديثِ عن أصُول الاخْتِلَافِ وأسْبابِه في حُضُور الْعَارِفِ النَّيْسَابُوري وَرَهْطٍ مِنَ الطُّلاّب.. 217

القَاضِي شِهَابُ الدّين يَشْرَعُ في بَيَانِ أسْبَابِ الاختلافِ بينَ الفُقَهَاء 225

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

العَارِفُ النّيْسَابُورِيُّ يُكْمِلُ مَا بَدَأَهُ القاضِي شهابُ الدِّينِ مِن حَديثٍ عَنْ أَسْبَابِ الاختلافِ بين الفُقَهاء 233

العَارِفُ النّيْسَابُورِيُّ وَصَحْبه أمام ضَريحِ تَيْمُورلَنْك في سَمَرْقَنْد 243

العَارِفُ النّيْسَابُورِي وعبد الله المحجوب عند دوحة المشتاق 249

هاتفٌ يدعو إلى يثرب 255

وَدَاعاً سَمَرْقَنْد 263